دراسات أدبية

دورية محكمة تصدر عن مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعلمية- الجزائر

العدد الثاني و العشرين (22)رمضان 1439هـ الموافق لـ جوان 2018

من فصاحة الكلمة إلى فصاحة الكلام: مضمار الإعجاز في دلائل الإعجاز
لعبد القاهر الجرج
د.سامية عليوات

موقف الحركة الاستشراقية من تاريخ النحو العربي ونقدها
د.حمداد بن عبد الله

اللّسانيات العرفنيّة نحو منهج جديد لمقاربة النصّ الأدبي
د.نجاة بوقزولة

سمات الخطاب القرآني دراسة في الأسلوب
د.عبد الله علمي

الكلمة في شعر الشنفرى بين الدلالة والبدائل
د.العيفاوي حمزة

الفروق في العناصر اللغوية بل اللغتين العربية والإندونيسية وأهمية معرفتها
في الترجمةمن اللغة العربية إلى اللغة الإندونيسية وبالعكس (دراسة تقابلية)
د. سوكامتو سعيد

التوجيه اللغوي لانفرادات الإمام قالون في روايته عن الإمام نافع
أ.خالد خالدي

ظاهرة التشكيل البصري في الشعر الجزائري المعاصر ديوان "ما لم يقله المهلهل"
للشاعر امحمد زبور أنموذج
أ.طيبي بوعزة

التفكير التداولي في التراث اللغوي العربي القديم
أ.محمد عبد الرحمن حسوني

دواعي الغموض في الشعر العربي المعاصر
أ.ضامري مصطفى

مظاهر الغموض المعجمي في التّرجمة الاقتصادية (الجناس اللّفظي) أنمـــوذجا
أ.بوحفص اسمهان

الرقم الدولي ISSN 046X – 2170

بسم الله الرحمن الرحيم

دراسات أدبية

دورية سداسية مُحكَّمة تصدر عن:

مركز البصيرة

للبحوث والاستشارات والخدمات التعلّمية

المجلد 10 العدد 3

رمضان 1439هـ الموافق لـ جوان 2018

عدد خاص

رئيس التحرير

د/ ريوقي عبد الحليم

eladabiya@hotmail.fr

هيئة التحرير

- د. إسماعيل بوزيدي، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة
- د. بن يامنة سامية . المدرسة العليا للأساتذة . وهران
- د. فتيحة بن يحي . جامعة تلمسان.
- د. محصول سامية . المدرسة العليا . بوزريعة .

المراسلات باسم مدير مركز البصيرة

حي ماكودي 02 رقم 13 واد السمار – الجزائر

ها:**0021321289778**

فا: **0021321283648**

البريد الالكتروني:

markaz_ bassira@. yahoo.fr

الموقع الالكتروني:

www.albasseera.net

حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع القانوني: 2008/1900

ISBN 2170-046X **ر د م د:**

التوزيع

دار الخلدونية للنشر والتوزيع

05، شارع محمد مسعودي القبة الجزائر.

ها/فا: 021.68.86.48

قواعد النشر

تقبل البحوث والدراسات التي تعالج القضايا المتخصصة.

ويشترط في تلك الأعمال مراعاة قواعد النشر التالية:

I) أن يتوافق البحث مع أهداف الدورية ومحاورها.

2) أن يكون البحث غير منشور سابقا.

3) يرفق البحث بإقرار خطي بعدم تقديم البحث إلى أي جهة أخرى لغرض النشر.

4) ألا يكون البحث جزءا أو مقتطفا أو مقتبسا من رسالة تخرج نال بها صاحبها شهادة علمية.

5) يرفق البحث بملخصين: (العربية والفرنسية) أو (العربية والإنجليزية).

6) يقدم الباحث نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.

7) ترسل البحوث والدراسات إلكترونيا أو تسلم في قرص مضغوط إلى إدارة المجلة.

8) تقبل البحوث باللغات: العربية والفرنسية والإنجليزية، على ألا يقل عدد صفحات البحث عن 15 صفحة ولا يزيد عن 25 صفحة، وألا يزيد عدد الأشكال والملاحق عن 15 بالمائة من حجم البحث.

9) أن يكتب البحث ببرنامج (Word). بـ: بخط: (Arabic Transparent) حجم 14 بالنسبة إلى المتن وحجم 10 بالنسبة إلى الهوامش (اللغة العربية) وبخط: (Times New Roman) حجم 12 بالنسبة إلى المتن وحجم 10 بالنسبة إلى الهوامش (اللغة الأجنبية).

I0) أن يراعى في البحث المنهجية العلمية، ومناهج البحث العلمي. وعلى صاحبه الالتزام بالموضوعية.

II) توثق هوامش البحث وقائمة مصادره ومراجعه في نهاية البحث.

I2) تخضع البحوث للتحكيم العلمي المتعارف عليه عالميا، ويبلغ الباحث بقرار هيئة التحرير في آجالها.

I3) يعدّ البحث في حكم المسحوب إذا تأخر الباحث عن إجراء التعديلات المطلوبة على البحث لمدة تزيد عن شهر من تاريخ تسلمه الرد بوجوب التعديل.

I4) لا يمكن للباحث أن يسحب بحثه بعد موافقة الهيئة العلمية عليها وإدراجها ضمن مواضيع المجلة.

I5) الإدارة ليست ملزمة بنشر كل البحوث التي تصلها وليست ملزمة كذلك بإعادتها نشرت أم لم تنشر.

I6) تعبر البحوث عن رأي صاحبها ولا تمثل بالضرورة رأي الدورية أو المؤسسة التي تصدرها.

I7) يحق للدورية إعادة نشر البحث كاملا أو جزءا منه بأي شكل وبأي لغة دون الحاجة إلى استئذان الباحث، إذ تتمتع الدورية بكامل الحقوق الفكرية للبحوث المنشورة فيها.

من حق الدورية إصدار عدد يخصص بأكمله لغرض واحد عند الحاجة.

آراء الباحثين لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المركز

الهيئــة العلميــة

- الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بن حسن العارف وكيل معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، السعودية.
- الأستاذ الدكتور علي ملاحي، جامعة الجزائر 2.
- الأستاذ الدكتور سعيد بنكراد، كلية الآداب، جامعة مولاي إسماعيل، مكناس، المملكة المغربية.
- الأستاذ الدكتور عبد الله محمد العضيبي أستاذ الأدب والنقد، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى مكة المكرمة، السعودية.
- الأستاذ الدكتور سعيد يقطين، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المملكة المغربية.
- الأستاذ الدكتور عبد الكريم عوفي، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية.
- الأستاذ الدكتور محمد المشد، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الكويت المفتوحة، الكويت.
- الأستاذ الدكتور عبد اللطيف عبيد، جامعة تونس.
- الأستاذ الدكتور محمد هاشم فالوقي، جامعة طرابلس، ليبيا.
- الأستاذ الدكتور عبد الرحيم مراشدة، رئيس قسم اللغة العربية، جامعة جدارا، المملكة الأردنية الهاشمية.
- الأستاذ الدكتور عطا محمد إسماعيل أبو جبين، المديرية العامة لتطوير المناهج، سلطنة عمان.
- الأستاذ الدكتور محمد عبد الحي، جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا، الإمارات العربية المتحدة.
- الأستاذ الدكتور يسري عبد الغني عبد الله، خبير بالتراث الثقافي، جامعة القاهرة، مصر
- الأستاذ الدكتور رباح اليمني مفتاح، كلية الآداب، جامعة الأقصى، غزة، فلسطين.
- الأستاذ الدكتور عبد الجليل مرتاض، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر.
- الأستاذ الدكتور جيلالي بن يشو، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم.
- الأستاذ الدكتور محمد زمري، جامعة تلمسان.
- الأستاذ الدكتور محمد مرتاض، جامعة تلمسان.
- الدكتور هشام خالدي، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان.
- الدكتور عبد الحليم بن عيسى، جامعة وهران.
- الأستاذ الدكتور عبد الجليل مصطفاوي، جامعة تلمسان.
- الأستاذ الدكتور أحمد عزوز، جامعة وهران.
- الأستاذ الدكتور عبد القادر سلامي، جامعة تلمسان.
- الأستاذ الدكتور: عبد الحكيم والي دادة، جامعة تلمسان
- الدكتور: رقيق كمال. جامعة بشار

آراء الباحثين لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدورية

أمة تتعلم، أمة تتقدم

دورية محكمة متخصصة في الدراسات الأدبية

المجلد 10 العدد 3

رمضان 1439هـ الموافق لـ جوان 2018

عدد خاص

المحتويات

الافتتاحية	هيئة التحرير	05
من فصاحة الكلمة إلى فصاحة الكلام: مضمار الإعجاز في "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني.	دة/ سامية عليوات. جامعة البويرة.	09
موقف الحركة الاستشراقية من تاريخ النحو العربي ونقدها	الدكتور حمداد بن عبد الله أستاذ محاضر أ/قسم اللغة العربية وآدابها كلية الآداب واللغات والفنون جامعة مولاي الطاهر سعيدة الجزائر	25
اللّسانيات العرفنيّة نحو منهج جديد لمقاربة النصّ الأدبي –تجربة الأزهر زنّاد أنموذجا –	د/: نجاة بوقزولة جامعة المحمّد بوقرة بودواو –بومرداس	41
سمات الخطاب القرآني دراسة في الأسلوب	الدكتور عبد الله علمي ,جامعة القاضي عياض/المغرب	55
الكلمة في شعر الشنفرى بين الدلالة والبدائل	د. العيفاوي حمزة قسم اللغة العربية وآدابها جامعة البليدة 2	69
الفروق في العناصر اللغوية بين اللغتين العربية والإندونيسية وأهمية معرفتها في الترجمة	سوكامتو سعيد مدرس الترجمة من الإندونيسية إلى العربية وبالعكس قسم اللغة العربية وأدبها/ كلية الآداب والعلوم	81

من اللغة العربية إلى اللغة الإندونيسية وبالعكس (دراسة تقابلية)	الثقافية جامعة سونان كاليجاكا الإسلامية الحكومية /جوكجاكرتا / أندونيسيا	
التوجيه اللغوي لانفرادات الإمام قالون في روايته عن الإمام نافع	أ/خالد خالدي أستاذ مساعد بقسم العلوم الإسلامية جامعة تلمسان	101
ظاهرة التشكيل البصري في الشعر الجزائري المعاصر ديوان "ما لم يقله المهلهل" للشاعر امحمد زبور أنموذجا	أ/طيبي بوعزة (طالب دكتوراه– تخصص: اتجاهات النقد المعاصر في الجزائر) إشراف: د كبريت علي. جامعة ابن خلدون تيارت.	113
التفكير التداولي في التراث اللغوي العربي القديم	محمد عبد الرحمن حسوني باحث دكتوراه: قسم اللغة والأدب العربي الأستاذ المشرف: أ.د هواري بلقندوز .جامعة سعيدة	121
دواعي الغموض في الشعر العربي المعاصر	. الطالب: ضامري مصطفى . بإشراف: أ.د العرابي لخضر . جامعة أبي بكر بلقايد . تلمسان	134
مظـــاهر الغمـــوض المعجـمي في التّرجمـــة الاقتصـــــادية (الجناس اللّفظي) أنمـــوذجا.	الأستاذة الباحثة: بوحفص اسمهان –معهد الترجمة – جامعة أحمد بن بلة–1– وهران الأستاذة المشرفة: أ.د أحلام صغور	143

الافتتاحية

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

وبعد.

لله الحمد والشكر والفضل على نعمه التي لا تعد ولا تحصى ومن نعمه إرسال هذا العدد الخاص من مجلة دراسات أدبية للقراء لينتفعوا به ولثري المكتبة االبحثية، هذا العدد الذي تميز بثراء المقالات التي ضمها بين دفتيه. متنوعة المشارب والفنون العلمية في فلك اللغة العربية وآدابها.

القارئ يجد مقالا مهما حول فصاحة الكلمة خاصة في مضمار الإعجاز عند الجرجاني، ويجد أيضا بحثا متميزا يرصد الظاهرة الاستشراقية حول تاريخ النحو العربي، ويتلوه مقال مهم جديد في طرحه حول اللسانيات العرفانية، وبعده يمكن للقارئ أن يتمتع ببحث سمات الخطاب القرآني، ومن بعده مقال التوجيه اللغوي لانفرادات قالون في قراءته، وهو مقال له طرح قوي ويجذب الانتباه.

مقال استمتعت أنا شخصيا بقراءته ومتابعته لآخر كلمة فالمقال يرصد ظاهر التشكيل البصري في الشعر خاصة في الشعر الجزائري الحديث والمعاصر. ونالت التداولية حقها في هذا العدد حيث أوردنا مقالا يرصد الفكر التداولي في الفكر العربي القديم، شكلت ظاهرة الغموض في الشعر المعاصر تميزا وسمة واضحة، وهو ما يرصده مقال دواعي الغموض في الشعر العربي المعاصر، يلحقه مقال لغوي في صناعة المعاجم يرصد ظاهرة الغموض المعجمي في الترجمة الاقتصادية خاصة من حيث الجناس اللفظي، وآخر المقالات كان ختامها مسك، وكما قال البلغاء عليكم بحسن المدخل والمخرج، فاخترنا مقالا يصلح ليكون ختامها مسك ويكون حسن مخرج وهو مقال نظرية الرواية عند محسن جاسم الموسوي.

كل ما نطمح إليه إثراء الرصيد المعرفي والمكتبي والبحثي بمقالات متميزة هادفة في طرحها ومستواها، نأمل أن نكون عند هذا الحد من التطلع والطموح.

والله ولي التوفيق.

هيئة التحرير

من فصاحة الكلمة إلى فصاحة الكلام:
مضمار الإعجاز في "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني

أ/ سامية عليوات
جامعة البويرة

ملخّص المقال:

يروم هذا المقال بسط القول في مجموع العوامل التي تحقق الانتقال من بلاغة الكلمة إلى بلاغة الكلام عن طريق مجموع التحويلات النحوية (التركيبية) التي تعتدّ بفصاحة الكلام بدل فصاحة الكلمات كما قدّمها عبد القاهر الجرجاني في كتابة "دلائل الإعجاز في علم المعاني" وقيمة ذلك في تشكيل بلاغة الصور في الخطاب.

الكلمات المفتاحية: عبد القاهر الجرجاني ; بلاغة الكلام; دلائل الإعجاز; التحويلات النحوية.

from the world eloquency to language's eloquency.

The abstract:

this article aims to simplify the meaning of some elements which achieve the transposition from the word's rhetorics to language rhetorics by a set of grammar changes which take into consideration the language eloquency instead of taking into consideration the word's eloquency as illustrated by Abdelkahar El-Djerdjani in his book entitled ''evidences of the miracles in semantics'' and its importance in the creating metaphors as example in speech.

Key words: Abdelkahar El- Djerdjan language rhetorics; evidences of the miracles in semantics; grammar changes.

مقدمة:

شهدت الدراسات البلاغية قبل عبد القاهر الجرجاني تطورا مرّ بها من مرحلة الملاحظة الخارجية إلى مرحلة التحديد والتعريف ثمّ محاولة التأليف، وكانت الدراسات الموازية تنمو معها في الوقت نفسه، أما للدراسات النحوية فقد بلغت ذروتها حتى قيل "لقد نضج النحو حتى احترق". وقد حاول عبد القاهر الجرجاني أن يستفيد من الدراسات النحوية في الدخول بالدراسات البلاغية مرحلة التنظير من خلال وضع نظريتي علم المعاني، وعلم البيان في البلاغة.

تضمّن كتاب "أسرار البلاغة" نظريته في علم البيان، حيث وقف مطوّلا على مباحث المجاز والتشبيه، وقاده ذلك إلى قضية الخيال التي تعدّ الأولى في مجالها في تاريخ البلاغة والنقد الأدبي عند العرب، كما وقف على تفصيلات كثيرة ودقيقة في مباحث التشبيه والاستعارة، ووجد لكلّ نوع منها شواهد متعددة من القرآن الكريم، وكلام العرب، ولم يكن أمام جمهور البلاغيين إلا أن يتابعوا تقسيماته وتفريعاته وكثيرا من أمثلته.

وإذا كان كتاب "أسرار البلاغة" قد غطّى مباحث علم البيان، فإنّ "دلائل الإعجاز" قد غطّى مجالات علم المعاني، والحقيقة أنّ عنوان الكتاب وموضوعه نابعان من البعد الديني لشخصية عبد القاهر الجرجاني، ذلك أنّه واحد من المتكلّمين الأشاعرة، يعنى بالبحث في "الإعجاز القرآني"، والفروق الجوهرية بين كلام الله وكلام البشر، وقد توصّل إلى نظرية يفسّر بها الإعجاز القرآني سميت "نظرية النظم" وعلى أساسها قام علم المعاني في الدراسات البلاغية.

لعلم المعاني أصول وقواعد تعرف بها كيفية مطابقة الكلام لمقتضى الحال، بحيث يكون وفق الغرض الذي سيق له, وموضوعه اللّفظ العربي من حيث إفادته للمعاني التي هي الأغراض المقصودة للمتكلم، من جعل الكلام مشتملا على تلك اللطائف والخصوصيات التي تطابق مقتضى الحال، فائدته إظهار إعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من جودة السبك وحسن الوصف, وبراعة التراكيب، ولطف الإيجاز، وما اشتمل عليه من سهولة التركيب وجزالة الكلمات, وعذوبة الألفاظ.

1- القيمة المضافة في دلائل الإعجاز: ورد في تقديم الطبعة الثانية للكتاب ما عرّفه به "محمد رشيد رضا" في الطبعة الأولى سنة 1321 هـ: « يصحّ لنا أن نحكم بأنّ هذا الكتاب من أصحّ الكتب العربية المطبوعة، إن لم نقل أصحّها، إذ لا طريق إلى كمال التصحيح مثل قراءة الكتاب درسا لاسيما إذا كان المدرّس مثل الأستاذ الإمام في سعة العلم، وصحة الحكم... أمّا الكتاب فيعرف مكانته من يعرف معنى البلاغة وسرّ تسمية هذا الفن بالمعاني، وأمّا من يجهل هذا السرّ ويحسب البلاغة صناعة لفظية محضة قوامها انتقاء الألفاظ الرقيقة أو الكلمات الضخمة الغريبة، فمثل هذا يعالج بهذا الكتاب، فإنّ اهتدى به إلى كون البلاغة ملكة روحية وأريحية نفسية رجا أن يبرأ من علّته ويقف على مكانة الكتاب ورتبته، وإن بقي على ضلاله القديم وجهله المقيم، فأحكم بإعضال دائه وتعذر شفاءه.»[1] فالكتاب إذن بلاغي يعالج قضايا البلاغة والفصاحة ومعاني النحو وما يدخل في أبوابها، فهو يؤكّد جانب بناء الكلام وصلة معانيه بعضها ببعض، وقد اهتم فيه صاحبه بقضية الإعجاز القرآني، وينصرف إليها انصرافا تامًا، إلاّ أنّ هذا لم يمنع وجود بعض الآراء النقدية حول هده الموضوعات البلاغية.

سعى عبد القاهر الجرجاني إذن من خلال هذا الكتاب إلى أن يكشف مواطن الإعجاز في القرآن الكريم من خلال نظرية لغوية شاملة على أساسها قام علم المعاني في الدراسات البلاغية وهي نظرية النظم.

يبدأ الكتاب بمدخل- تفصّل فيه فصول الكتاب- تناول فيه أقسام الكلم وأشكال تعلّقها ببعضها البعض، يقول: «والكلم ثلاث: اسم، وفعل، وحرف، وللتعلق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام تعلق اسم باسم وتعلق اسم بفعل وتعلّق حرف بهما.»[2] وهو يشرح ويفصّل بالأمثلة والشواهد هذه الأقسام الثلاثة، ثمّ ينتقل إلى الحديث في فاتحة المصنف عن العلم وفضله ومكانته يقول: « فإنّا إذا تصفحنا الفضائل لنعرف منازلها في الشرف، ونتبيّن مواقعها من العظم، ونعلم أي أحق منها بالتقديم واسبق في استجاب التعظيم وجدنا العلم أولاها بذلك، وأوّلها هنالك، إذ لا شرف إلاّ وهو السبيل إليه، ولا خير إلاّ وهو الدليل عليه، ولا منقبة إلاّ وهو ذروتها وسنامها، ولا مفخرة إلا وبه صحتها وتمامها، ولا حسنة إلا وهو مفتاحها، ولا محمدة إلاّ ومنه يتّقد مصباحها، هو الوفي إذا خان كلّ صاحب، والثّقة إذا لم يوثق بناصح، لولاه لما كان الإنسان من سائر الحيوان إلاّ بتخطيط صورته وهيئة جسمه وبنيته

ولا وجد إلى اكتساب الفضل طريقا، ولا وجد بشيء من المحاسن خليقا... »[3] وهو يطيل الكلام في هذا المجال ويؤكّد أنّ كلامه هذا لا يختلف فيه عاقلان ولا يمكن أن ينفيه أحد، ثمّ ينتقل إلى الحديث عن النحو والشعر ومشروعية الاشتغال بهما، وانبرى يفسّر حكم القرآن والسنة على الشعر وصنّف أراء الناس في ثلاثة أقسام.

تبدأ ملامح التفرّد في عمل الجرجاني بخلاصة مركزة تقدّم رسما للتحويلات الدلالية البلاغية التي تتلبّس أحيانا باللّفظ، حيث أرجعها إلى الكناية والمجاز، ومعناها أنّ بناء المعنى يتعلّق بهذين العنصرين، يقول: «وأمّا المجاز فقد عوّل الناس في حدّه على حديث النقل، وأنّ كلّ لفظ نقل عن موضوعه فهو مجاز، والكلام في ذلك يطول وقد ذكرت ما هو الصحيح من ذلك في موضوع آخر، وأنّ أقصرها هنا على ذكر ما هو أشهر منه وأظهر، والاسم والشهرة فيه لشيئين الاستعارة والتمثيل، وإنّما يكون التمثيل مجازا إذا جاء على حدّ الاستعارة.»[4]

يكشف الحديث عن الكناية والمجاز، عن حصر المجاز في الاستعارة، وهذا يعني السكوت عن المجاز المرسل، على أنّه يوقف الحديث عن بناء المعنى بعد تحديد مفهومي الكناية والاستعارة ووظيفتهما لينتقل إلى عنصر جديد وهو "النظم"، وهو يرى أنّ غرابة المعنى ليست المعيار الوحيد للبلاغة وإنّما المزيّة في ذلك تعود إلى النظم: « اعلم أنّ هاهنا أسرارا ودقائق لا يمكن بيانها إلاّ بعد أن نعد جملة من القول في النظم وتفسيره والمواد وأي شيء هو وما محصوله ومحصول الفضيلة فيه فينبغي لنا أن نأخذ في ذكره، وبيان أمره، وبيان المزيّة التي تدعى له من أين تأتيه... وقد علمت إطباق العلماء على تعظيم شأن النظم وتفخيم قدره... وإجماعهم أن لا فضل مع عدمه، ولا قدر لكلام إذا هو لم يستقم له، ولو بلغ في غرابة معناه ما بلغ.» [5] ونرى هنا أنّه جعل النظم معيارا للبلاغة حتّى لو كان المعنى قمّة في الغرابة، ويعرّف النظم بقوله: «وليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو.» [6] ويستفيض في شرحه وبيان علاقته بمعاني النحو وأحكامه، فينظر في الخبر والشرط والجزاء والحال...الخ، وينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى، فيوضع كل في موضعه المناسب لغرض المتكلّم، وذلك ضمن الإجراءات الأساسية التالية: التقديم والتأخير والتعريف والتنكير والحذف والإضمار والإعادة والتكرار ... الخ.

إنّ ما أسّس له الجرجاني من جعل النظم عنصرا أساسيا في بناء المعنى يضاف إلى الكناية والمجاز وإمكانية وجود المزيّة (حصول الفهم وتحقيق الغرض) البلاغية فيه وحده أدّى إلى تصنيفه للكلام ثنائيا مرّة وثلاثيا مرة أخرى. يقول: «اعلم أنّ الكلام الفصيح ينقسم قسمين: قسم تعزى المزيّة والحسن فيه إلى اللفظ، وقسم يعزى ذلك فيه إلى النظم، فالقسم الأول الكناية والاستعارة والتمثيل الكائن على حدّ الاستعارة، وكلّ ما كان فيه على الجملة مجاز واتساع وعدول باللّفظ عن الظاهر.»[7] والقسم الثاني هو الذي «تعزى فيه المزيّة إلى النظم.»[8] ولتوضيح معاني النحو يقوم بإعراب الفاتحة وبيان العلاقات النحوية بين ألفاظها.

ويقول عن التقسيم الثلاثي: «وجملة الأمر أنّ هاهنا كلاما حسنه للّفظ دون النظم، وآخر حسنه للنّظم دون اللّفظ وثالثا قرى الحسن من الجهتين، ووجبت له المزيّة بكلا الأمرين، والإشكال في هذا الثالث، وهو الذي لا تزال ترى الغلط قد عارضك فيه، وتراك قد حفّت فيه على النظم فتركته، وطمحت ببصرك إلى اللفظ، وقدرت

في حسن كان به وباللّفظ أنّه للفظ خاصة، وهذا هو الذي أردت حين قلت لك أن في الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلاّ من بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته.» [9] فهو يبيّن تداخل النّظم بأوجه الحسن الأخرى، وهو تداخل دقيق يؤدى الخوض فيه إلى الغلط.

يفهم من هذا الكلام أن بلاغة الخطاب – الشعر خاصة – تنحصر في اللّفظ –مجازا وكناية– وفي النّظم– التقديم والتأخير، الحذف والذكر، الفصل والوصل...– وأخيرا في اللّفظ والنّظم معا.

كما يظهر أنه قد استعمل اللفظ كجنس أعلى للصّور البلاغية القائمة على المجاز والكناية والاستعارة.

2– من النظم إلى نظرية النظم: لقد تردّدت كلمة النّظم كثيرا في المؤلفات البلاغية التي سبقت عبد القاهر الجرجاني، فالقاضي "عبد العزيز الجرجاني" قد تعرّض لهذه المسألة، وذكر اضطراب النظم في حديثه عن عيوب الشعر، غير أنّه اكتفى بالدلالة الظاهرة للفظة ولم يحدّد معناها ولا أن يبيّن أسباب اضطراب النظم أو استقامته، كما نجد أبا هلال العسكري في كتابه–الصناعتين– يفرد بابا خاصا للحديث عن حسن النظم وجودة الرصف والسبك، إلاّ أنّه لم يحدّد دلالة كلّ كلمة وإنّما استعملها مترادفة، بالإضافة إلى أنّها عرفت عند المعتزلة مثل الجاحظ، وأهل السنّة مثل "الخطّابي" و"الباقلاني"، وبالتالي فإنّها تمخّضت عنده عن منابع كثيرة، ولعلّ أهمّ الأفكار التي استقى منها هذه النظرية: فكرة ارتباط الألفاظ بالمعاني– فارتقت إلى البحث عن سر الجودة في الكلام المنظوم لا من حيث جرس ألفاظه وائتلافها في السمع وخفتها على اللسان بل من حيث ائتلاف معانيها على وجه خاص ليكون للكلام فضل مزيّة– فقد استقى من النحو نظرة خاصة إلى العمل على أنه ارتباط معنوي بين العامل والمعمول، اعتبار القول الحسن في وحدة الكلام أي في مجموع أجزائه المترابطة ولهذا نجده يعرف النظم فيقول النظم هو« تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض.» [10] أي أنّه توخّي معاني النحو والعلاقات القائمة بين أجزاء الكلم كما يقول أيضا: «إنّا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كلّ باب وفروعه فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك زيد ينطلق، وينطلق زيد ومنطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد وزيد هو المنطلق فهذا هو السبيل، فالفرق بين هذه الأساليب ليس فرقا بين الحركات، وما يطرأ على الكلمات من تقديم أو تأخير، وإنّما في معاني العبارات التي يحدثها ذلك الوضع والنظم.» [11]

يفهم من هذا الكلام أنّه ليس للّفظة مفردة لا في صوتها ولا دلالتها مزيّة –فضل– ولا تفاضل بين الألفاظ منفردة إلاّ عند دخولها في سياق معيّن وما تحدثه من تناسق الدلالة حيث يظهر المعنى على وجه يقتضيه العقل ويرتضيه، فالمعاني إذن هي المقصودة في إحداث النظم والتأليف. فلا نظم في الكلم ولا تأليف حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض.

وقد فرق عبد القاهر الجرجاني، وهو يقدم نظريته في النّظم، بين اللّغة والكلام وعنى عناية خاصة بما يقدّمه المتكلّم، الذي لا يمكنه أن يحدث وضعا جديدا في كلامه، فذلك فساد على نفسه ويصبح ليس بمتكلّم، لأنّ المتكلّم يستعمل أوضاع اللّغة على ما وضعت هي عليه ولا يحدث فيها تغييرا.

3– النظم وعلاقته بالنحو: يقول الجرجاني: «اعلم أنّ ليس النّظم إلاّ أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فعلا فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها.» [12] فالنّظم هو توخّي

معاني النحو، أي أنّه يسير على قوانينه النحوية والصرفية فليس هناك كلام يوصف بصحة أو فساد، إلاّ ويرجع ذلك كلّه إلى معاني النحو وأحكامه ويدخل في أصل من أصوله وباب من أبوابه.

وقد أشار إلى أنّ معرفة عبارات النحويين واصطلاحاتهم النحوية ليس بالأمر الهّام وإنّما ما يهمّ هو فهم مدلول هذه العبارات، فالعربي كان يتكلّم سليقة ولم يكن يعرف المبتدأ والخبر والصفة والحال... لكنّه كان يعرف الفرق في المعنى بين العبارتين: جاء محمد راكبا، وجاء محمد الراكب. فلم يعنيه معرفة رأي النحويين من أن راكبا حال والراكب صفة [13].

وهو يؤكّد في سياق آخر أنّ النّظم ليس شيئا غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم وإنّك ترتّب المعاني أوّلا في نفسك ثمّ تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك، فلا يتصوّر أن يكون بشار «قد خطرت معاني قوله:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا

وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه.

بباله أفرادا عارية من معاني النحو التي يراها فيها.» [14]

ويستشهد بما «يجرى على ألسنة الناس قاطبة من آن العاقل يرتب في نفسه ما يريد أن يتكلم به.» [15]

وفي نظره ليس معنى سوى توخّي معاني النحو وتوخي القصد من القول، فعندما نقول: ضرب زيد عمرا يوم الجمعة تأديبا له لا نتلفظ بهذه الجملة قبل أن نستحضر في الذهن الضرب باعتباره خبرا عن زيد واقعا منه على عمرو، ونجعل يوم الجمعة زمانه ونجعل التأديب غرضه الذي وقع الضرب لأجله، وهذا هو توخّي معاني النحو فيما بين معاني هذا الكلم [16].

فهو إذن يبيّن أنّ وضع الكلمات في النظم يتخيّر لها المواقع ويتم فيها التركيب حسب ما يتوخّى فيها من معاني النحو، فنقل الكلمات من مواقعها وعدم مراعاة أحكام النحو فيما بينها يفسد المعنى. فما النظم إلا توخي هذه المعاني وتعلق الذهن بها فإذا كان النظم قائما على أساس معاني النحو فان الموضوعات البلاغية وكل أنواع المجاز لا يمكن أن يكون إلاّ مع النظم [17].

فالاستعارة والمجاز والكناية وغيرها لا يمكن أن تكون في الكلمات المفردة، فقوله تعالى (ليخرجكم من الظلمات إلى النور) استعارة شبّه فيها الكفر بالظلمات ثم حذف المشبه وأبقى على المشبه به وهو الظلمات، فلا يمكن أن نتصور هذه الصورة البلاغية من دون لفظة الظلمات.

كما أن ترتيب الكلمات فيما بينها يرتبط أساسا بالتفكير وبمقتضيات علم النحو، ويعطى الجرجاني مثالا لذلك ببيت امرئ القيس:

– قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل.

فالفكر إذن يتعلّق بالمعنى الكلّي للشطر الأوّل فلو أزلناه عن موضعه وقلنا (من نبك قفا حبيب ومنزل) فلا يتعلق الفكر بمعنى أي كلمة منها. فالفكر إذن لا يتعلق بمعاني الكلم مجردة من معاني النحو ومنطوقا بها على وجه لا يتأتى معه تقدير معاني النحو [18].

لقد جعل الجرجاني البلاغة في النظم وأكّد أنه لا يكون إلا حسب قوانين النحو وتوخيا لمعانيه وهذا يعني أن النحو والبلاغة مرتبطان بالنظم وبالتالي لا يمكن فصل النحو عن البلاغة العربية فهما يلتقيان في نظم الكلم وضمه بعضه إلى بعض: «لقد خرج "دلائل الإعجاز" بالنحو من دائرة التعليلات العقيمة عند بعض النحويين إلى محيط المعاني التي تكمن في طيات التراكيب... تخطى بالنحو من مرحلة وقوف بعض النحويين عند القاعدة إلى الانطلاق في آفاق المعاني التي لها ثمار وضع القواعد النحوية» [19]

4- علائق الفصاحة بالبلاغة وبالنحو: تطلق الفصاحة في اللّغة على معاني كثيرة منها البيان والظهور. قال تعالى ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لسانا﴾ [20] أي أبين منّي قولا ولو أنّ كلمة لسان المقصود بها هنا هو الجارحة وليس البيان على اعتبار أنّ سيدنا موسى كان مصابا في لسانه من جراء جمرة حاول أكلها وهو صغير فسبّبت له عاهة على مستوى اللّسان كما يقول المفسرون.

وفي اصطلاح أهل المعاني هي عبارة عن الألفاظ البينة الظاهرة المتبادرة إلى الفهم والمأنوسة الاستعمال بين الكتّاب لمكان حسنها، وهي تقع وصفا للكلمة والكلام، والمتكلم، أما البلاغة فتقع وصفا للكلام والمتكلم، فبلاغة الكلام هي مطابقته لمقتضى المقام مع فصاحة ألفاظه مفردها مركبها.

تناول الجرجاني هذه الموضوعة فأكّد أنّ الألفاظ بحدّ ذاتها لا تتفاضل بينها من حيث دلالاتها على مدلولاتها، فليس هناك أيّ لفظة أدلّ على معناها من لفظة أخرى، يقول: «إنّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلمة مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة بمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك ممّا لا تعلق له بصريح اللفظ.» [21] ويستشهد على ذلك بقوله: «إنّك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر... فلو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث هي لفظ، وإذا استحقت المزيّة والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم، لما اختلف بها الحال وكانت إمّا أن تحسن أبدا أو لا تحسن أبدا.» [22]

وهكذا لا تدل كلمة إنسان على الآدمي المعروف أكثر ممّا تدل كلمة حيوان على الحيوان المعروف، وهذا الأمر منطبق أيضا حتى على اللّفظين الذين وضعا لمسمّى واحد. ولذلك فإنّه يعيب على أولئك الذين يرون الفصاحة في اللّفظ المفرد، فليس للّفظ المفرد من نصيب في الفصاحة إلاّ أن يكون أيسر على الألسنة وأكثر استعمالا من الآخر، وإنّما تنسب الفصاحة إلى اللّفظة من حيث اعتبار مكانها من النّظم وحسن ملائمة معناها لمعاني جارتها ومؤانستها لأخواتها. [23]

فالفصاحة إذن هي للكلام المنظوم وليست للكلم المفرد، فالفصيح هو الذي يتم نظمه وتأليفه وضمّ بعضه إلى بعض لصنعة تراعى فيها قوانين النحو وأصوله. وهو يؤكّد أنّ الفصاحة مزيّة المتكلم لا واضع اللّغة، فالمتكلم لا يزيد في اللّفظة شيئا عما وضعه الواضع، فالمزيّة إذن هي للمعنى الذي يأتي به المتكلّم والذي لا يتحقق إلاّ بضم الكلم بعضه إلى بعض. وهو يستدل بالقرآن الكريم الذي أعجز العرب جميعا بالرغم من أنّه جاء بلسانهم واستخدم ألفاظهم ولم يزد فيها شيئا، وبالتالي فالفصاحة والبلاغة لا تكونان إلاّ بعد التأليف والنظم.

ويؤكّد في خضم حديثه عن الفصاحة أنّه لا انفصال بين النحو والبلاغة وإنّ الفصاحة والبلاغة هي في النظم، وهنا يربط بين البلاغة وغرض المتكلّم والمعاني التي يريد إثباتها أو نفيها فيقول: «لا يكون لإحدى العبارتين مزيّة على الأخرى حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها، إنّ البلاغة والفصاحة وتخير اللّفظ عبارة عن خصائص ووجوه تكون معاني الكلام عليها، وعن زيادات تحدث في أصول المعاني مثل زيد كالأسد، وكأنّ زيدا أسد.» [24]

لا تكون الفصاحة بضمّ الكلمات إلى بعضها فحسب، وإنّما تتحقّق أيضا في الربط بين الجمل لذلك

فالفصل والوصل بين الجمل من أسرار البلاغة، يقول: «وقد جعلوه حدًا للبلاغة، فقد جاء عن بعضهم أنّه سئل عن البلاغة فقال: معرفة الفصل من الوصل.» (25) وهنا يشرح متى يكون الفصل ومتى يكون الوصل، ويعلّل ذلك بتوضيح المعاني المقصودة حسب مقتضى الحال ومعرفة حال السامع. فالفصل والوصل هو الاشتراك في الحكم الإعرابي بين الجمل أو عدمه، فهو إذن باب من أبواب النحو وهدف من أهدافه، ومن جهة هو سرّ البلاغة العربية، وبالتالي لا يمكن الفصل بين النحو والبلاغة، فمعرفة واحد منهما يقود إلى معرفة الآخر. فالفصاحة والبلاغة من اللّحمة في صناعة الكلام ولا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى، والنظم مراعاة لقوانين النحو ولا يفوته أن يربط البلاغة بغاية المتكلّم وغرضه من وراء اللّفظ وتبيين المعاني التي يريد إثباتها.

5- مضمار الإعجاز البياني في القرآن: أقرّ الجرجاني من البداية أنّ القرآن معجز، وحاول أن يتبيّن مواطن الإعجاز فيه: هل هي في الألفاظ؟ فأجاب بالنفي، لأنّ الألفاظ المفردة موجودة في الاستعمال قبل نزول القرآن، ولا يمكن أن يتحقّق كذلك في الفواصل لأنّها، في الآيات كالقوافي في الشعر، ولا يمكن أن يكون من الاستعارة أيضا لأنّ ذلك يجعله خاصا بالآيات الطوال فقط ... (26)

وإذا كانت كلّ هذه الأمور مجتمعة أو منفردة لا تحقّق الإعجاز، فلم يبق إلاّ أن يكون الإعجاز في النظم والتأليف الذي يقوم على ترتيب الكلام حسب المعنى في الذهن وحسب ما يقتضيه النحو، ويظهر الفرق بعد ذلك في حسن وصحة دلالة الكلام على المعنى المراد وقوّة تأثيره في نفس السامع، ومن جهة أخرى يظهر الفرق من قدرة المتكلّم، بحيث يؤدّي المعنى وتتم الدلالة بدقّة مع بهاء وجمال العبارة المؤدية لذلك المعنى، ويتفاضل في ذلك المتكلّمون فيعبّر كلّ منهم عن المعنى الواحد بكلام أو بنظم مختلف، ومن خلال ذلك يظهر إعجاز القرآن الكريم الذي لا يستطيع متكلّم أن يصل إلى مستواه من النظم الذي هو قمّة في أداء المعنى وتمام الدلالة مع حسن الصور وبهاء العبارة وقوة تأثيرها، وهذا ما أراده الجرجاني من عنوان كتابه (دلائل الإعجاز في علم المعاني) من أنّ الأغراض والمقاصد التي يعبّر عنها القرآن الكريم بصورة معجزة لا يمكن للبشر محاكاتها، ومن أجل تبيان ذلك فإنّه يوضّح أنّ لا مزيّة للكلمة مفردة، لأنّ العربي قبل نزول القرآن كان يعرف كلّ الألفاظ التي جاءت في القرآن، ولكنّه لم يستطع أن يركّبها مثله، ويبيّن أيضا أنّه لا فصل بين اللّفظ والمعنى وأنّ نظم الكلام لا يكون اعتباطا وإنّما هو القدرة على استخدام المعاني النحوية. فبلاغة الكلام تقع في تأليفه وتعليق بعضه ببعض طبقا لقوانين النحو، وأنّ أي تغيير في العلاقات النحوية في الجملة يحوّلها من البنية النحوية العميقة إلى البنية الظاهرية الإخبارية متغيّرة حسب المقام، ففي قوله تعالى: (اشتعل الرأس شيبا) هذه البنية الظاهرية نتجت عن البنية العميقة التي هي اشتعل شيب الرأس، وقد تمّ تحويل العلاقات النحوية فأصبح الشيب الذي أسند إليه الفعل اشتعل في البنية العميقة فكان فاعلا منصوبا على التمييز، وصار الرأس الذي هو من سببه وتابع له فاعلا في البنية الجديدة للفعل اشتعل (27)

فالنحو والبلاغة لا يمكن أن ينفصلا، فبهما ندرك أسرار اللّغة ونعرف سرّ الإعجاز في القرآن الكريم، وهذا يعني أنّ بلاغة القرآن الكريم وقوّة بيانه تتجلّى في نظمه وفق قوانين النحو وخصائص العربية بطريقة يعجز البشر عن الإتيان بمثلها، فسرّ الإعجاز إذن هو استخدام ألفاظ العربية ونظمها وفق نظام اللّغة العام وقوانين نحوها وصرفها، والتي لا يمكن للعربي الذي يدرك قوانين اللّغة

بطريقة فطرية أن يعبّر عن معاني القرين بالطريقة الفريدة التي جاءت في القرآن.

6- بلاغة التقديم والتأخير: تتجلّى بلاغة التقديم والتأخير في القدرة على تحويل اللّفظ من مكان إلى مكان بشكل ينتج المعنى نفسه في حال المحافظة على حركات الإعراب، أو ينتج معنى مخالفا تماما في حال تغيّرها. يقول: « اعلم أنّ تقديم الشيء على وجهين تقديم يقال أنّه على نيّة التأخير وذلك في كلّ شيء أقررته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه وفي جنسه الذي كان فيه... وتقديم لا على نيّة التأخير ولكن على أن ننقل الشيء عن حكم إلى حكم وتجعله بابا غير بابه وإعرابا غير إعرابه، وذلك أن تجيء إلى اسمين يحتمل كلّ واحد منهما أن يكون مبتدأ ويكون خبرا له فتقدم تارة هذا على ذاك وأخرى ذاك على هذا.» [28] ولتوضيح هذين الوجهين نسوق الأمثلة التالية : ضرب محمدا علي، منطلق زيد، إنّه من المعلوم أن منطلق ومحمدا لم يخرجا بالتقديم عما كان عليه من حكم الإعراب من كون منطلق خبر للمبتدأ زيد مرفوعا بذلك، وكذا بالنسبة لمحمد من كونه مفعولا ومنصوبا هذا عن الوجه الأول من التقديم، أما عن الوجه الثاني فإننا نذلّه بقولنا : محمد القادم وقولنا : القادم محمد، فهنا قدمنا القادم لننقله عن كونه خبر إلى كونه مبتدأ وكذلك محمد لم نؤخره على أن يكون مبتدأ كما كان بل على أن نخرجه عن كونه مبتدأ إلى كونه خبرا، ومثله أيضا قولنا كافأت المجتهد والمجتهد كافأته . ولكن ما علة هذا التقديم والتأخير؟

يذهب الجرجاني إلى أنّ سبب التقديم والتأخير يرجع إلى العناية والاهتمام، فمثلا في الفاعل والمفعول به، متى نقدم أحدهما عن الآخر أو نؤخره؟

يقول النحويون: «إنّ معنى ذلك أنّه قد يكون من أغراض الناس في فعل ما أن يقع بإنسان بعينه ولا يبالون من أوقعه.» [29] فمثلا إن كان هناك رجل يفسد ويكثر الأذى بالآخرين فكلّ الناس يتمنون الخلاص من شرّه ولا يعنيهم في ذلك من يكون قاتله، فإن حدث ذلك وأراد مريد الإخبار بذلك فإنّه يقدم المفعول به على الفاعل، أي الرجل المفسد فيقول قتل المفسدَ محمدٌ ولا يقول: قتل محمدٌ المفسدَ، لأنّه يعلم أن الناس ليسوا في حاجة لمعرفة من هو القاتل ولا فائدة من ذكره، وإنّما الذي يعنيهم ويهمهم ويفرحهم، وكانوا متطلّعين إليه هو وقوع القتل بالمفسد، وكذلك الأمر بالنسبة لتقديم الفاعل على المفعول به.

لذلك ينبغي أن يعرف في كلّ شيء قدّم في موضع من الكلام مثل هذا المعنى، ويفسّر بالنسبة للذين اكتفوا بالقول إنّه قدم للعناية، ولأنّ ذكره أهمّ من دون معرفة السبب في ذلك، فهونوا الخطب فيه وأصبح تتبعه والنظر فيه ضربا من التكلف، وكذلك فعلوا في سائر الأبواب فلم ينظروا في الحذف والتكرار، والإظهار والإضمار، والفصل والوصل، ولا في نوع من أنواع الفروق والوجوه... كما أنّه من الخطأ أن يقسم الأمر في تقديم الشيء وتأخيره قسمين فيجعله مفيدا في بعض الكلام وغيره مفيد في بعض والتعليل يكون بالعناية تارة وبأنه توسعه على الشاعر أو الكاتب تارة أخرى [30].

وهو يتحدّث في هذا الموضع أيضا عن تقديم المسند إليه مع الاستفهام التقريري والإنكاري، ويؤكد على ضرورة أنه لا تكون البداية بالفعل كالبداية بالاسم، فلو قلنا: أقلت شعرا قط؟ أرأيت اليوم إنسانا؟ يكون الكلام مستقيما، أما لو قلنا: أأنت قلت شعرا قطّ؟ أأنت رأيت اليوم إنسانا، فالكلام يكون خاطئا، لأنّه لا معنى للسؤال عن الفاعل من هو في مثل هذا، لأنّ ذلك إنّما

يتصوّر إذا كانت الإشارة إلى فعل مخصوص مثل أن نقول من قال هذا الشعر؟ من بنى هذه الدار؟ من أتاك اليوم؟ فالسؤال هنا ينصّ على معنى. وأمّا إذا قيل شعر على الجملة ورؤية إنسان على الإطلاق فذلك محال فيه، لأنّه ليس ممّا يختصّ بهذا دون ذاك حتى يسأل عن عين فاعله، ولو كان تقديم الاسم لا يوجب السؤال عن الفاعل من هو. وإنّما كان الشكّ في الفعل والغرض هو معرفة وجوده أو عدمه فإنّ الكلام يكون صحيحا [31] لذلك فقولنا أأنت فعلت هذا، الغرض هو التقرير بأنّه الفاعل، وفي قوله تعالى ﴿أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم﴾ لاشكّ في أنهم يريدون أن يقرّ لهم بأنه الفاعل. ولكن يمكن أن نقول هنا: أو ليس إذا قال: أفعل؟ فهو يريد أيضا أن يقرّ أن الفعل كان منه؟ فأي فرق بين الحالتين؟

يبيّن الجرجاني ذلك بأنّه إذا قال: أفعلت؟ فهو يقرره بالفعل من غير أن يردده بينه وبين غيره، وكان كلامه كلام من يوهم أنّه لا يدري أن ذلك الفعل كان على الحقيقة. أما إذا قال: أأنت فعلت؟ كان قد ردد الفعل بينه وبين غيره، ولم يكن منه في نفس الفعل تردّد ولم يكن كلامه كلام من يوهم أنه لا يدري أكان الفعل أم لم يكن، بدلالة أنّه يقول ذلك والفعل ظاهر موجود مشار إليه كما في الآية [32]. والأمر هنا يخصّ الاستفهام التقريري.

وهكذا استنبط الجرجاني جميع التراكيب التي يلامسها التقديم والتأخير، وأكّد على ضرورة الترتيب في المعنى بحيث لا يكون لإحدى العبارتين مزيّة على الأخرى، ما لم يكن لها تأثير لصاحبتها مقارنا بين (زيد كالأسد وكأن زيد الأسد) فنرى أنّ الثانية تزيد في المعنى تشبيهه به زيادة لم تكن في الأوّل وهي أن تجعله من فرط شجاعته وقوّة قلبه، وإنّه لا يروعه شيء بحيث لا يتميّز عن الأسد ولا يقصر عنه حتى يفهم أنّه أسد في صورة إنسان.

7- ضروب الخبر ووظائفه: الخبر هو نقل فائدة جديدة إلى السامع، وهو من أهمّ معاني الكلام. يميّز الجرجاني بين نوعين من الخبر، أوّلهما: خبر هو جزء من الجملة أو ركن فيها لا تتحقق الفائدة دونه. فعندما نقول: محمد مسافر. فمسافر هو خبر المبتدأ محمد وكذلك في قولنا: خرج محمد، فالفعل هنا يخبر كذلك عن هيئة محمد. فكل من مسافر و"خرج" هو جزء من الجملة وهو الأصل في الفائدة. وثانيهما: هو خبر ليس بجزء من الجملة ولكنّه زيادة في خبر آخر سابق له كما في الحال في قولنا مثلا: جاء محمد مسرعا، فالحال "مسرعا" هو خبر في الحقيقة من حيث أنه يثبت المعنى لذي الحال كما يثبته بخبر المبتدأ للمبتدأ وبالفعل للفاعل، ففي هذا المثال فإنّنا أثبتنا الإسراع لمحمد، إلا أنّه هناك فرق وهو أنّنا جئنا به لنزيد معنى في إخبارنا عنه بالمجيء وهو أن نجعله بهذه الهيئة في المجيء، ولم نجرد إثباتنا للإسراع ولم نباشره به بل ابتدأنا فأثبتنا المجيء، ثمّ وصلنا به الإسراع فالتبس به الإثبات على سبيل التبع للمجيء(بشرط أن يكون في حينه) أمّا في الخبر الأوّل في قولنا: محمد مسافر، فإنّنا مثبتين للمعنى إثباتا مجرّدا له وجعلناه يباشره من غير واسطة [33].

ولأنّ الرجل تعمق بذهنه النافذ في معرفة أسرار اللّغة، فإنّه قد ميّز بين الإخبار بالفعل والإخبار بالاسم، فالإخبار بالفعل يفيد تجدّد المعنى المثبت به شيئا فشيئا. أمّا الإخبار بالاسم فإنّه لا يفيد إثبات المعنى دون تجدّده. يقول «الفعل يقتضي مزاولة وتجدد الصفة في الوقت، ويقتضي الاسم ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة وتزجية فعل ومعنى يحدث شيئا فشيئا.» [34]

وهو يبين الفرق بينهما ويؤكّد على أنّه لا يصلح أن يوضع أحدهما في موضع الآخر. يقول الله تعالى ﴿وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد﴾ فهنا لا أحد يشكّ في امتناع الفعل، وإنّ قولنا: كلبهم يبسط ذراعيه، لا يؤدّي الغرض، لأنّه في الإخبار بالاسم فإنّنا لا نثبت مزاولة ولا نجعل الكلب يفعل شيئا بل نثبته بصفة هو عليها فالغرض إذن تأدية هيئة الكلب. وإن نحن نظرنا في حال الصفات المشبهة فإنّ الغرض يبدو جليّا واضحا فقولنا مثلا: محمد طويل وزيد قصير، لا يصلح مكانه قولنا محمد يقول زيد قصير، وإنّما يصلح ذلك إذا كان الحديث عن شيء يطول ويقصر كالنبات والشجر.

ومثلما أنّ الاسم لا يقع حيث لا يصلح الفعل مكانه، فإنّ الفعل يقع حيث لا يصلح الاسم مكانه ولا يؤدّي ما كان يؤدّيه أيضا.

يفصّل الجرجاني فوق ذلك نوع الخبر من حيث حال السامع فيميز بين الخبر الابتدائي الذي ينقل إلى السامع لأول مرة والخبر غير الابتدائي، حيث يكون للسامع معرفة بالخبر ولكنه متشكّك في نسبته، ومنه الخبر الإنكاري حيث أنّ السامع يكون في حالة إنكار للخبر.

فالخبر الابتدائي يكون نكرة نحو قولنا زيد منطلق، وإذا قلنا زيد المنطلق فالخبر هنا معرفا بـ"ال" فهو خبر غير ابتدائي(طلبي)، فالسامع هنا على علم أن هناك انطلاق حدث ولكن لا يعلم إن كان من زيد أو من غيره، فنعلمه أنّه كان من زيد دون غيره.

وهكذا فإنّ في الخبر الابتدائي لم يعلم السامع من أصله بوقوع الفعل.

أمّا في الخبر الإنكاري فننقل الخبر من الخبر غير الابتدائي المعلوم على جهة الوجوب إلى تأكيد هذا الوجوب بإدخال ضمير فيصبح الخبر: زيد هو المنطلق [35].

ويصل من كلّ هذا إلى نتيجة هامة وهي أنّ المبتدأ لم يطلق عليه هذا الاسم لكونه المنطوق به أولا، ولم يسمّ الخبر خبرا لأنّه نطق به ثانيا، بل لأنّ الأوّل هو المسند إليه ومثبت له فهو الأوّل في الذهن أو هو ما كان معروفا ولأنّ الثاني هو المثبت به المعنى.

ويبيّن بعد ذلك مسألة التقديم والتأخير بالنسبة للمبتدأ والخبر (بنوعيهما) مما أصله إلى نتيجة هامة وهي أنّ جملة الفعل والفاعل (انطلق زيد) تختلف في المعنى عن جملة المبتدأ والخبر (زيد انطلق) وأنّ تسميته زيد في الجملة الأولى فاعلا وتسميته في الجملة الثانية مبتدأ لها ما يبرّرها من حيث المعنى، فالأولى تحمل خبرا ابتدائيا، بينما تحمل الثانية خبرا غير ابتدائي (طلبي).

يربط الجرجاني من جهة أخرى بين ترتيب أجزاء الكلام في الاستفهام وترتيبها في الخبر، فتقديم الفعل مع همزة الاستفهام في قولنا" أفعلت هذا؟" غرضه الاستفهام عن وجود الفعل، والسائل يحتاج إلى خبر ابتدائي، أمّا تقديم الاسم كقولنا "أأنت فعلت؟" فإنّ وجود الفعل ثابت والشكّ يقع على الفاعل ويحتاج السامع هنا إلى خبر غير ابتدائي، وما يقال في الإثبات يقال في النفي.

وهكذا ربط الجرجاني بين الإثبات والنفي والاستفهام واستنتج أن ترتيب الكلام في الاستفهام معنى يجب أن يكون نفسه في الخبر المنفي أو المثبت. إنّ معنى الخبر عنده يتأثّر بعاملين اثنين:

1- السياق الكلامي الذي يدخل فيه الخبر فيكون نكرة أو معرفة، وأن الخبر يكون اسما أو فعلا.

2- الموقف والحال الذي يقال فيه الخبر حسبما تتطلّبه وضعية السامع فيكون الخبر ابتدائيا أو غير ابتدائي.

وقد أورد للتدليل على ذلك هذه الحادثة: «روي عن ابن الأنباري أنّه قال: ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العباس إمام تغلب، وقال له: إنّي لا أجد في كلام العرب حشوا، فقال له أبو العباس: في أي موضوع حدث ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون (عبد الله قائم) و(إنّ عبد الله قائم) ثمّ يقولون (إن عبد الله لقائم) فالألفاظ متكررة والمعنى واحد، فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ فقولهم (عبد الله قائم) إخبار عن قيامه، وقولهم (إنّ عبد الله قائم) جواب عن سؤال سائل، وقولهم (إنّ عبد الله لقائم) جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكرّرت الألفاظ لتكرّر المعاني.» (36) يعلق الجرجاني على هذا القول ويبيّن رأيه في أنّ (إنّ) تستخدم في الجواب عن سؤال سائل إذا كان عنده ظنّ في المسؤول عنه... ولا تكون إنّ في الجواب لمجرّد السؤال، فلو سأل أحدهم (كيف محمد) قلنا (محمد) ولا نقول (إنّه محمد). ويستحسن الجرجاني بعد ذلك أن تكون اللام معها للمنكر لأنّ الحاجة إلى التأكيد هنا أشدّ.

8- قضايا النقد في دلائل الإعجاز:

8-1- موقفه من أنصار اللّفظ: لقد كانت ثنائية اللّفظ والمعنى من بين القضايا النقدية التي تناولها الجرجاني، فمن المعلوم أنّ هناك روافد نقدية متعدّدة التقت في ذهنه وبدت له متضاربة كما هو الشأن حول قضية الإعجاز، لذا فقد انزعج كثيرا من الذين قدّروا اللّفظ وقدموه على المعنى ومن بينهم "القاضي عبد الجبار" و"ابن قتيبة". وقد رأى أنّها أصبحت خطرا على النقد والبلاغة معا. فعلى المستوى النقدي فإنّ الانحياز إلى اللّفظ قتل الفكر الذي يظنّ الجرجاني أنّه وراء عملية أدقّ من الوقوف عند ميزة لفظة دون أخرى، أمّا على المستوى البلاغي فإنّه لم يستطع أن يتصوّر الفصاحة في اللّفظة وإنّما هي في العملية الفكرية التي تصنع التركيب. وهو يرجع سبب تقديم هؤلاء النقاد اللّفظ على المعنى إلى أنّ المعاني تتبيّن بالألفاظ. يقول: «اعلم أنّه لما كان الغلط الذي دخل على الناس في حديث اللّفظ كالداء الذي يسري في العروق، ويفسد مزاج البدن، وجب أن يتوخّى دائما فيهم ما يتوخاه الطبيب في الناقة من تعهّده بما يزيد في متنته، ويبقيه على صحته، ويؤمنه النكس في علّته، وقد علمنا أنّ أصل الفساد وسبب الآفة هو ذهابهم إلى أنّ من شأن المعاني أن تختلف عليها الصور، وتحدث فيها خواص ومزايا من بعد أن لا تكون، فإنك ترى الشاعر قد عمد إلى معنى مبتذل فصنع فيه ما يصنع الصانع الحاذق إذا هو أغرب في صنعة خاتم... فإنّ جهلهم بذلك من حالها هو الذي أغواهم واستهواهم... وإذا كان لأحد الكلامين فضيلة لا تكون للآخر، ثمّ كان الغرض من أحدهما هو الغرض من صاحبه أن يكون مرجع تلك الفضيلة إلى اللفظ خاصة.... وأبوا أن ينظروا في الأوصاف التي اتبعوها نسيتهم الفضيلة إلى اللفظ قولهم: لفظ متمكن غير قلق ولا ناب به موضعه...» (37)

فهو يرى أن هؤلاء النقاد قد تورطوا في جهل فاحش لأن إعجاز القران لا يتصوّر أن يكون في الألفاظ منفردة إذ هي مادة اللّغة عامة وكانت معروفة عند العرب، ثمّ إنّ الألفاظ المفردة لا يتصوّر أن يقع بينها تفاضل من حيث هي ألفاظ مفردة، دون أن تدخل في تراكيب، إلاّ في قولهم «هذه مألوفة مستعملة، وتلك غريبة حوشية وهل تجد أحدا يقول، هذه اللّفظة فصيحة إلاّ وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها.» (38) فلا جمال إذن في اللّفظ من حيث هو صوت مسموع، وحروف تتوالى في النطق، وبالإضافة إلى هذا فإنّ دلالة الألفاظ على معناها

تحكمي وضعي، فلو أنّ واضع اللّغة كان قد وضع ربض مكان ضرب لما كان في ذلك ما يؤدّي إلى فساد [39]، فالألفاظ بمعزل عن المزيّة إلاّ في تأليف الكلام، وتنظيم أجزاء الصور الأدبية وجلاء الفكرة بوسائل الصياغة اللّغوية. وهي مزايا ترجع إلى الصياغة ودلالتها على الصورة، وهذا يمكن نسبته إلى الألفاظ في دلالتها على صورها. ولهذه الدلالة فخّم القدماء شأن اللّفظ وقالوا معنى لطيف ولفظ شريف، وقد عاب الجرجاني على "ابن قتيبة"– دون أن يسمّيه– لأنّه قسّم الشعر في أنواع وهو ما أضلّ من جاء بعده ضلالا بعيدا، لأنّهم أخذوا هذه القسمة على ظاهرها واعتقدوا باستقلال اللّفظ عن المعنى، وبأنّ المعاني لا تتزايد وإنّما تتزايد الألفاظ لأنّ «المعاني تتبيّن بالألفاظ ولا سبيل لمن يرتّبها إلى أن يدلّنا على ما صنع في ترتيبها إلاّ بترتيب الألفاظ، لهذا تجوّز القدماء فكنّوا عن ترتيب المعاني بترتيب الألفاظ نفسها ثمّ تحدثوا عن الألفاظ بحذف الترتيب.» [40] ومن بينهم "الجاحظ" الذي أسقط أمر المعاني وجعلها مطروحة في الطريق من خلال قوله المشهور «والمعاني مطروحة في الطريق..." وقوله: "بأن فضل الشعر بلفظه لا بمعناه وأنه إذا عدم الحسن في لفظه ونظمه لم يستحق هذا الاسم بالحقيقة.» [41]

8-2- موقفه من أنصار المعنى: لم يرض الجرجاني عن رأي من وقفوا عند حدود المعنى في عمومه ليحكموا به على جمال الموضوع أو قبحه، فقد قال: «واعلم أن الداء الدوى والذي أعيى أمره في هذا الباب غلط من قدم الشعر بمعناه وأقلّ الاحتفال باللّفظ وجعل لا يعطيه من المزيّة إن هو أعطى إلاّ ما فضل عن المعنى. يقول ما في اللّفظ لولا المعنى وهل الكلام إلاّ بمعناه، فأنت تراه لا يقدم شعرا حتى يكون قد أودع حكمة وأدبا واشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر.» [42]

وظاهر الأمر دون تمعن كبير قد يكون في جانب من يذهب هذا المذهب، ولكن عند البحث عن الحقائق نجد أن جميع البلاغيين المتفهّمين قد عابوا هذا المذهب يقول: «لا نرى متقدما في علم البلاغة، مبرزا في شانها إلا وهو ينكر هذا الرأي ويعيبه ويزري على القائل به ويغض منه.» [43]

ثمّ يعلّل ذلك: «بأنّ سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة، وأنّ سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه، كالفضة والذهب يصاغ منها خاتم أو سوار، فكما أنّ محالا إذا أنت أردت النظر في صوغ الخاتم، وفي جودة العمل ورداءته أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة، أو الذهب الذي وقع فيه العمل وتلك الصنعة، كذلك محال إذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزيّة في الكلام أن تنظر في مجرّد معناه، وكما لو أنّا فضلنا خاتما على خاتم بأن تكون فضة هذا أجود أو فضته أنفس، لم يكن ذلك تفضيلا له من حيث هو خاتم، كذلك ينبغي–إذا فضلنا بيتا على بيت من اجل معناه– أن لا يكون تفضيلا له من حيث هو شعر وكلام... واعلم أنّك لست تنظر في كتاب صنف في شأن البلاغة، وكلام جاء عن القدماء، إلاّ وجدته يدلّ على فساد هذا المذهب، ورايتهم يتشددون في إنكاره وعيبه والعيب به، وإذا نظرت في كتب الجاحظ وجدته يبلغ في ذلك مبلغ ويشدّد غاية التشدّد، وقد انتهى في ذلك إلى أن جعل العلم بالمعاني مشتركا وسوى فيه بين الخاصة والعامة...» [44]

وهنا يستشهد برأي الجاحظ، ويعقّب عليه بما يدلّ على الباعث الديني الذي يدفع به ألاّ يغفل شأن اللّفظ ومزيته فيقول: «واعلم أنّهم لم يبلغوا في إنكار هذا المذهب ما بلغوه إلاّ لأنّ الخطأ فيه عظيم وأنّه يقضى لصاحبه إلى أن ينكر الإعجاز ويبطل التحدّي من

حيث لا يشعر، وذلك أنّه إذا كان العمل على ما يذهبون إليه من أن لا يجب فضل ومزيّة، إلاّ من جانب المعنى وحتى يكون قد قال حكمة أو أدب واستخرج معنى غريب أو شبيها نادرا فقد وجب طرح جميع ما قاله الناس في الفصاحة والبلاغة وفي شأن النظم والتأليف وبطل أن يجب بالنظم فضل وأن تدخله المزيّة وإن تتفاوت فيه المنازل، وإذا بطل فقد بطل أن يكون في الكلام إعجاز وصار الأمر إلى ما يقوله اليهود ومن قال بمثل مقالهم في هذا الباب ودخل في مثل تلك الجهالات ونعوذ بالله العمى بعد الإبصار.» (45) أي أصبح الإعجاز أن يحتوي الكلام على حكمة وأدب واستخراج معنى غريب أو تشبيه نادر، وفي هذا تسوية بين القران وأية مهارة ذهنية إنسانية.

8-3- موقفه من قضية اللّفظ والمعنى: يتضح مما سبق ذكره أن عبد القاهر الجرجاني لم يرض بالرجوع إلى مجرّد المعنى في تقويم الأدب، ولم يقنع كذلك بالوقوف عند حدود الألفاظ من حيث هي ألفاظ. فما هي وجهته؟ لقد رمى الجرجاني إلى ربط الألفاظ بدلالاتها في السياق من حيث تكوين الصورة الأدبية فاللّفظ والمعنى عنده مثلا زمان وهما وجهان لصفحة واحدة فاللّفظ تابع للمعنى ضرورة، إذ الألفاظ أوعية للمعاني وهي أدواتنا لفهم هذه المعاني «فإذا وجب لمعنى أن يكون أوّلا في النفس، وجب للّفظ الدّال عليه أن يكون مثله أوّلا في النطق.» (46) فلا يتصوّر أن يعرف المرء للفظ موضعا من غير أن يعرف معناه ولا يتوخّى في الألفاظ ترتيبا ونظما، وإنّما يتوخّى الترتيب في المعاني، فإذا تمّ ذلك تبعتها الألفاظ وقفت آثارها «إنّك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم، وتابعة لها ولاحقة بها وان العلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق.» (47) فلا يعقل إذن أن يقصد المرء أوّلا في ترتيب المعاني في استقلال عن اللّفظ ثمّ بعد ذلك ينظر في الألفاظ الدالة عليها ولا يمكن كذلك أن يقصد إلى ترتيب الألفاظ على نظام معيّن في استقلال عن الفكر، ولكن هذا الترتيب للألفاظ يقع ضرورة ملازما للمطلوب الأوّل وهو المعنى المدلول عليه في الصورة. لأنّ طلب المتكلّم يتوجّه دائما إلى المعنى الذي يريد أن يصوغه في تركيب يدلّ عليه، وقد يتعرّض للصعوبة بسبب اللّفظ فالعملية الذهنية يتلازم فيها المعنى والألفاظ الدالة عليه، وبديهي أنّ المطلوب المعنى إذ الألفاظ من حيث هي أصوات لا تطلب أبدا ولكن المعاني إنّما «تطلب بالألفاظ من حيث دلالتها في الصياغة، فأنت إنما تطلب المعنى، وإذ ظفرت بالمعنى فاللفظ معك، وإزاء ناظرك، وإنما كان يتصور أن يصعب مرام اللفظ من أجل المعنى أن لو كنت طلبت المعنى، احتجت إلى أن تطلب اللّفظ على حدة، وذلك محال.» (48)

وهذا ليس معناه إهمال الألفاظ في مواقعها من الجمل وإنّما حسن الدلالة وتمامها، وجلاؤها ووضوحها في صورة أبهى وأكثر أثرا في النفس ليست سوى خصائص لا تتحقّق إلاّ بأن يجيء «المعنى من جهته ويختار له اللّفظ الذي هو أخصّ به واكتشف عنه، وأتمّ له، وأحرى بأن يكسبه نبلا ويظهر فيه مزيّة.» (49)

تظهر أهميّة الألفاظ إذن في أداء المعاني، ويتّضح ذلك في تأليف الكلام وهنا تظهر مزيّة الصياغة وما فيها من الألفاظ في جلائها للصورة، فالبلاغة والفصاحة وسائر ما يجري في طريقهما أوصاف راجعة إلى المعاني وإلى ما يدلّ عليه بالألفاظ. (50) إنّ النظم بعد كلّ هذا ليس إلاّ ما يعبّر عنه المحدثون بالقول إنّه: «معاني النحو التي يدور عليها تعلّق الكلام بعضه ببعض.» (51)

على الرغم من أصالة عبد القاهر الجرجاني فيما سقناه من آرائه في النظم، فقد تأثر بآراء من سبقوه وحذا حذوهم في الاعتداد بالصياغة، وإنّها نظير التصوير والنقش وكانت جلّ أفكاره تدور حول هذه الصياغة. وقد أفاد بشكل كبير من أنصار أصحاب اللّفظ وترجيحه على المعنى، وبخاصة الجاحظ، ففي كتب الجاحظ، بذور لأفكار عبد القاهر جميعها، ولكن تجلّت أصالته بعد ذلك في ثورته على معاصريه ممن اشتطّوا في مدّ نصرة اللّفظ حتى غفلوا به عن الغاية، وممن اعتدّوا بما يروقهم من معنى أو من حسن مجازي في الألفاظ، مغفلين أمر الصورة الأدبية. وكان لعبد القاهر فضل لا يدانيه فيه ناقد عربي في توثيق الصلة بين الصياغة والمعنى، وفي الاعتداد في ذلك بالألفاظ من حيث دلالتها وموقعها، مجازية كانت أم حقيقة، وبيان تأثيرها في تأليف الصورة الأدبية. وبالرغم من أنّه قد تأثر في اعتبار الألفاظ من حيث هي ألفاظ لم يدانه ناقد في بيان قيمة ألفاظ وصلتها بعملية الفكر اللّغوية، وتأثيرها في الصورة الأدبية، فإنّ له في هذا المجال، وفي النقد عامة، أصالة جديرة بالتنويه بها.

خاتمـــة ونتائج:

– لم تعد قواعد النحو مع عبد القاهر الجرجاني مجرّد حافة مقصورة على الإعراب كعهدنا بها، وإنما أضحت من وسائل التصوير والصياغة، وهنا تظهر لنا مفارقة وموافقة بينه وبين الأسلوبين المحدثين ذلك أن كلا منهما نظر إلى النحو باعتباره عملية أساسية في الرسالة الإبداعية أو الرسالة الإخبارية، لكن الأسلوبية نظرت إليه باعتباره عملية سابقة وان كانت ضرورية في تركيب الأسلوب، في حين ينظر إليه عبد القاهر باعتباره داخلا في عملية الصياغة ذاتها وباعتباره مظهر فنية المبدع ومقدرته على الإنشاء، وعبد القاهر ينظر إلى النحو بمعناه العام أي بمعنى العلاقات القائمة بين المعاني، وهي علاقات ترتيب في النفس قبل أن تنتقل إلى اللفظ ذاته في حين تنظر الأسلوبية إلى النحو بمعناه الخاص أي بمعنى هذه القواعد الصارمة التي تنظم اللغة، وتجعل لها كيانا متميزا بصفاته وخصائصه.

– يطغى على نظرية النظم الجانب اللّساني لأنّها تربط جانب النحو بالبلاغة، ونظرا لحصافة صاحبها في حكم التأليف، فإنه جمع الكلام وتراكيب وأساليب البلاغة والإعجاز معا ورصد لنا ثلاث مستويات: أولها مستوى السلامة في الكلام العادي ثم المستويات الأرقى درجة منه كالأدب والشعر والنثر وصولا إلى أعلى وأرقى المستويات وهي النظم المثبت بالقرآن الكريم.

– إنّ المستحدث هذه النظرية يكمن في الانتقال من الاهتمام بالألفاظ وهي منفردة، ومعزولة إلى الاهتمام بها وهي داخل نسقها الكلامي، أي داخل الجملة أو التركيب، وعدم الفصل بين اللفظ والمعنى بوصفهما وحدة متكاملة.

– لم يتميّز عبد القاهر الجرجاني بالنظرة الشاملة لعلمي البيان والمعاني، وبالنظرية التي أسس لها بالنظم وجعلها قاعدة لعلم المعاني فقط، وإنّما تميز كذلك بمنهج خاص في تحليل النصوص التي تناولها وسمّاها بعضهم "فقه النصوص" لكنه كان يرى النص هدفا في ذاته فيأمل كثيرا في أسرار بنائه ويقف على الكثير من خصائص تراكيبه، وقد فعل ذلك بذوق ناقد وحسن أديب.

– لقد استطاع الجرجاني من خلال "دلائل الإعجاز" أن يضع نظرية في تفسير الإعجاز القرآني حاول كثير من المفسرين تطبيق تفصيلاتها على آيات القرآن، وأن يضع إطارا عاما لعلم المعاني، فاستحق بذلك أن يكون من ألمع الأسماء المتألقة في تاريخ البلاغة العربية.

الهوامش:

1- محمد رشيد رضا في: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ط1، دار المعرفة، بيروت/ لبنان، ص7.

2- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، دار المعرفة، بيروت/ لبنان، ص15.

3- المصدر نفسه، ص21-22.

4- المصدر نفسه، ص60.

5- المصدر نفسه، ص69.

6- المصدر نفسه، ص80.

7- المصدر نفسه، ص275.

8- المصدر نفسه، ص288.

9- المصدر نفسه، ص81-82.

10- المصدر نفسه، ص15.

11- المصدر نفسه، ص 70.

12 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

13 - ينظر: المصدر نفسه، ص 268.

14 - المصدر نفسه، ص 266.

15 - المصدر نفسه، ص 267.

16 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

17 - ينظر المصدر نفسه، ص 260.

18 - ينظر المصدر نفسه، ص 263 -264.

19 – فؤاد علي مخيمر، فلسفة عبد القاهر الجرجاني النحوية في دلائل الإعجاز، د. ط. دار الثقافة للنشر والتوزيع، د. م. 1983، ص6.

20 - سورة القصص، الآية 34.

21 - عبد القاهر الجرجاني، المصدر السابق، ص 48- 49.

22 - المصدر نفسه، ص 49 – 50.

23 - ينظر: المصدر نفسه، ص 47.

24 - المصدر نفسه، ص 272.

25 - المصدر نفسه، ص 152.

26 - المصدر نفسه، ص 249 – 250.

27 - المصدر نفسه، ص 262.

28 - المصدر نفسه، ص 86.

29 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

30 – ينظر المصدر نفسه، ص 87 -88.

31- ينظر المصدر نفسه، ص89.

32- ينظر المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

33- ينظر المصدر نفسه، ص 123.

34 ينظر المصدر نفسه، ص 124.

35- ينظر المصدر نفسه، ص 126.

36- المصدر نفسه، ص 209.

37- المصدر نفسه، 304-305.

38- المصدر نفسه، ص47.

39- ينظر المصدر نفسه، ص51.

40- المصدر نفسه، ص51-52.

41- ينظر المصدر نفسه، ص173.

42- المصدر نفسه، ص170.

43- المصدر نفسه، ص171.

44- المصدر نفسه، ص173.

45- المصدر نفسه، ص174.

46- المصدر نفسه، ص43.

47- المصدر نفسه، ص44.

48- المصدر نفسه، ص49.

49- المصدر نفسه، ص35.

50- ينظر المصدر نفسه، ص200.

51- شوقي ضيف، البلاغة تطوّر وتاريخ، ط9، دار المعارف، القاهرة. د. ت. ص168.

المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم برواية حفص عن الإمام نافع.

2- محمد رشيد رضا في: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ط1، دار المعرفة، بيروت/ لبنان، د. ت.

3- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ط1، دار المعرفة، بيروت/ لبنان.د.ت.

4- فؤاد علي مخيمر، فلسفة عبد القاهر الجرجاني النحوية في دلائل الإعجاز، د. ط. دار الثقافة للنشر والتوزيع، د. م. 1983.

5- شوقي ضيف، البلاغة تطوّر وتاريخ، ط9، دار المعارف، القاهرة. د. ت.

موقف الحركة الاستشراقية من تاريخ النحو العربي ونقدها

د/ حمداد بن عبد الله
أستاذ محاضر /قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللغات والفنون
جامعة مولاي الطاهر سعيدة الجزائر

الملخص

لقد حاولت من خلال هذا المقال أن أقف على ظاهرة الاستشراق، ومدى أثرها في العالم العربي والإسلامي على السواء. وفي بداءة تناولت مفهوم الاستشراق اصطلاحا وتباين التعاريف حوله إن عند الأوربيين أو المفكرين العرب. والحاصل ان المفهوم المشترك بينهم يتمثل في تلكم الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي. وقد تركزت دراستي حول اهتمام هؤلاء بالعربية عموما وبعلم النحو خصوصا وذلك منذ بداية القرن السادس عشر حيث الفت في هذا المضمار التأليف ما أظهرته خلال هذه المقاربة هو اختلاف آرائهم حول قضية أصالة النحو العربي غير أنني بسطت فرضيات القائلين بتأثر النحو العربي بالمنطق اليوناني أو بأي جهة خارجية بحجة وجود علاقة بين المصطلحات النحوية العربية والفكر اليوناني، وانتشار ثقافة المدرسة الهيلينية، وكذا ترجمت الكتب اليونانية إلى العربية وما إلى ذلك. وقد استطعت بعد الدرس والتحليل والتمحيص أن أفند فرضية التأثر باليونان معتمدا على أدلة من لدن اللغويين العرب، وبعض المستشرقين أنفسهم وذلك نحو قيام النحو العربي علي نظرية العامل وهي لا توجد في أي نحو من الأنحاء الأجنبية وارتباط هذا العلم بالحديث والفقه كما أن القرآن الكريم والحديث الشريف كانا مصدري النحو والمعجم، وأن المصطلح العربي حسب نظرة قد فسر بسهولة من خلال التطور الدلالي الداخلي في الثقافة الإسلامية فضلا عن وجود مصطلحات أجنبية في الفلسفة والطب وغيرهما وهو ما لم نألفه في النحو والبلاغة. كما أن المصادرة العربية لم تذكر أي تأثير أجنبي في النحو العربي وهو ما نلمسه –على سبيل المثال– عند ابن النديم في مؤلفه (الفهرست). وفي الختام لعلنا نسأل هل يكون أصل كل تحليل لغوي الفلسفة والمنطق؟ وبالتالي تكون الفرضية اليونانية ينقصها الدليل وتحوزها الدقة وذلك في ضوء اهتمام العرب بالمجال اللغوي في بداية النشأة في ظل درسهم للقرآن الكريم ذلك الكتاب المعجز.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق –فقه اللغة –النحو العربي –المنطق اليوناني –الفرضية اليونانية –الثقافة الهيلينية –علم الفقه –أصالة النحو العربي –نظرية العامل–النحو السرياني.

Résumé

J'essaye à travers cet article d'étudier le phénomène de l'orientalisme et son impact sur le monde arabe et musulman. J'ai commencé d'abord par définir le concept de l'orientalisme du point de

concept arabe a été et étudié et expliqué facilement grâceà son développent sémantique au sein de la culture islamique, et à la présence des termes étrangère dans la philosophie, lamédecine, et d'autre sciences arabes, ce que nous ne rencontrons pas dans la grammaire et l'éloquence. En plus de cela, les références ne mentionnent aucune influence étrangère de la grammaire arabe. C'est ce que nous avons constaté, par exemple, dans le livre d'Ibn Al –Nadim (Elfihrist).

Nous pouvons conclure en nous demandons si le fondement de toute analyse linguistique est la philosophie et la logique. L'hypothèse de l'influence grecque manque de preuve et de précision surtout quand on savait que les linguistesarabes ont étudié la science de la langue arabe au début à la lumière du saint coran, ce livre miraculeux.

لا ريب أن لظاهرة الاستشراق أثرا عظيما في العالم الإسلامي والعالم الغربي على السواء، ونستطيع القول: إن الاستشراق في واقع أمره كان ولا يزال جزءا لا يتجزأ من قضية الصراع الحضاري بين العالم الإسلامي والعالم الغربي، بل ذهب أحد الباحثين إلى جعله أبعد من ذلك فذكر قائلا:" ونقول إن الاستشراق يمثل الخلفية الفكرية لهذا الصراع، ولذا فلا يجوز التقليل من شأنه بالنظر إليه على أنه قضية منفصلة عن باقي دوائر هذا الصراع الحضاري. فقد كان الاستشراق من غير شك أكبر الأثر في صياغة التصوّرات الأوروبية عن

vue terminologique. J'ai constaté qu'en dépit des divergences définitionnelles de ce concept chez les penseurs européens et arabes, tous convergent vers une conception commune : les études occidentales sur le moyen islamique.
Mon étude s'accentue sur les orientalistes de la langue arabe en général et la grammaire en particulier à partir du 16 e siècleoù des ouvrages ont été rédigés sur ce sujet.
Dans cette approche, j'ai pu montrer qu'il y a une multiplicité d'opinions sur l'authenticité de la grammaire arabe.
Toutefois, j'ai exposé l'hypothèse des orientalistes qui estiment que cette grammaire a été influencée par la logique grecque sous prétexte qu'il existe une relation entre les termes arabes et la pensée, la diffusion de la culture de l'école hellénistique, et la traduction des livres grecques en arabe, etc. Je suis arrivé après l'étude, l'analyse et l'examen à réfuter cette hypothèse en me basant sur des preuves présentées par des penseurs arabes et des orientalistes eux –mêmes. A titre d'exemple, notre grammaire arabe est fondée sur la théorie du facteur qui n'existe pas dans une grammaire étrangère, sur la liaison de cette science a hadith et la jurisprudence. Le coran et le hadith ont été, à cet égard, les sources de la grammaire arabe et du lexique. Le

الإسلام، وفي تشكيل مواقف الغرب إزاء الإسلام على مدى قرون عديدة"[1].

مفهوم الاستشراق واختلاف التعاريف حوله:

لقد تباينت الرؤى في حد هذا المصطلح، فألفينا تعريف العرب يخالف تعريف الغربيين له، فمنهم من يرى أنه طلب علوم الشرق ولغاته، مولده عصرية تقال لمن يعني بذلك من علماء الفرنجة، ويتبدى هذا التعريف لمن يهتم بالجانب العلمي في هذه المسألة، غير أننا نجد في تعاريف أخرى ما يمت بقربى إلى السياسة والسيطرة. فهذا الكاتب الشهير **إدوارد سعيد يورد** عن هذا المفهوم فيقول:" الاستشراق هو المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق بإصدار تقريرات حوله، وبوصفه وتدريسه، والاستقرار فيه وحكمه، وهو بإيجاز أسلوب غربي للسيطرة على الشرق واستبنائه، وامتلاك السيادية عليه"[2]. وقد نقصد بالشرق معناه الواسع ليشمل شعوب الهند وفارس، والصين واليابان، وهو ما نفقهه من أحد كبار الباحثين المستعربين الإيطاليين في هذا القرن وهو **فرانسيسكو غابرييلي** إذ يقول: "وقد اعتبر في البداية كعلم واحد متكامل تم سرعان ما انقسم إلى فروع وتخصصات مستقلة بعضها عن بعض، ومتعلقة بمختلف الحضارات الخاصة بالشرق الإفريقي-الأسيوي. وهكذا شهدنا ظهور الاستشراق الصيني والهندي، والدراسات الإيرانية والتركية، والعالم السامي والإسلاميات، والدراسات المصرية القديمة، ودراسة إفريقيا، وبقية التجمعات المناسبة أو المتعلقة بتقسيمات محددة تماما من النواحي اللغوية، والتاريخية، والعرفية للحضارات. كل هذه التخصصات راح ت تحل محل التسمية العامة والمشتركة للاستشراق، وأصبحت هذه التسمية القاسم المشترك بينها أو اللحمة المشتركة لها"[3]. غير أن المتأمل في الجهود المبذولة في هذا المضمار يرى أن الدراسة تركزت على الشرق الأوسط أي على العرب والمسلمين أساسا.

وإذا كان هناك تمايز في التعريف الاصطلاحي للاستشراق، فهذا آيل لا محالة إلى تباين المشارب والرؤى، وكذا الخلفيات الفكرية التي ينطلق منها كل باحث، وهو ما نلمسه من هذا القبيل في قول أحد المهتمين بالظاهرة الاستشرافية حيث يقول: "على رغم القواسم المشتركة بين مختلف الخطابات الاستشراقية، إلا أنه لا يمكننا أن نهمل الفروقات المتدرجة الكائنة بينها، وهي فروقات مهمة أحيانا. صحيح أنها تدافع جميعها عن المنهجية الغربية، أو المنهجية العلمية التاريخية [في زعمهم]، وتدعو إلى تطبيقها على التراث الإسلامي، إلا أنها تختلف فيما عدا ذلك، فمنهجية **رودنسون** ذات تلوين اجتماعي – ماركسي– أكثر من منهجية **برنارد لويس** التي يبدو أنها تنتمي إلى منهجية تاريخ الأفكار التقليدي كما هو سائد في الغرب منذ القرن التاسع عشر. منهجية فيلولوجية– تاريخية كلاسيكية لا تعنى كثيرا بالمشروطية الاجتماعية– الاقتصادية للموضوع المدروس، وإنما تدرس الأفكار، وكأنها ذات كيان مستقل بذاته. وكذلك منهجية كلود كاهين، فهي تولي أهمية للعوامل الاجتماعية والاقتصادية أكثر من منهجية **فرانسيسكو غابرييلي**، أو **وليام كانتول سميت**"[4].

أما إذا يممنا وجهنا شطر الوجه الآخر أي نظرة العرب إلى ظاهرة الاستشراق فسنجد أيضا هذا التباين، فعلى سبيل المثال نلحظ أن تعريف المفكر الإسلامي الشهير **محمود شاكر** لهذا المصطلح غير تعريف **إدوارد سعيد** الذي أشرنا إليه آنفا، وذلك أن هذا الأخير كان نصرانيا، وإن كان شرقيا، فنرى تركيزه على الجانب السياسي متأثرا بـ **ميشال فوكو** في نظرته الفلسفية. أما الباحث **محمود شاكر** فكان ينظر إلى أن هذا الأمر هو

محاولة لهيمنة المسيحية الشمالية كما نعتها على البلاد الإسلامية[5]. وعموما فإن كثيرا من المستشرقين يتفقون على عناصر مشتركة للاستشراق، وعلى أية حال فهو في صورته العامة: عبارة عن اتجاه فكري غربي يقوم بدراسة حضارة الأمم من جوانبها الثقافية والفكرية، والدينية، والاقتصادية والسياسية كافة لغرض التأثير قيها. وقد ذهب في هذا السياق الباحث محمود حمدي زقزوق على أن "المعنى الخاص لمفهوم الاستشراق الذي يعني الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه، وتاريخه وعقائده، وتشريعاته وحضارته بوجه عام، وهذا هو المعنى الذي ينصرف إليه الذهن في عالمنا العربي والإسلامي عندما يطلق لفظ استشراق أو مستشرق، وهو الشائع أيضا في كتابات المستشرقين المعنيين"[6]. وقد يعني هذا المفهوم كل ما يصدر عن الغربيين من أوروبيين شرقيين وغربيين بما في ذلك السوفيات وأمريكيين من دراسات أكاديمية جامعية تتناول قضايا الإسلام والمسلمين في شتى الحقول المعرفية فضلا عما تنشره وسائل الإعلام المتباينة بلغاتها، أو لغة الضاد لمعالجة قضايا العرب والمسلمين. كما يمكننا أن نلحق بهذا التعريف ما يخطه النصارى العرب ممن ينظر إلى الإسلام من خلال المخيال الغربي، وكذلك تلامذة المستشرقين من بني جلدتنا الذين تبنوا كثيرا من أفكار المستشرقين، ويتبدى أن هذا التعريف الأخير هو الأعم والأشمل إذ أومأ إلى كل ما له علاقة بالتأثير في العقل العربي والمشرقي، أو هو باختصار تذوق أشياء الشرق.

والاستشراق في واقع أمره قضية تتناقض حولها الآراء في عالمنا العربي الإسلامي، فبين مؤيد له ومتحمس إلى أقصى حد، وبين رافض له جملة وتفصيلا، لكن الحقيقة التي لا يمكن إنكارها هي أن الاستشراق له انعكاساته القوية على الفكر الإسلامي الحديث إيجابا أو سلبا أحببنا أم كرهنا. ولهذه العلة لا نستطيع أن نتجاهله، أو نكتفي بمجرد رفضه، وكأننا بذلك قد قمنا بحل المشكلة، ولو فعلنا ذلك في تصورنا كنا كالنعامة التي تدفن رأسها في الرمال. وفي هذه الحال فليس هناك بد من مواجهة المشكلة وطرحها على بساط البحث ودراستها ومقاربتها، واستخلاص النتائج، ووضع الحلول، واقتراح البدائل، وما إلى ذلك[7].

وإذا كانت جهود فئة من هؤلاء قد اتسمت بالإيجابية، فإنه لابد لنا من الإشارة إلى ما لدى فئة أخرى من سلبيات، وقد أسهبت الباحثة القديرة الدكتورة **نفوسة زكريا** في الحديث عن هذا الصنف في مؤلفها الشهير (تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر)، وقد وصف الدكتور **عبد الصبور شاهين** في هذا السياق آفتهم فقال: "وآفة المستشرقين أنهم يسوقون مجرد الاحتمالات العقلية مساق الحقائق المسلمة، ويقيسون الماضي – الذي لم يكن يوما جزءا من تاريخهم، وبالتالي لم يكن من مكونات ضمائرهم- بمقياس حاضرهم مع تباين المكان والزمان، والعقلية والروح. وآية ذلك أنهم يغضون أبصارهم عن الطابع الميتافيزيقي الذي نشأت في ظله أحداث التاريخ القرآني على عهد النبوة[8].

ولعله من النصف أن نقول للمحسن أحسنت وللمسيء أسأت، فقد كان هناك منهم من أنصف التاريخ الإسلامي، وخدم الحضارة العربية بعامة، وهو ما نلمحه عند المستشرق **عوستان لوبون** في مؤلفه (حضارة العرب)، و**توما س أرنولد** في كتابه العظيم (الدعوة إلى الإسلام)، وكذا المستشرق الفرنسي **دينيه** مؤلف (أشعة خاصة بنور الإسلام)، والمستشرقة الألمانية **سيغريد هونكه** صاحبة كتاب (شمس الله تسطع على الغرب) وغيرهم.

اهتمام المستشرقين بالدر س النحوي العربي:

لقد كان للمستشرقين جهود ضخمة في مجال الدراسات التاريخية تمثل ذلك جليا وواضحا في سعيهم إلى تأليف المعاجم التاريخية للغة العربية، كما كثرت بحوثهم وتآليفهم في فقه اللغة، ودراسة لباقي العلوم، ومنها النحو العربي دراسة تاريخية تطورية. كما ألفوا في المجال النحوي كتبا كثيرة. وقد أصحبت الدراسات الاستشرافية للغة العربية وآدابها وعلومها مهمة حتى أننا لن نبالغ لو قلنا: إن ما يكتب عن العربية وعلومها بلغات الغرب حاليا في الكتب والدوريات الغربية على أيدي المستشرقين، وتلاميذهم من العرب لكثير إلى الحد الذي يستدعي عند بعضنا الغرابة[9]. ولعل كتاب الدكتور **محمد حسن باكلا** (اللسانيات العربية)، (مقدمة وبيبلوغرافيا اللسانيات، أو البيبلوغرافيا) التي صنعها **ديم**، وأكملها **فرستيج** للدراسات الاستشراقية للنحو العربي، ونشرت في المجلة التي يرأس تحريرها الألماني **فيشر** وهي **(Journal of Arabic Linguistics)** لخير دليل على وجود كم كبير من البحوث المكتوبة بمختلف اللغات الأوروبية عن اللغة العربية، ولقد أثبت الدكتور **عبد الرحمن يوسي** في بحث له موسوم بـ (أتوجد لسانيات استشراقية؟: **is there an orientalis luiguistics**) اهتمام الغرب بالعربية منذ الإسباني **ألكالا** (1505م) ، حتى عصرنا هذا موضحا اتجاهاتهم البحثية[10].

ويتجلى الاهتمام باللغة العربية من قبل عدد كبير من المستشرقين وغيرهم في الجامعات الغربية من خلال دائرة المعارف الخاصة باللسانيات العربية، حيث يرأس تحريرها المستشرق الهولندي **كيس فرستيج**، وقد صدرت في خمسة أجزاء حتى الآن، وقد نوّه الدكتور **حمزة المزيني** بمكانة العربية في الدراسات اللغوية المعاصرة في مؤلفه (مكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة). وفي الواقع إن الاهتمام باللغة العربية في أوروبا كان منذ زمن بعيد، وكان الاهتمام بذلك يختلف من عصر إلى آخر، وهو ما أفصح عنه غير قليل من المستشرقين[11].

وقد ارتأى **يوهان فك** أن فتوحات العرب الكبرى، والمواجهة المسلحة بين الدولة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية، وبين الدول الأوروبية الأخرى فيما بعد، وقيام العالم الإسلامي بالمحافظة على تراث القدماء مثل اليونان وغيرهم في المجالات العلمية، كانت الدافع إلى حث الأوروبيين على الترجمة من العربية إلى اللاتينية، لكن هذا الصنيع لم يؤد إلى القيام بدراسات فقهية للغة، برغم المحاولة، فإن أقدم ترجمة لاتينية للقرآن ترجع إلى سنة 1143م، وقد اضطلعت بتقديم مضمون الفكرة، ولم تكترث بأسلوب الأصل العربي وصياغته[12].

والحقيقة أن بدايات الاهتمام بالعربية عموما، وبالنحو العربي خصوصا قد بدأت منذ أن كتب **ألكالا** (Pedro Alcala) في إسبانيا عن النحو العربي في سنة 1505، وأعيد طبع مؤلفه باختصار في باريس سنة 1538 م على يد **وليم يوستل**، وفي عام 1610م طبع **بيتر كريسين** (P. Kristen) ترجمة باللاتينية لمقدمة **ابن داود**، وهذه هي الترجمة الأولى لكتاب نحو عربي. كما أن **ريموند** (Jean Baptist Raymand) طبع في روما نص وترجمة كتاب (التصريف) لـ **النحوي البغدادي الزنجاني**، وكان **توماس إربنيوس** كتب باللاتينية قواعد العربية، ولأول مرة يكتب كتاب عن النحو العربي بيد وتصور أوروبيين حسب تعبير **فوك**[13]. وفي سنة 1613م نشر في باريس

جابريل سيونيتا (G.Sionita)، و**جان هسرونينا** (J. Hesronit) الجزء الأول من كتابهم (نحو اللغة العربية) ويقع في 48 صفحة[14]. وهكذا تتعدد الأعمال إلى أن يلقانا كلود **إتين سفاري** (E. Savary) الذي ألف مؤلفا وسمه بـ (نحو اللغة العربية العامية والفصحى) وذلك عام 1813م.

ولقد كانت المرحلة الجديدة في دراسة النحو العربي مع المستشرق الشهير **سلفستر دي ساسي** الذي نشر أكثر من مؤلف عن النحو العربي، والأدب العربي، وأهم كتبه (النحو العربي)، والملحوظ أن مناهج المستشرقين في بدايات اهتمامهم بالنحو العربي كانت متمايزة عن درس **دي ساسي**، ومستشرقي القرن التاسع عشر. وقد لمس هذا المستشرق جوانب من النحو العام (**Grammaire Générale**) في معالجته للنحو العربي متأثرا في ذلك بروح **بورويال** (Port-Royal)، كما كانت دراسته متأثرة بالدراسات النحوية القديمة.

وهكذا توالت الكتابة في النحو العربي حتى القرن التاسع عشر، فقد وجدنا في هذه المرحلة **إفالد** (Ewald)، و**نولد كه**، و**ركندروف**، و**وليام رايت** وغيرهم.

أما في القرن العشرين فالاهتمام يزيد زيادة كبيرة، والمناهج تتعدد، وتلاقينا أسماء أخرى منها: **بلاشير**، و**فيشر**، و**برجستراسر** وغيرهم. ولقد كان المستشرق الألماني **فيشر** من أكثر المستشرقين عناية بتقسيم العربية إلى مراحل زمنية، ومن أهم أبحاثه في هذا المجال (المراحل الزمنية للعربية الفصحى) الذي نشر في المجلة الثقافية، الجامعة الأردنية سنة 1987م بترجمة الدكتور **إسماعيل أحمد عمايرة**، وفي مؤلف فيشر (الأساس في فقه اللغة العربية) مباحث وموضوعات تتعلق بتاريخ اللغة العربية متتبعا خطوطها ومخطوطاتها وتطور لهجاتها[15]. وقد عقد مقارنة بين اللغة التقليدية – كما وصمها هو- واللغة المعاصرة في الأساليب. ويلقانا أيضا كتاب آخر للمستشرق **برجستراسر** بعنوان (التطور النحوي للغة العربية) وأصل هذا الكتاب محاضرات ألقاها هذا المستشرق في الجامعة المصرية عام 1929، وقد طرح المؤلف في بداءة كلامه مع طلابه فذكر قائلا:" أيها السادة... إن الغرض من محاضراتي التي سألقيها عليكم، هو درس اللسان العربي من الوجهة التاريخية، أي من جهة نشأته، وتكوّنه، وأصول حروفه، وأبنيته، وأشكال الجملة فيه، والتغيرات التي وقعت فيه مع توالي الأزمان"[16].

والغريب عند هؤلاء الباحثين حول تراثنا اللغوي بعامة، والنحوي بخاصة ما نراه جليا في مزاعم بعض الأوروبيين من غمط لحقوق غيرهم في أسبقيتهم للعلوم، وقد ادعوا في كثير من المواطن أنهم أهل الأمر أصالة، وأن العرب قد تطفّلوا على تراثهم فنقلوا واجتروا، وقد أضحى من مناهج هؤلاء المستشرقين، بل ومن سماتهم الراسخة عندهم أن أغلبهم على اختلاف تناولهم للمواضيع وتفرعهم في شتى العلوم ينتهون إلى أمور منها:

أ. أن العنصر العربي عنصر متخلف بفطرته، وطبيعته الجنسية والمناخية الأمر الذي عطّل فيه دواحي الإبداع والابتكار.

ب. إن دور العلماء المسلمين في كل أطوار التاريخ لم يتعد النقل عن الحضارات واللغات الأخرى نقلا حرفيا مجردا، وأحيانا نقلا محرفا دون ابتكار أو إضافة.

وهكذا لم يجد كثير منهم بدا من الزعم بأن الفقه العظيم مستمد من الفقه الروماني، وكأن العرب أيضا عند هؤلاء تلامذة الأغارقة في الجغرافيا، كما كانوا

في مجال الهندسة والبناء يعتمدون على حذاق الحرفيين من الإغريق، والسريان، والأرمن في تشييد المساجد[17].

أما فيما يخص النحو العربي ونشأته، فقد تباينت آراؤهم حول قضية أصالته، وقد تحامل بعضهم على الفكر اللغوي العربي تحاملا يفضي إلى خلع كل فضيلة عنا، وهو ما نفقهه من كلام الباحث اللغوي الشهير عبد الرحمن الحاج صالح إذ يقول:" والغريب المقلق أن هذه البحوث ألبست لباس البحث النزيه التي تنفي كل طرافة للمناهج العربية في النحو، وتنكر أن يكون النحاة العرب أخرجوا شيئا جديدا... وذهبوا يقارنون بين مصطلحاتهم وما تواضع عليه اليونان من قبلهم في علم النحو، ورأوا في تقسيم العرب للكلام تقسيما أرسطو طاليسيا محضا"[18]. كما نجد هذا الزعم في كثير من إصدارات دائرة المعارف الإسلامية[19]، ونومئ في هذا الموضع إلى أنه من أظهر الموضوعات التي تتعلق بتاريخ النحو قضية نشأة الدراسات اللغوية، فقد استوقفت كثيرا من المستشرقين، وأولاها هؤلاء عناية بالغة لكن هذا الصنف نظر إليها بشيء من الاستعلاء والفوقية.

ومن أجل ذلك سوف أبسط الفرضيات القائلة بتأثر النحو العربي بالمنطق اليوناني أو بأي جهة خارجية، وذلك بالدرس والتحليل، والمناقشة والنقد معتمدا على منهج البحث العلمي مع نشدان الحقيقة – ليس إلا– ولا يهمنا من أي وعاء صدرت.

اختلاف فرضيات المستشرقين حول أصالة النحو العربي:

لقد شرع موضوع أصالة النحو العربي يأخذ صورة سجال بين المستشرقين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، وكأن أشهر هؤلاء في هذا المضمار **أرنست رينان** (A.Rénan)، و**إجناس جولدزيهر** (I.Goldziher)، وكان الأبرز في هذه القضية **مركس** (A.Merx) مقتفيا أثر **جويدي** (I.Guidi) الذي نشر بحثا سنة 1877م باللغة الإيطالية زاعما فيه أن أصل النحو العربي مأخوذ من الفكر اليوناني[20].

وفي عرض هذه الآراء نألف الأستاذ **رينان،** وهو أول من مثّل الاتجاه النقدي التاريخي بين المستشرقين الفرنسيين – في مؤلفه (تاريخ عام ومنهج مقارن للغات السامية) – يتطرق إلى مسألة أصالة النحو العربي متسائلا ف: هل هناك تأثيرات أجنبية في نشأة النحو العربي، أو هل أخذه المسلمون عن السريان، وهل أبدع النحاة العرب عملهم اقتداء بالنحو اليوناني؟ وقد استبعد ذلك معللا بقوله: "إن الإجابة بالنفي، فلو أن النصارى السريان كانوا المؤسسين للنظام النحوي عند العرب لظل هذا باقيا ومذكورا في تاريخ العرب... كما أن إبداع النحو العربي كان من خلال كتاب كل المسلمين، وهو القرآن الكريم، فالنحو جاء لحفظ لغة القرآن الموضوع الأساس الذي طرح من خلال النحاة الأوائل"[21]. كما ارتأى أن تقسيم الكلام عند النحاة العرب إلى اسم وفعل وحرف أصيل، وذلك أن تأثرهم باليونانيين تجلى في العلوم الأخرى كالفلسفة والطب وغيرهما، وقد أكد هذا العالم ذلك من خلال المصطلحات المقترضة من اليونانية، ويخلص من ذلك أن لو كان العرب اقترضوا شيئا في النحو العربي لظهر في مسميات المصطلحات، فالذي في العلوم الأخرى غير موجود في النحو والبلاغة، فأسماء هذين العلمين، ومصطلحاتهما، وتقسيماتهما، ومحتوياتهما العامة عربية، أما العلوم الأخرى، فقد أخذها العرب عن علوم اليونان القديمة[22]. لكننا نجد المستشرق المجري **إجناس جولدزيهر** يخالف رؤية **رينان،** وينظر إلى القضية من

زاوية أخرى ليذهب إلى أن لا أحد يمكن أن يفترض أنهم أخذوا النحو مباشرة[23]. ولعله يشير هنا إلى السريان، ويصل هذا المستشرق إلى أن القضية ليست ما إذا كان النظام النحوي اقترض، ولكن المسألة هي كيف وصل العرب إلى المحتويات اللغوية الأساسية في تحليلات أقسام الجمل والكلام، وكذا تقعيد القواعد. كل ذلك في غياب أي تأثير أجنبي، ويستنتج من كل ذلك إلى أن العرب لا توجد أصالة في حياتهم ولا في عقليتهم[24]. كما نوّه هذا الباحث بكون العرب لم يطوّروا معظم محتويات النحو من خلال نبوغهم، وإنما كان ذلك من خلال السريان لأنهم عرفوهم، كما يذكر بأنه لو كان علم النحو عربيا مميزا كما يزعم **رينان** لوجدت بدايات العلم الأولى في المدينة، كما وجدت فيها مدرسة علم الحديث، وعلى أي شيء يدل أن هذا العلم تطور على شاطئ الفرات، وعلى أي شيء يدل أن معظم علمائه من جنسيات أجنبية وبخاصة الفرس[25].

وما هو قمين بالذكر أن أكثر المستشرقين شهرة بالفرضية اليونانية في القرن التاسع عشر هو المستشرق **مركس** حيث قرر أن العرب تأثروا في نحوهم باليونانيين من خلال السريان، وهو ما نقرأه من قوله:" فقد عرف النحاة السريان أفكار ث**راكس** وغيره من النحاة اليونانيين، وقد وصلت أفكار السريان إلى النحاة العرب، وللتأكيد على زعمه قرر وجود علاقة ما بين المصطلحات والمفاهيم النحوية العربية والفكر اليوناني"[26]. وقد أشار أيضا إلى سبب عدم ذ كر المؤرخين العرب لأي تأثير أجنبي، فلم يتكلموا فيه أبدا، وذلك أنهم جهلوا العمل الذي وضع النحو مع المنطق، وتطلب ذلك زمنا من المؤرخين العرب لمعرفة ذلك[27]. وقد أكد أيضا أن مفهومي الإعراب والصرف يرجعان إلى التراث اليوناني، وكذلك مفهوم الخبر، ومقولة الجنس، وفكرة الظرف أي ظرفا الزمان والمكان يربطها بهذا التراث أيضا، وكذا مقولة الحال، والتمييز بين الأزمنة الثلاثة عند النحاة العرب يربطها بالتراث اليوناني[28].

ولم ينته هذا الأمر إلى هذا الحد بل أطلت علينا هذه الفرضية اليونانية مرة أخرى في السبعينيات من القرن العشرين، وقد تبنى ذلك كل من **روندجرين** و**فرستيج** ومن بعدهما **رافي طلمون**.

وقد زعم **روندجرين** أن التأثير اليوناني في النحو العربي يؤول حتى إلى مرحلة ما قبل ترجمة العلوم اليونانية للعرب مشيرا إلى أن المعرفة بالمنطق اليوناني، والفلسفة اليونانية وصلت إلى العرب من خلال الترجمات الفارسية، التي صنعت في أكاديمية **جنديشابور**. وهذه الترجمات الفارسية، وبعض عناصر المنطق اليوناني أصبحت متاحة للعرب من خلال كتاب (المنطق) لـ **ابن المقفع**[29]. أما **كيس فرستيج** فقد تعددت أبحاثه منذ مؤلفه الأول سنة 1977م، وفيه ذهب إلى أنه لا يؤكد على أن الفكر اللغوي العربي كان نسخة من النحو اليوناني، ولكن يرى فعلا أن الدرس النحوي اليوناني كان النموذج ونقطة الانطلاق للنحو العربي[30]. وفي مقاربته المعنونة بـ:" التربية الهيلينية وأصل النحو العربي"، يرتأي أن النحاة العرب كانوا على الأقل متآلفين مع عناصر من الفكر النحوي اليوناني، كما يزعم **فرستيج** أن كتاب **ثراكس** (فن النحو) ترجمته للسريانية أصبحت معروفة؛ لأن التأثير اليوناني في النحو السرياني واضح، ومنه إلى النحو العربي، ولدعم نظرته هذه يورد أن وجود الفكر اليوناني جاء من خلال المراكز العلمية التي كانت بها الثقافة والتعاليم اليونانية في الحيرة وحاران، ونصبين، وغيرها من المراكز التي نشرت الثقافة الهيلينية، وهذه الأماكن ليست بعيدة عن العرب فقد انتشرت فيها

الثقافة الهيلينية ليؤكد على وصول الفكر اليوناني إلى النحاة الأوائل، وليؤكد **فرستيج** أيضا بكل ذلك على التشابه بين أمثلة **سيبويه** في تقسيم الكلام والتراث الهيليني[31]. ويركز هذا المستشرق على فرضيته من خلال بحثه المعنون بـ "أصل مصطلح القياس قي النحو العربي"، وفيه يقرر أن كثيرا من عناصر الثقافة الهيلينية أصبحت موجودة في العالم العربي من خلال دراسة الفقه، وقد لوحظ أن علم الفقه كان غير خال من التأثير الهيليني، ويضيف حسب زعمه ليصل إلى أن تعاليم المدرسة الهيلينية كانت عاملا أساسيا في أصل الثقافة الإسلامية ككل[32].

وكان المستشرق **رافي** بدوره متمسكا بموضوع التأثير اليوناني على النحو العربي، فكان يحاول إيجاد الأدلة لذلك، ففي بحث له سنة 1990م يخلص إلى أن دراسته لكتاب (معاني القرآن) لـ **الفراء** فتحت له أبوابا جديدة للبحث في التأثير الضخم للدراسات المنطقية في عالم بارز من علماء الفترة المبكرة للنحو العربي ألا وهو **الفراء**، وفي مقاربته هذه يقرر أن **الفراء** يختلف في نظريته عن **سيبويه**، ومرجعه أن **الفراء** لديه تأثير يوناني ضخم، أما **سيبويه** فلم تفلح محاولات الباحثين في ربط فكره النحوي بالتأثير الهيليني[33]. ويعتقد **رافي طلمون** في ضوء بحثه أنه يجوز مثلا أن هؤلاء النحاة ا لقدماء كانوا على معرفة ببعض المبادئ الفلسفية بل ببعض فصول مصنفاته الرئيسة إلا أنهم تغافلوا عنها رغبة منهم في إنشاء علم إسلامي أصيل[34]. وهكذا يتضح لنا من خلال متجه هؤلاء المستشرقين ذيوع الفرضية اليونانية وأثر ذلك على النحو العربي حيث سادت ردحا من الزمن.

نقد نظرة المستشرقين القائلين بأثر اليونان على النحو العربي:

إن المتأمل في الزعم المتمثل في أن أصالة النحو العربي، وبداية نشأته تأثرت بفكر يوناني عن طريق ترجمة الكتب اليونانية إلى العربية يألفها محفوفة بالشك والارتياب، وإن محاولة هؤلاء أن يصلوا بين نشوء النحو في البصرة، والنحو السرياني أو الهندي لا يمكن إثباته إثباتا علميا، وبخاصة إذا علمنا أن النحو العربي يقوم على نظرية العامل، وهي لا توجد في أي نحو من الأنحاء الأجنبية على حد تعبير الدكتور **شوقي ضيف** في كتابه (المدارس النحوية)[35]، كما ذ هب الدكتور **تمام حسان** في مؤلفه (الأصول) إلى أن الثقافة الغربية مرّت بطورين: الطور الأول ما قبل الترجمة حيث كان النحو أصيلا لم يتأثر البتة بالفلسفة اليونانية أو المنطق اليوناني، أما الطور الثاني فهو عصر **المأمون** حيث تسربت الثقافة اليونانية إلى العرب، وذلك بدءا بـ **الفراء** المتوفى سنة 207هـ، وانتهاء بـ **أبي علي الفارسي** و**ابن جني** في نهاية القرن الرابع[36]. وقد ندعم ما ارتآه هذا الباحث الأخير بكون انتشار عملية وضع القواعد النحوية في البد ء كانت بأيدي أوائل القرّاء، وهم في الغالب من تلاميذ **أبي الأسود الدؤلي**، و**نصر بن عامر** و**عبد الرحمن بن هرمز**، و**يحيى بن يعمر** و**عنبسة الفيل**، و**ميمون الأقرن**، وأما تلاميذ هؤلاء الذين قاموا بتطويرها فهم **عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي**، و**عيسى بن عمر الثقفي**، و**أبو عمرو بن العلاء**، و**يونس بن حبيب**، و**الخليل بن أحمد الفراهيدي** و**سيبويه**، وكان أكثرهم من البصريين الذين سبقوا إلى وضع النحو، ولعل عبقرية **سيبويه** ووضعه لمؤلفه (الكتاب) هو الذي أغرى هؤلاء المستشرقين مما حدا بهم الأمر إلى الطعن في أصالة النحو العربي، وذلك ما نص عليه الدكتور **عبد العال سالم مكرم** فذ كر: "ومع أن المستشرقين قد جبلوا على التعمق في البحوث

العربية، وأنهم يحاولون أن يستنبطوا من النصوص العربية حقائق جديدة، وأفكارا متطورة، ومادة حية، فإنهم وقفوا في حيرة وتعجب إزاء هذه المرحلة، وقد كان منشأ هذه الحيرة، وهذا التعجب هو كتاب **سيبويه**، إذ كيف يولد كتاب **سيبويه** عملاقا من دون أن يسبق بمراحل نمو وتطور تؤدي إلى ولادته ولادة طبيعية"[37].

وهذا الدكتور **إبراهيم السامرائي** يرد على المستشرق **فيشر** أنه فات هذا الأخير أن اليونانية تختلف نحوا وطبيعة عن العربية، ولم يكن واضع النحو صارفا أو متأثرا باليونانية بأي وجه من الوجوه[38]، وقد اعتقد المحدثون أيضا أن هناك جوانب معيّنة تصل النحو العربي بمنطق **أرسطو**، وهي فكرة القياس والتعليل، واستخدام المقولات وغير ذلك، وقد رد الدكتور **عبده الراجحي** هذا الرأي بتبيان العناصر المحددة التي تختص بالدرس النحوي اختصاصا مباشرا، وذلك أن التعريف عند أرسطو يختلف عن التعريف عند النحاة العرب[39].

وإذا كان هؤلاء الباحث ين وغيرهم من العرب قد نقضوا هذا الزعم فإننا نجد أيضا ثلة من المستشرقين يعترضون أيضا على من ادعى هذا التأثر الكلي بالحضارة اليونانية في المجال النحوي، ولذا فقد كانت الكتابات الاستشراقية بأقلام مختلفة ثقافيا، وبالتالي نلمح أن هناك تطورا واضحا قد حدث لكثير من المستشرقين المنصفين الذين تناولوا التراث النحوي العربي بالدرس والتمحيص والتدقيق، وقد ردوا فيها حتى على بعض العرب الذين قالوا بالتأثر ومن أبرز هؤلاء المستشرقين **ليتمان** الذي قال:" ونحن نذهب في هذه المسألة مذهبا وسطا، وهو أن العرب ابتدعوا علم النحو في الابتداء، وأنه لا يوجد في كتاب **سيبويه** إلا ما اخترعه هو، والذين تقدموه، ولكن لما تعلم العرب الفلسفة اليونانية من السريان في بلاد العراق تعلموا أيضا شيئا من النحو، وبرهان هذا أن تقسيم الكلمة يختلف، قال **سيبويه**:" فالكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، وهذا تقسيم أصلي"[40]، كما رفض المستشرق **تربو** هذا الزعم القائل بأن تقسيم الكلام عند النحاة العرب متأثر بتراث **أرسطو**، فالعرب عندهم ثلاثة أقسام، أما **أرسطو** فنجد في كتابه (الشعر) سبعة أقسام[41]. وما يؤكد ذلك أنه لا يوجد تأثير من قبل ترجمة السرياني **متى بن يونس** لكتب **أرسطو** في مصطلحات النحاة العرب، فعنده الفعل يستخدم له مصطلح كلمة، ويستخدم مصطلح رابطة مقابل حرف، كما أن مفاهيم الفعل في التراث اليوناني غير متكافئة مع مفاهيم النحاة العرب، وينتهي **تربو** إلى القول بأن النحو العربي منذ بدايته كان مرتبطا بالحديث والفقه[42]. وهذه الرؤية تقترب من فهم السياق الثقافي الإسلامي آنئذ، وهذا المستشرق **لوثر كوبف** أكثر تبيانا لهذه المسألة حيث يشير إلى أن الدين كان عاملا مهما في التأثير المباشر وغير المباشر في العرب، فالقرآن الكريم والحديث الشريف كما يذكر **كوبف** هما مصدرا النحو والمعجم [دون أن ننس الأدب بشعره خاصة ونثره]، وأن اللغويين العرب تباهوا بخدمتهم في نشاط العلوم الإسلامية، ومن هنا فالتأثير الديني في الفكر اللغوي كان مؤسسا بعمق في تفكير المسلمين، وقد ذكر هذا الباحث عددا من مواضع التأثير في المنهج والرؤى[43]. وهذه المسألة أي أسباب نشأة النحو العربي قد فصل فيها علماء المسلمين في القديم والحديث، فهي لا تحتاج إلى أدنى تعليق أو إيضاح، إذ أرجعوا ذلك إلى سبب ديني وقومي وسياسي. ولعل دراسات **فرستيج** الذي تبنى فكرة تأثير اليونان في العرب للتفاسير القرآنية الأولى جعلته يقرر أن وجهات نظره تحولت بشكل ملحوظ، فقد أقنعته دراسته للتفاسير القرآنية المبكرة أن كثيرا مما

اعتقد أنه اقتراض من التراث اليوناني كان في حقيقته تطورا داخليا للفكر العربي[44]. كما ارتأى في بحثه المعنون بـ"النحو العربي وتفاسير القرآن في بداية الإسلام" أن مسألة التأثير من خلال المصطلحات مسلم بعدم فاعليتها من خلال المعطيات المأخوذة من كتب المفسرين الأوائل، وذهب هذا المستشرق أيضا إلى أن الربط بين مصطلحات النهايات الإعرابية، وأقرانها في الدرس اليوناني أصبح إسهابا، لأن المصطلح العربي حسب نظرته فُسّر بسهولة من خلال التطور الدلالي الداخلي في الثقافة العربية، ومن هنا حسب هذه النظرة تكون الفرضية اليونانية متخلى عنها كلية، أو قد تكون مساعدة في تفسير بعض الغموض المحيط بأصل النحو العربي[45].

وهذا **أرنست رينان** الذي أشرنا إليه أعلاه يؤكد أصالة النحو العربي، فمن ناحية تقسيم الكلام عند النحاة العرب إلى اسم وفعل وحرف فهو أصيل، وذلك أن العرب في العلوم الأخرى كالفلسفة والطب، وغيرهما كان علماؤهم متأثرين باليونانيين، وينوه هذا المستشرق على ذلك من خلال المصطلحات، والذي يوجد فيها عدد مقترض من اليونانية، ويصل من خلال ذلك إلى أنه لو كان العرب اقترضوا شيئا في النحو العربي لظهر في مسميات المصطلحات، فالذي في العلوم الأخرى غير موجود في النحو والبلاغة، فأسماه هذين العلمين، ومصطلحاتهما وتقسيماتهما ومحتوياتهما العامة عربية، أما العلوم الأخرى فالعرب عرفوها عن علوم اليونان القديمة[46].

وفي النصف الثاني من القرن العشرين خصص المستشرق الشهير **كارتر** بحثا معمقا درس من خلال جذور النحو العربي مشاطرا رأي **رينان** في نفي فرضية التأثر بالفكر اليوناني، ويعتقد هذا المستشرق أن المرحلة الأولى من تاريخ النحو العربي كانت بدائية وعقيمة، وأن **سيبويه** في كتابه (الكتاب) لم يعتمد على تعاليم سابقيه عليه في دراسة النحو العربي، وأن كتابه هو العمل النحوي الأول من نوعه، كما أن **سيبويه** في زعمه دمج مراحل النحو العربي[47]. كما يشير الأستاذ إلى أنه لا يوجد في كتاب **سيبويه** مصطلح دال على مفهوم "نحو" بالمفهوم التقني، غير أن هناك مصطلحات دالة على الطريقة التي يتكلم بها الناس، وهي استخدامات لدى الدارسين للفكر الإسلامي ومنها كلمة "طريقة" التي تدل على الطريقة الصوفية و"سنة"، وهي مصطلح تقني للدلالة على السنة الإسلامية، وكذلك مصطلح "مذهب" الدال على طريقة التفكير، وكذا "وجه" بمعنى الطريقة المميزة، وكذلك "مجرى" ومشتقاتها العديدة، ولكن أكثر المصطلحات استعمالا في الكتاب – حسب نظرة **كارتر**– للدلالة على طريقة الكلام هو "نحو"، وأنه حرفيا بمعنى طريقة، اتجاه، نمط[48]. كما لم يرق مصطلح نحويين – حسب رأيه– عند **سيبويه**– ولا عند سابقيه من النحاة إلى المعنى التقني، وأن هذا المعنى اكتسب فيما بعد صاحب الكتاب، وذلك بعد الاحتكاك مع مصادر الفكر اليوناني، وهكذا يتضح لنا جليا أن هذا المستشرق قد اتخذ من دلالات مصطلحي نحو ونحويين عند **سيبويه** وسابقيه بيانا على فرضيته القائلة بعدم تأثر النحو العربي بالفكر اليوناني في مرحلة البدء.

ومن أجل دحض التأثير اليوناني يؤكد الأستاذ **كارتر** على العلاقة بين النحو والفقه، حيث نجد أن **سيبويه** قد استعمل مصطلحات أخلاقية مثل: حسن وقبيح ومستقيم ومحال، وكان صاحب (الكتاب) – حسب المستشرق– قد استخدم هذه المصطلحات بعد أن منحها المعنى النحوي التقني، وأن مصطلح "جائز"

أعطى مظهرا فقهيا في (الكتاب) وعند كل النحاة العرب اللاحقين[49]. كما يومئ إلى أن مصطلحات نحوية مهمة مثل: بدل وعوض، وشرط ولغو، وخيار وحد، وحجة وأصل، ودليل ونية، ومصطلحات أخرى بدون ريب لا يمكن أن تكون مفهومة إلا في ضوء استعمالها في السياقات الفقهية[50]. وقد بحث هذا العالم العلاقة بين الفقه والنحو في أكثر من بحث، ويخلص إلى أن هناك علاقة قوية خاصة بين النحو العربي والفقه في كل من الهدف والمنهج، فكل منهما وسيلة للتحكم الاجتماعي، كما أن هناك علاقات متبادلة بين الأسس اللغوية للفقه، والطبيعة الفقهية للأفكار النحوية[51]. وإن كان النحو متأثرا بالفقه، فالفقه بدوره متأثر بالنحو، وقد ذهب في هذا السياق الدكتور **أحمد الجندي** قائلا: "معظم أبواب أصول الفقه ومسائله مبني على علم الإعراب، وأنه إذا عجز الفقيه عن تعليل الحكم قال هذا تعبدي، وإذا عجز النحوي عنه قال هذا مسموع، وأن أصول النحو هي أدلة النحو التي تفرعت منها فروعه وأصوله، كما أن أصول الفقه أدلة الفقه التي تنوعت عنها جملته وتفصيله"[52]، وراح أحد الباحثين إلى أن "مسيرة النحو خلال تطور الفقه الإسلامي من بداياته الأولى على يد الصحابة والتابعين إلى أن صار صناعة لها منهجها ومنطقها الواضح الذي هو أصول الفقه، وجدنا النحو عنصرا أصيلا من عناصر هذا المنهج وإن اختلف قوة وضعفا"[53].

وإذا كان الأمر كذلك فهذا يدفعنا إلى بحث أصول النحو العربي في مصطلحات ومناهج الفقهاء المسلمين، وهو ما خلص إليه المستشرق **كارتر**، فقد ألفى مصطلحات أخلاقية وفقهية كثيرة في كتاب إمام النحاة **سيبويه**، ويعد ذلك دليلا جليا على تأثير الفقه في النحو وهو الأجدر بالرجحان عند توافر الأدلة.

ولعلنا نخلص بعد هذه المقاربة النقدية لموقف بعض المستشرقين إزاء النحو العربي إلى جملة من النقاط التي نراها صائبة وصحيحة ألا وهي:

1. إن نظرة هؤلاء إلى تأثر النحو العربي بالتراث اللغوي اليوناني يقوم على التعصب الأوروبي الذي يبين من خلال ذلك أن الهدف هو كون اليونان مصدرا لكل الإبداعات العلمية في القرون الوسطى معتمدين في ذلك على الترجمات التي ترجمت من بداية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وهم بذلك يهمشون مساهمة الحضارة العربية الإسلامية في بناء صرح الحضارة الإنسانية، وهو موقف لا يمت بأدنى قربى إلى الموضوعية أو الأمانة العلمية.
2. إن عدم وجود التأثير الأجنبي في النحو العربي يدل عليه عدم وجود أي ذكر أو قل الغياب الكامل لأي ذكر للتأثير الأجنبي عند مؤرخي النحو العربي وهو ما ارتآه المستشرق **كارتر**، حيث يذكر أيضا أن **ابن النديم** صاحب كتاب (الفهرست) لم يشر إلى أية علاقة بين النحو اليوناني والنحو العربي[54]. كما أن المصادر العربية لم ت ذكر أي تأثير أجنبي في النحو العربي، وهل رفض العرب فعلا هذا الذكر رغبة منهم في إنشاء علم إسلامي أو عربي؟ وإذا كان هذا الاحتمال صحيحا، فلماذا ذكر العرب في بعض العلوم الأخرى التأثير اليوناني، وهو واضح في مصطلحاتها، وإن تشكيك هؤلاء المستشرقين في المصادر العربية لكونها أهملت ذكر التأثير الأجنبي لهو موقف ينأى عن موقف العالم المتمسك بمنهجية البحث العلمي الأكاديمي.
3. عدم اعتماد النحو العربي على الفكر اليوناني في تقسيم الكلام، ذلك أن هذا الفكر أي اليوناني عرف ثمانية أقسام من الكلام، أما النحو العربي

فيعتمد على ثلاثة: اسم وفعل وحرف، فهناك إذن تمايز جوهري ونوعي بين النحوين العربي واليوناني، كما أن التقسيم الأرسطي جاء على مستوى الجملة محاذيا لـ **أفلاطون** مع تفصيلات، أما التقسيم العربي فهو على مستوى الكلمة مع التنويع في أقسامها عند إمام النحاة **سيبويه**.

4. الملحوظ أن كلام **سيبويه** كلام وصفي أكثر منه تعريف، فهو إذن لم يطبق التعريف الأرسطي، كما أن الكتاب غالبا ما يخلو من التعريف، فهو لم يعرف الحال أو البدل، أو الفاعل، كما أن طريقته تبدأ بذكر اسم الباب، ثم يشرع مباشرة في عرض القاعدة المستخلصة من الاستعمال، فإذا انتقلنا إلى القرن الرابع الهجري وجدنا اختلافا كبيرا، إذ نلمس تأثر النحاة بالمنطق الأرسطي، وبمنهجه في التعريف[55]. وهو ما نراه جليا من تعريف **الزجاجي** للنحو الذي يعد نموذجا للتأثير اليوناني، يقول:" علم قياسي ومسبار لأكثر العلوم لا يقبل إلا ببراهين وحجج"[56]. ولذا نؤكد أن التأثير اليوناني لم يكن إلا في القرن الثالث الهجري، وقد بدأ هذا التأثير بفعل ميزتين هما: **أ-** ذكر النحاة العرب أن التقسيم الثلاثي في كل اللغات، فقد ذكر **الزجاجي** في هذا السياق:" وأما الاحتجاج للأولين الذين زعموا أن الكلام كله اسم وفعل وحرف، فجعلوا العربي وغيره في ذلك سواء، فهو بعينه الاحتجاج الذي تقدم ذكره لمذهب **سيبويه**... وقد اعتبرنا ذلك في عدة لغات عرفناها سوى العربية، فوجدناه كذلك، لا ينفك كلامهم كله من اسم وفعل وحرف، ولا يكاد يوجد فيه معن رابع ولا أكثر منه"[57].

ب- وجود تعريفات لكل أقسام الكلام، وهذا يتضح جيدا من كتب النحو العربي في القرن الثالث الهجري وما بعده.

وفي الختام نستطيع أن نقول بعد المعالجة والدرس والتحليل والتمحيص، إن الملابسات كانت غير مهيأة في البحث في قضية أصالة النحو العربي في القرن التاسع عشر في أوروبا بفكر محايد، وبعقل نزيه، وذلك أن الفرضية اليونانية بنيت بجهل إذا طبقت على أوائل النحاة حتى إمامهم في كتابه (الكتاب). ولعلنا نتساءل: هل بالفعل أصل كل تحليل لغوي الفلسفة والمنطق؟، فقد كان اهتمام العرب بالمجال اللغوي في بدايته من أجل خدمة النص القرآني، وخدمة هذه اللغة التي تنزّل بها، أو بعبارة أخرى فقد وُجد ذلك في سياق ثقافي مغاير تماما عن التحليل النحوي عند اليونان وعند الهنود، وكذلك وُجد عند الصينيين لمقاصد أخرى ناجمة عن ظروفهم الثقافية، وهذه النظرة الموضوعية لا تنفي أبدا قضية التأثير فيما بعد، وذلك لأن الحضارات دول ومتداولة، وكل الأفكار العلمية تبدأ بسيطة في حضارة ما، ثم تنطلق في حضارة أخرى بشكل آخر. ولذا نستطيع أن نقول: إن ليس من الموضوعية العلمية أن يذهب أحد المستشرقين مثل **رافي طلمون** إلى القول: "إني مقتنع مما مثلناه هنا بأن النحو العربي في عهد نشأته لم يجهل تراث الفلسفة اليونانية بل إنه استرشد به إلى حد ما وخاصة في مجال الاصطلاح... ويبدو الآن أن قلة التأثر بهذا التراث إنما هي نتيجة مجهود النحويين القدماء الواعي الصارم في خلق علمي يتصف ويتسم بعلامات النحو الوطني العربي"[58]. وهل بالفعل كانت هذه الأيديولوجية موجودة عند **سيبويه والخليل، والحضرمي والفراء**، وغيرهم من الأجيال المتتابعة التي شاركت في بناء هذا الصرح الكبير الذي صنعه العرب

من نشأته إلى كتابي **سيبويه والفراء** في سنين كثيرة؟ هل هؤلاء كلهم بهذه الأيديولوجية؟ وهل كانوا كلهم عربا، فالنحاة كانوا ينتمون إلى أوطان شتى، وأعراق متباينة وهذا ما نسيه **طلمون؟**[59]. كما أقنعت المستشرق **فرستيج** دراسته للتفاسير القرآنية المبكرة أن كثيرا مما اعتقده اقتراضا من التراث اليوناني كان في الواقع تطورا داخل الحضارة العربية. وأشير في هذا الصدد إلى أن هناك كتابات كثيرة تقرر تأثير مدرسة لغوية في أخرى، وعالم في عالم، وعالم في مدرسة، وذلك نحو تأثير مدرسة براغ في اللغويين الأمريكيين، وتأثير **دوركايم** في **دوسوسير**، وتأثير **ياكوبسون** في اللغويين الأمريكيين، وكذا تأثير البورويال في اللغوي **تشومسكي**، وتتنوع الكتابات في هذا المضمار مما يتسنى لنا تناول البحث في موضوع التأثير في تراثنا بشيء مختلف عن تلكم النظرة المتعصبة لدى ذلك الصنف من المستشرقين. ويعود موقفهم هذا من كل تلك الاحتمالات أنها تحاول أن تفسر مجمل التراث النحوي بعامل واحد فقط، وينتهون إلى أنه بصرف النظر عن النموذج الذي احتذاه – إذا كان حقا موجودا هذا النموذج– فإن النحو العربي قد تطور إلى تعاليم مختلفة وأصيلة تماما. ونقول عندما تنقشع الحقيقة العلمية تفرض علينا الحذر في الخوض في الكلام عن التأثير والتأثر في العلوم من حضارة إلى أخرى دون بينة، وذلك لأن هناك تشابهات كثيرة بين كثير من النقاط العلمية المشتركة بين علم في حضارة ما، وآخر في حضارة أخرى، ولا يكون التشابه دليلا أو مؤكدا لتأثير أحدهما في الآخر، فقد يوجد والحال هذه– ما يدعى توارد الأفكار أو الخواطر ليس إلا.

الهوامش:

(1) – د/محمود حمدي زقزوق: الإسلام والاستشراق، دار التضامن للطباعة، الطبعة الأولى، القاهرة، (1404هـ/1984م)، ص3.

(2) – إدوارد سعيد: الاستشراق، تر جمة: د/محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة، 2006م، ص39.

(3) – د/فرانسيسكو غابرييلي وآخرون: الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، ترجمة وإعداد: هاشم صالح، دار الساقي، ط/3، بيروت، لبنان، 2016م، ص:21-22.

(4) – هاشم صالح: الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، ص8.

(5) – ينظر: محمود شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص48.

(6) – مراد باهي: فكرة تيسير النحو عند المستشرقين مذكرة ماجستير، جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس، قسم اللغة العربية وآدابها، السنة الجامعية (1436هـ-1437هـ/2015م-2016م)، ص14 عن حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص18.

(7) – ينظر: د/محمود حمدي زقزوق: الإسلام والاستشراق، ص:3-4.

(8) – د/عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن، دار النهضة، ط/5، مصر، أبريل 2015، ص:8-9.

(9) – ينظر: د/ عبد المنعم السيد أحمد جدامي: المستشرقون والتراث النحوي العربي، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط/1، (1437هـ/2016م)، ص9.

(10) – ينظر:

Youssi, A., 2004: is there an orientalist linguistic? In haak, M. et AL (eds): approaches to arabic dialects, Birll: lindex, boston, P329.

(11)- Versteegh, K., 2001, Greek elements in arabic linguistics thinking, leiden, P335

(12) – ينظر: يوهان فك: تاريخ حركة الاستشراق، الدراسات العربية الإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين، ترجمة: د/عمر لطفي العلم، دار قتيبة، دمشق، 1996م، ص11.

(13) – ينظر: المصدر السابق، ص69، وتوماس إربينيوس (1584/ 1623): هولندي نشر في 1617 كتابا عن الأجرومية النحوية، وكتاب العوامل المائة للجرجاني، ويسير يوهان فك إلى أن الاهتمام الذي دفع إربينيوس نحو المصادر الإسلامية كان ذا طبيعة لغوية على الراجح..

(14) – ينظر: عبد المنعم جدامي: المستشرقون والتراث النحوي، ص18

(15) – ينظر: فيشر فولف ديتريش: الأساس في فقه اللغة العربية، نقله إلى العربية وعلق عليه: د/سعيد حسن البحيري، مؤسسة المختار، الطبعة الأولى، القاهرة، 2002، ص51.

(16) – المصدر نفسه، ص7.

(17) – ينظر: مراد باهي: فكرة تيسير النحو عند المستشرقين، ص67

(18) – الحاج صالح عبد الرحمن: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، موفم الجزائر، 2007م، ج1، ص:42-43

(19) – ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الفرنسية، ج1، ص435.

(20)– ينظر: د/المهيري عبد القادر: نظرات في التراث اللغوي العربي، دار الغرب الإسلامي، ط/1، تونس، 1993م، ص85.

(21)– Renan E., histoire générale et système comparé des langues sémitiques, première partie, 6ème édition, Paris, 1863, PP377-378

(22)– Ibid, P378.

(23)– Goldziche, on the history of grammar among the arabs, translated and edited by devenyi, K. et Ivanyi T, Benjamins, Amsterdam, Philadelphia, 1877, 1994, P5.

(24)– Ibid, P5.

(25)– Ibid, P9.

(26) – د/عبد المنعم جدامي: المستشرقين والتراث النحوي العربي، ص27

(27)– ينظر: Merx A., l'origine de la grammaire arabe, Ble 3(2) , 1891, P16.

(28)– Ibid, P19-27.

(29) – ينظر: د/عبد المنعم جدامي: المستشرقون والتراث النحوي العربي، ص27

(30) – ينظر: K. Versteegh: Greek element in arabic linguistic thinking, leiden 1993, P16

(31)– K. Versteegh : 1980a, PP336-339..

(32)– Ibid, 1980b, PP13-14

(33) – ينظر: د/عبد المنعم جدامي: المستشرقون والتراث النحوي العربي، ص33.

(34) – ينظر: رافي طلمون: التفكير النحوي قبل كتاب سيبويه، دراسة في تاريخ المصطلح النحوي العربي، نشر بمجلة الكرمل، العدد 5، 1984، ص:37-53

(35) – ينظر: د/شوقي ضيف: المدارس النحوية، دار المعارف، الطبعة الحادية عشر، ص20.

(36) – ينظر: د/تمام حسان: الأصول دراسة ايبستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، (1401هـ/1981م)، ص:55-56.

(37) – مراد باهي: فكرة تيسير النحو عند المستشرقين، ص71، عن د/عبد العال سالم مكرم، الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي، ص6.

(38) – ينظر: د/إبراهيم السامرائي، دراسات في اللغة، مطبعة العاني، بغداد، 1961، ص13.

(39) – د/عبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث، دار النهضة العربية بيروت، 1979، ص88

(40) – أحمد أمين: ضحى الإسلام، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1969، ج3، ص293.

(41) – ينظر: د/عبد المنعم جدامي: المستشرقون والتراث النحوي العربي، ص35.

(42) – ينظر: تربو جيرار: نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه، بحث منشور بمجلة مجمع اللغة العربية الأردني، المجلد الأول، العدد الأول، 1978، ص137.

(43)– ينظر: د/أحمد عبد المنعم جدامي: المستشرقون والتراث النحوي العربي، ص37.

(44)– K. Verstreegh: the notion of underlying levels' in the arabic grammatical tradition, HL 21 (3), PXII.

(45)– K. Verstreegh: Arabic grammar and qur anic exergesis in early islam leiden, 1993, P200.

(46)– Renan E., histoire générale et système comparé des langues sémitiques, première partie, 6ème édition, Paris, 1961, P379.

(47)– M.G.Carter: les origines de la grammaire arabe, Rei 40, 1972, P95.

(48)– ينظر: د/عبد المنعم جدامي: المستشرقون والتراث النحوي العربي، ص41

(49)– M.G. Carter, 1972, PP83-84.

(50)– Ibid, P80.

(51) – ينظر: M.G. Carter: writing the history of arabic grammar, In H.L 21(3) ., 1994, P409

(52) – د/أحمد علم الدين الجندي: في الأصول والفروع بين الدراسات الفقهية والنحوية في القرآن والعربية: الصراع بين القراء والنحاة، بحث منشور في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الجزء 59، ص91.

(53) – د/مصطفى جمال الدين: البحث النحوي عند الأصوليين، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ص38.

(54) – ينظر: M.G. Carter: les origines de la grammaire arabe, Rei 40, 1972, P72.

(55) – ينظر: د/عبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص:72-73

(56) – الزجاجي أبو القاسم عبد الرحمن: الإيضاح في علل النحو، تحقيق: د/مازن المبارك، دمشق، 1974، ص41..

(57) – المصدر نفسه، ص:44-45

(58) – رافي طلمون: التفكير النحوي قبل كتاب سيبويه، دراسة في تاريخ المصطلح النحوي العربي، نشر بمجلة الكرمل، العدد 5، ص53..

(59) – ينظر: د/إسماعيل عمايرة: المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية عند العرب، دار الملاحي، بغداد، ط/1، ص89.

اللّسانيات العرفنيّة نحو منهج جديد لمقاربة النصّ الأدبي

–تجربة الأزهر زنّاد أنموذجا –

أ: نجاة بوقزولة

جامعة امحمّد بوقرة بودواو –بومرداس

ما النّصوص إلّا فهوم للكون البليغ عبر سلالم اللّغة المتقابلة ثمّ استوت في كينونية الفهّام وخرائط الأرواح

محمد بازي

ملخص البحث:

يشتغل هذا البحث في الأنساق الثقافية المستمدّة من المجال المعرفي للآخر، بناء على مبدأ الأخذ والعطاء أو التأثير والتّأثّر الذي يسم المعرفة البشرية إجمالا، ويختصّ البحث بآخر المحطات التي وصل إليها الدّرس اللّساني والنّقدي الغربي من مناويل ونظريات عرفنية للنّظر في كيفية حصول النّقل والتّأثر، والوظيفة الجديدة التي حملتها هذه الأدوات الإجرائية، وكيف خدمت المجال الجديد الذي نقلت إليه. لتضيق الدّائرة قليلا بما يقتضيه المقام، ونقصر الدّراسة على تجربة الباحث التّونسي الأزهر زنّاد من خلال كتابه نظريات لسانية عرفنية مسلّطين الضّوء على جانب من جوانب هذه المناويل.

سيجد القارئ بيانا للخلفيات المعرفية لهذه المناويل ونشأتها والمجال الذي تشتغل عليه، كما سيركّز البحث على منوال الأفضية الذّهنية كواحد من أهم هذه المناويل العرفنية كما قعّد له فوكونياي واستلهمه زنّاد، سعيا لتجريب طرق جديدة في مقاربة بعض النّصوص من الأدب العربي القديم والحديث، واستثمار مفاهيم عرفنيّة جديدة في ذلك من مثل المجالات الذّهنية والخطاطات والأطر والأفضية .... إلخ من ثمّ سنحاول الإجابة عن بعض الأسئلة التي قد تخطر للقارئ /الباحث في مجال المناويل المستعارة من الآخر.

ماهي العلوم المعرفية وما مجالاتها؟ إلى أيّ مدى استطاع الباحث أن يقارب هذه النظرية الغربية. وهل كان النّقل جزئيا عشوائيا غير واع بالخلفيات الفكرية التي أنتجتها؟ أم شاملا ممنهجا واضح الأهداف والمساعي؟ وهل ألمّ الباحث العربي بهذه المناويل في بعدها النظري والإجرائي؟ كيف يمكن أن يفيد الدّرس النّقدي العربي من نظرية الأفضية الذهنية بالذات في مقاربة النّصوص الأدبية؟

الكلمات المفتاحية: المناويل – العرفنيّة – الأفضية الذّهنية –النصّ.

abstract

This research deals with the cultural patterns derived from the cognitive field of the other, based on the principle of giving, giving or influencing, which defines human knowledge in general. The research deals with the latest stations in which the Western linguistic and monetary lesson came from theories

and theories to consider how to transfer and affect, which was carried out by these procedural tools, and how it served the new field to which it was transferred. To narrow the circle a bit as required by the title, and to narrow the study on the experience of the Tunisian researcher Al-Azhar Znad through his book theories of the cognitive linguistic on the side of This theory

1/العلوم العرفنية ماهيتها ومجالاتها:

تعدّ العرفنيات أو العلوم المعرفية حقلا واسعا يرتبط باختصاصات عديدة، كعلم النّفس المعرفي وعلم الذّكاء الاصطناعي واللّسانيات وتحليل الخطاب فضلا عن الفلسفة والتّصوّف، ومدار هذا الحقل "تقصّي العمليات الذّهنية المتوخاة في التّفكير والإدراك والتّعرّف والتّذكّر والتّصنيف" [1].

ويعرّف أندلر(1989م) العلوم المعرفية بقوله: "إنّ هذه العلوم ترمي إلى وصف استعدادات الذّهن البشري وقدراته كاللّغة والإدراك والتنسيق الحركي والتّخطيط ...وتفسيرها ومحاكاتها عند الاقتضاء"[2] ويحدّد لايكوف مجال العلوم العرفنية بقوله "علم العرفنة cognitive sience حقل جديد ينشد أجوبة مفصّلة عن أسئلة من قبيل ما هو العقل؟ وكيف نعطي لتجربتنا معنى؟ ما هو النّظام المفهومي * وهل يستعمل جميع البشر النّظام المفهومي نفسه.... ما هو الشّيء المشترك بين جميع البشر فيما به يفكّرون؟ فالأسئلة ليست جديدة ولكن بعض الأجوبة جديد."[3] وإذا كانت العلوم العرفنية تسعى للبحث فيما به يكون الذّكاء* في النّظم البيولوجية وكان حامله الأساسي (حامل الذّكاء) حاملا عصبيا، فإنّ البرنامج المستقبلي متوجّه للكشف عن تجذّر الذّكاء في العامل العصبي،وبالكشف عن ذلك يكشف الإنسان عمّا به كان إنسانا ذكيّا فردا ونوعا منشئا للحضارات علما وفنّا وعمارة .....[4] يتداخل إذا مجال العلوم العرفنية مع تخصّصات تشترك جميعا في اشتغالها على الذّهن والذّكاء البشري والنّظام المفهومي الذي يستعمله البشر في تمثّل المعلومات وبنائها في الدّماغ وتتضافر تلك التخصّصات في البحث عن الشّيء المشترك بين جميع البشر في عملية التّفكير وما ينتج عنها، وعمّا به يكون الإنسان ذكيّا وسمات الدّماغ البشري كحامل عصبي لجهاز الإبداع، وذلك للكشف عن طبيعة ذلك الجهاز ،وضمن هذا المنظور وجب "افتراض مستويات للتّمثيل الذّهني تتضافر فيها المعلومات القادمة من أجهزة بشرية أخرى مثل جهاز البصر والجهاز الحركي والأداء غير اللّغوي....إلخ وبدون افتراض هذه المستويات التّمثيلية يستحيل أن نقول أنّنا نستعمل اللّغة في وصف إحساساتنا وإدراكاتنا وتجاربنا المختلفة بوجه عام."[5] نفهم من هذا أنّ الجهاز المفهومي للبشر يستقي معلوماته من العالم المحيط به، وتشترك في عملية مقولة المعنى والمعارف المستقاة ثمّ تجسيدها في شكل خطابات ،أجهزة حسّية كالبصر واللّمس وجهاز النّطق ليقوم النّظام الذّكي في الدماغ بترتيبها وتبويبها وتصنيفها حسب ما تقتضيه حاجاته وهذا مدار البحث في العلوم العرفنية.

2/نشأة اللّسانيات العرفنية وعلاقتها بالعلوم العرفنية:

اللّسانيات العرفنية عبارة عن مناويل متشعّبة تضمّ كلّ ماله علاقة بالمنهج العرفني. وتجمع الدّراسات على أنّ نشأتها تعود إلى سنة 1987م وهي السنة التي ظهرت فيها بعض المؤلّفات تهيّئ الأرضية لانتشار هذه

المناويل من مثل كتاب لايكوف 1987م. ولانقاكر 1987ومقال طالمي 1988م، وقد صاحب هذا التّأسيس المعرفي العلمي بحث جمعية اللّسانيات العرفنية العالمية عام 1977م International cognetive linguistics association (ICILA). وتأسيس جمعية العلوم العرفنية cognitive science society بأمريكا 1979م[6] .

وقد أسهم الكثير من الباحثين في توسيع الدّرس اللّساني العرفني، من أمثال تايلور 1996م-2002م.كما ظهرت في العالم الغربي بعد ذلك العديد من جمعيات لسانية عرفنية محلية أو وطنية.

أمّا منهج اللّسنيات العرفنية فإنّها تقطع مع النّهج الموضوعي وتتمثل الاتّجاه التّجريبي وممّا ورد في كتاب **الاستعارات التي نحيا بها** عن ذلك "المعرفية/ العرفنية تقوم على نقض الطّرح الموضوعي الذي ينظر إلى المعنى انطلاقا من نظرية توافقية correspondance theoryتضمّ الرّموز إلى الأشياء الخارجية ،وتتبنّى الطّرح التّجريبي الذي يعتبر المعنى مرتبطا بأساس خيالي imaginative projection يستعمل آليات مثل المقولة* والاستعارة والكناية تتيح أن ينتقل البشر ممّا يقومون بتجربته بكيفية منبنية إلى نماذج معرفية مجرّدة"[7] والذّهن وفق هذه المقاربة الجديدة لا يسيّر الرّموز المجرّدة على منوال الحاسوب عبر خوارزميات مهيكلة بدقّة، بل يشتغل على نحو تفاعلي، إذ يعالج المعلومة من خلال شبكة مترابطة متوازية من الأنظمة التّصوّرية المتولّدة عن تجربتنا الحياتية والجسدية والذّهن وهو إلى ذلك ليس مجرّدا بل هو نظام مجسدن [8].

ومن المسلّمات التي تقوم عليها اللّسانيات العرفنية:

اعتبار الفكر متجسّدا أي مترسّخا في نطاق الإدراك وحركة الجسد وفي إطار التّجربة ببعديها الفزيائي والاجتماعي.

-الإقرار بسمة الفكر الخيالية ممّا يجلوه قيام المتصوّرات الماثلة في التّجربة على الاستعارة ومختلف ضروب المجاز عدّ الفكر ذا خصائص جشطلتية لأنبنائه على أشكال مطّردة وبنى دالّة تنتظم إدراكاتنا وضروب تفاعلنا مع البيئة.[9]

فاللسانيات العرفنية عادت بالنّشاط اللغوي إلى أرضيته الذّهنية العرفنية بأن جعلت منه مهارة من جملة مهارات يمتلكها البشر وهي مهارة محكومة بمبادئ عرفنية عامّه لا بمبادئ لسانية خاصّة باللّغة دون سائر الملكات العرفنية، فاللّغة متناولة في حركيتها واشتغالها تمثّل مدخلا لفهم الكثير من مظاهر العرفنة البشرية من حيث طبيعتها وتغيّرها خلال الزّمن ونشوئها أو اكتسابها وهو ما تقصر دونه المداخل الشّكلية المعهودة.[10] تقوم اللّسانيات العرفنية إذا على ربط الفكر بالتخييل واللّغة كواحدة من تمظهرات الفكر وهي ما يترجم علاقتنا وتفاعلنا بمحيطنا وبها يتمّ التعبير عن تجاربنا، كانت بسب ذلك وسيلة لفهم الطبيعة العرفنية للذّهن البشري ودراستها سيسهم في الكشف عن الكثير من لظواهر العرفنية ونعني بدراستها كل ما يكتب أو يلفظ بهذه اللّغة من خطابات ونصوص وقصص وروايات ...

ولئن لاقت الأسس والمفاهيم الجديدة رواجا عند الغرب كما أسلفنا فإنّها لاتزال متأخرة في البلاد العربية، وتعدّ محاولة الأزهر زنّاد من المحاولات الرّائدة في هذا المجال من خلال عرضه لمجمل الأسس والمبادئ التي قامت عليها هذه النظريات الغربية وكذا الخلفيات الفكرية والمعرفية لها مثل علم النّفس المعرفي والسّيبرنتينية والذكاء الحاسوبي ....إلخ مما هيّأ الأرضية لظهور هذه المناويل

فضلا عن أنّه حاو ل إجراء مقاربات تطبيقية معتمدا على نماذج مختلفة عربية، منها ما هو استعاري ومنه ممّا يجري في الحياة اليومية البسيطة ممّا عداها ومنها ما يندرج ضمن النصوص الأدبية – سنأتي على ذكره في حينه–وهو ما جعل بحثه يتّسم بالشّمولية وينبئ عن فهم ووعي عميقين بكلّ هذه المناويل التي عرض لها. ويقدّم الباحث سبب إلمام كتابه بكلّ هذه المناويل العرفنية قائلا: "ولعلّ أبرز الدّوافع الكامنة وراء هذا العمل ما لاحظناه من اجتزاء النظريات بأخذ ما يناسب ويصلح واجتثاث دون فهم في الأغلب عند المبتدئين باعتقادهم انّ العرفنيات شعار يرفع .."[11] وقد وقف الباحث على مناويل مختلفة منها ما ركّز على النّحو كنظرية النّحو العرفني من أعلامها لانقاكر وجاكندوف وتشومسكي وهي "واحدة من نظريات لسانية عرفنية قليلة يكون السّعي فيها إلى استيعاب النّحو في انتظامه الشّامل أصواتا وصرفا وإعرابا ودلالة وتداولا في استرسالها، فلا يكون انفصال ما بين الإعراب والدّلالة ولا مابين اللّغة والملكات العرفنية عند المتكلّم "[12] ومنها ما يمثّل مناويل تنصبّ العناية فيها على المظهر الدّلالي مطلقا أو مخصوصا بالاستعارة مثل أعمال لايكوف، أو بالدّلالة المعجمية في أعمال طالمي، ومنها ما ركّز على الدّلالة في مستوى الخطاب كما في أعمال فوكونياي والذي تبلورت أفكاره في نظرية الأفضية الذّهنية والتي اختصّت برصد شبكة الأفضية الذّهنية والعلاقات الرّابطة بين العالم المتصوّر (في الخطاب)ونظيره في الواقع، والعلاقات العاملة في المجاز المرسل وما به يكون الاهتداء إلى المدلول (المعنى) في حال استعمال دال آخر ليس له في الأصل، وما به تبنى الأفضية الذهنية من آليات وأدوات باعتماد نماذج اللّغة العربية جملا ونصوصا[13]. وبما انّنا سنركّز في بحثنا على منوال واحد والذي يختصّ بتحليل النّصوص والخطابات فسوف نطرق أوّلا إلى:

النّصّ الأدبي في علاقته بالمناويل العرفنية:

إنّ النّصوص والخطابات متعدّدة بتعدّد معارف البشر والحقول المعرفية التي تنتمي إليها من ثمّ كانت "حاضرة وفاعلة في الكون المادّي الذي نعيش فيه ثمّ نتفاعل بواسطته عبر وسائط فنّية تشكيلية وسيميائية متنوّعة"[14] فما علق بنفوسنا من أحوال وتجارب وتأثّيرات ومقروءات وأساليب، ومواقف يصبح مادّة أوّلية تصنع وفق منوال جديد، فالنّصّ نسيج استعاري تؤلّف خيوطه بنى ذهنية متآلفة تتجاذب وتتداعى لحظة إنشاء الخطاب إنّها بمثابة طبقات من المواد القديمة والجديدة التي تعمّقت في الوجدان والفكر، وكان لها تأثير محسوس أو غير محسوس، ومن الصّعب أن ينتبه إليها صانع الخطاب نفسه لأنّها تصدر أحيانا عن أصداء بعيدة ترسّبت في الذاكرة منذ عقود وتظلّ قابعة هناك حتّى تستدعيها بناء الخطابات وما يتعلّق بها من حاجيات راهنة وأحوال ودواع وظرفيات [15]

وقد شكّلت النصوص والخطابات موضوعا خصبا لعدّة اختصاصات تتفرّع لتكتمل في دراسة مجال تحليل الخطاب. "الذي ارتبط بمسألة الإنتاج والتّأويل وهما مسألتان لا تتصلان بالجانب اللّساني وحسب وإنّما لها علاقات مع الأبعاد الأخرى غير اللّسانية التي تساهم في تشكيل تحليل الخطاب[16] ولازال هذا الميدان في حاجة إلى "أدوات وبلاغات قادرة على تبيّن كيفيات تشكيل موضوعاته في الوعي المدرك والباني للأفكار والمعاني لدى الكتاب والمؤلّفين".[17] وإذا كان "التأويل خطابا على خطاب، فهو يتميّز بطابعه التّركيبي وتداخل الأنساق المعرفية فيه وتباين أدوات الإبلاغ واختلافها، ممّا يتطلّب الاعتماد على كل ما هو متاح في المعرفة الإنسانية وما

يتقبل الاستحضار والإدماج والتّوظيف لتخريج دلالي أو إعادة بناء المعنى وبقدر غنى هذا النصّ يتّسع حقل المعرفة التي تسمح تبيّنه وتبنّيه"[18] من ثمّ شكّلت المباحث العرفنية آليات جديدة لمقاربة النّصوص والخطابات وتنمية الخبرة بها والكشف عن طرق انبنائها في ذهن مبدعيها، لذلك سعى بعض النّقاد والباحثون إلى استثمارها في تشخيص أهمّ سمات القوّة الابداعيّة المؤسّسة للخطاب كنتاج يتجاوز اللّغة المعيارية نحو لغة ذكيّة تترجم نشاطا ذكائيا على مستوى اللّفظ والمعنى والقصد.

وضمن هذا المنظور تتموضع قراءة النصّوص والخطابات ك "عملية إدراكية مجرّدة يحتاج تطبيقها إلى استعمال مختلف المعطيات المكوّنة للعرفان لذلك فإنّها لا تتحقّق بطريقة قارّة وإنّما تختلف باختلاف من يكوّنها نتيجة تباين المعطيات العرفانية"[19]

ويتّخذ الإسهام العرفاني هنا وجهين متكاملين فأمّا الوجه الأوّل فإبستيمولوجي قوامه الخروج بالمقارنة من حدود المثال العلموي المنشود ذي المنحى الوضعي والمقرّ بوجود شروط ضرورية كافية بحكم انتظام أصناف النّصوص. أمّا الوجه الآخر فإجرائي يتجسّد في عملية تصنيف النّصوص باستلهام مكتسبات علم النّفس العرفني وعلم الدّلالة المعجمي ...وتمّ لهذا الغرض تشفير مفاهيم في مقاربة النّصوص عرفنيا من قبيل الأفضية الذّهنية mental spaces والخطاطات schemas والأطر formes والمزج blendingوغيرها ....[20]

وعربيا لاتزال هذه المساهمات العرفنية في المقاربة النّصيّة محتشمة –كما أسلفنا–ولا تكاد تظهر إلاّ لماحا ،ينظر في هذا السّياق إلى جانب –مانحن بصدد عرضه– تلك المحاولات التطبيقية الرّائدة لمحمّد بازي من خلال كتابيه "**نظرية التّأويل التّقابلي مقدّمات بديلة بالنصّ والخطاب**"، و"**البنى الاستعارية نحو بلاغة موسّعة**"، ينضاف إليهما محاولة سليم العمري التي أجراها على القصيدة الجاهلية في مقاله الموسوم **ببنية القصيدة الجاهلية من النّماذج التّفسيرية السّائدة إلى المنظور العرفاني**، وكذا محاولة الباحثة خديجة وحيد بمقالها "**النصّ بين النّزعة الذّهنية واللّغة والحركية الابداعية** بحيث قدّمت قراءة لنصيّن سردي مقطع من **الغربة واليتيم** لعبد الله العروي، وشعري "هو **مديح الظلّ العالي** لمحمود درويش، وتعدّ هذه المحاولات وغيرها على تباينها من حيث الكم والعمق فاتحة للبحث في النص الأدبي من منظور عرفاني. وسوف نخصّ بحثنا بما قدّمه الأرهر زنّاد في هذا المجال ونركّز على "نظرية الأفضية الذّهنية "التي جرّبها هذا الباحث كمنوال لمقاربة بعض النصوص من الأدب العربي على الرّغم من أنّها جاءت مقتضبة مراعاة منه لطبيعة البحث الذي جمع بين جميع تلك المناويل التي أشرنا إليها بالإضافة إلى تقديمه لنماذج تطبيقية لها جميعا. فما هي نظرية الأفضية وماهي منطلقاتها وأسسها؟ وكيف يمكن أن تسهم في فكّ مغاليق النّصوص ومعمّياتها وصولا إلى الهدف المنشود من تأويلها؟

نظرية الأفضية الذّهنية:

لقد حاول الأزهر زنّاد أن يقدّم لنا نموذجا للمقاربة كما قعّد له فوكونياي – ولم يستغن عن أبحاث لا يكوف ومارك جونسون– وهي فاتحة للبحث في النصّ الأدبي من منظور عرفاني بآليات تبحث في قدرة الذّهن على الإبداع والتّخييل، وقد عدّ نظرية الأفضية بدءا "منوالا في العلاقة بين الدّلالة والعرفنة ينطلق من تفسير الظواهر المتواترة ،سعيا إلى إقامة نظرية أوسع في علاقة اللّغة بالعرفنة يكون فيها الكشف عن الاتّصال مابين النّحو والتّجربة في جميع المستويات وما يكون به بناء الواقع

والتّجربة والتّعبير عنهما عند الإنسان باعتماد العبارة اللّغوية"[21]. ومن أهم منطلقات فوكونياي وهو يبني تصوّره الجديد "أنّ اللّغة لا ترتبط رأسا بعالم حقيقي أو فريائي إنّ بين اللّغة والعالم الفريائي سيرورة بناء واسعة وهذه السّيرورة لا تعكس العبارات اللّغوية التي ينشئها ولا العالم الحقيقي الذي تعتبر الأوضاع فيه اهدافا للعبارات التي ينطبق عليها، هذا المستوى الوسيط يسمّيه فوكونياي المستوى المعرفي [22]لذلك فإنّ النّسق التصوّري للبشر لا يمكن أن نعيه بشكل عادي ففي "جلّ التّفاصيل التي نسلكها في حياتنا اليومية نفكّر ونتحرّك بطريقة أقلّ أو أكثر آلية، وذلك تبعا لمسارات سلوكية ليس من السّهل القبض عليها، وتشكّل اللّغة إحدى الطّرق الموصلة إلى اكتشافها، وبما أنّ التّواصل مؤسّس على نفس النّسق التّصوري الذي نستعمله في تفكيرنا وفي أنشطتنا، فإنّ اللّغة تعدّ مصدرا مهمّا للبرهنة على الكيفية التي يشتغل بها هذا النّسق"[23]. فاللّغة إذا بإمكانها أن تساعدنا على الكشف عن ما به يشتغل الذّهن لأنّنا نستعمل اللّغة للتّعبير عن رؤيتنا للوجود والظواهر والوقائع والموجودات كما هي في الواقع والتّجربة أي ما كان او ما يمكن ان يكون وما يجب أن يكون، وما هو محتمل" وعمّا نراه رؤية للعيان وعمّا نقنع به وما نتخيّله في القصص والرّوايات "ولئن اختلفت هذه المظاهر في طبيعتها بما تقوم عليه من تقسيم للزّمن ومن العوالم الممكنة والعوالم المستحيلة ومن احوال القصد واحوال المعرفة بالأشياء والكون وغير ذلك من مظاهر الاختلاف فإنّها تجتمع في مستوى يكون لها فيه نفس الأدوات في تكوين الأبنية العرفنية"[24]. والفضاء الذّهني هو جملة من المعلومات المنظّمة المتعلّقة بالمعتقدات والأشياء ويتكوّن من عناصر وليس من الضّروري أن تكون لتلك العناصر مراجع (في الواقع)وقد يحدث أن يطابق فضاء ذهني حالا من الأشياء في الكون مطابقة كلّية أو جزئية ،فيكون التّطابق بين عنصر من عناصرها وشيء في الواقع ،ويكون التّطابق بين خصائص ذلك العنصر وخصائص الشّيء الواقعية"[25] نفهم من ذلك أنّه تسهم بعض العناصر في نشوء الأفضية الذّهنية وهي نوعان؛ واقعية ومتخيّلة وليس شرطا أن تتطابق العناصر المتخيّلة جميعها مع خصائص الشي المتخيّل في الواقع فقد تتطابق جزئيا فقط وهذا عائد إلى خاصيّة الذّهن التّخييلية.

ويعرض زنّاد نظرية فوكونياي في كيفية نشوء الأفضية في الذهن ثمّ انبنائها وتطوّرها وما يربط بين هذه الأفضية من روابط كما يحدّد بناتها، ويربطها على وجه خاص بالنشاط اللّغوي للإنسان لأنّه أبرز ممثل لها قائلا: "فالمتكلّم ينشئ مالا نهاية له من الأفضية الذّهنية في جميع الأنشطة الرّمزية لعلّ أبرز ممثّل لها هو النّشاط اللّغوي، فالمتكلّم إنّما ينشئ ما لانهاية له من الأفضية الذّهنية في جميع الأقول التي ينجزها من قبيل المحادثات والقصص والخرافات والشّعر والرّواية والمسرح..."[26]. ولئن اختلفت هذه المظاهر في طبيعتها بما تقوم عليه من تقسيم للزّمن ومن العوالم الممكنة والعوالم المستحيلة، ومن أحوال القصد وأحوال المعرفة بالأشياء والكون وغير ذلك من مظاهر الاختلاف، فإنّها تجتمع في مستوى يكون لها فيه نفس الأدوات في تكوين الأبنية العرفنية، وكلّ ما يجب فعله هو البحث في ما به تشتغل هذه الوجوه اشتغالا واحدا من زاوية دلالية ومنطقية ونحوية ولغوية."[27] بمعنى أن الظّواهر اللّغوية من نصوص وروايات وأحاديث عادية وغيرها من التّمثلات الذّهنية اللّغوية تختلف في تمظهرها وبنيتها السّطحية ولكن النّظام المفهومي الذي أنتجها من الرّاجح أنّه مشترك بين البشر –وإن تفاوتت نسب الذّكاء بتفاوت جمالية تلك

التّمظهرات اللّغوية – وقد بيّن فوكونياي أنّ الآليات المسؤولة عن بناء المعنى النّووي *هي نفسها التي تنتج المعنى الهامشي فعدّة ألفاظ تحدّد بصورة مباشرة بعض شروط استعمالها وبهذا فإنّ بنية مجال معيّن آخر تلعب دورا في إنتاج المعنى الحرفي والبلاغي على السّواء إنّ هذين المجالين او الفضاءين مختلفين من حيث محتواهما الموضوعي وقد يشتركان في خصائص رئيسة في مستوى معيّن من التمثيل الدّلالي."[28] نفهم من ذلك أن فوكونياي يهدف للكشف عن عملية اشتغال النظام المفهومي من زوايا عدّة، ويتم ذلك من خلال تتبعه لسيرورة انبناء المعنى في الذّهن .ولئن كانت اللّغة تمثيلا للانتظام المفهومي فإنّ بنيتها تعكس بنية الفضاء الذّهني. وهذا ما يسعفنا في الكشف عن عدد من آليات تشكّل الخطاب على مستوى الذّهن من مثل "نقطة الانطلاق في الخطاب ويسميها فوكونياي الفضاء الأساس وأيضا الفضاء الذي يمثّل موطن البؤرة أي ذاك الذي يمثّل مادّة الوعي في لحظة ما وإليه ينضاف شيء جديد من قبيل التّشكّلات الدّاخلية في الفضاء الواحد، وقوام هذه العمليات جميعا عند فوكونياي هو مبدأ الاهتداء access principale.[29] ويتمّ نشوء هذه الأفضية بطريقة فورية أثناء الكلام. كما تتعدّد وتتناسل بنفس الطّريقة أي آنيا online. وقد هتمّ فوكونياي بطريقة بناء الأفضية وعناصر الرّبط بينها، كما عرض كيفية تزايدها أو تبدّلها أو انصهارها في بعضها البعض، "إذ تتكاثر الأفضية بأن يتولّد كلّ فضاء من فضاء آخر يفرّخه يطلق على الوالد –مجازا –الفضاء الأبparent وعلى الفضاء المولود الفضاء الابن child–مجازا–"[30] بمعنى أنّ الفضاء الأب أو الفضاء الأساس هو الفضاء الابتدائي الذي ينتج عنه باقي الأفضية. وكلّ فضاء منحدر من فضاء أب يمكن أن يتولّد منه فضاء واحدا أو جملة من الأفضية –في المستوى الثّاني – ذات شكل متفرّع أو متعرّش. وهو ما يسمح لنا بالانتقال بين الأفضية بحيث ننحدر نزولا من فضاء أعلى إلى فضاء أسفل أو نتدرّج صعودا من فضاء أسفل إلى فضاء أعلى .أمّا عن بناة الأفضية فيعرّفها فوكونياي بأنّها "آليات يستعملها المتكلّم ليجرّ سامعه إلى تأسيس فضاء ذهني جديد وهي العبارات المتحقّقة في الخطاب تراكيب أو وحدات نحوية تؤسّس فضاء ابنا لفضاء أساس يترابطان بوجه ما، ولا تحمل بناة الأفضية في ذاتها معلومات عن الفضاء الجديد وتتكوّن من الأسماء والصّفات وكلّ ما يعبّر عن الزّمان والمكان وغيرها من الأطر الافتراضية."[31] ومن المظاهر المقترنة بانتظام الأفضية الذّهنية بناء وتناسلا وترابطا ممّا لا يتّسع له التّناول المنطقي الشّكلي الضّيّق دينامية بناء المعنى والبعد الذّاتي في ذلك ... والانتظام المفهومي الكامن في انبناء المعنى مرتبط بعدد من الآليات قوامها أفضية في الخطاب مترابطة يُتّخذ الواحد منها منظور أو بؤرة يهتدي منه إلى سائر الأفضية خلال الشّبكة وعليه تبنى سائر الأفضية"[32]. نفهم من ذلك أنّ طريقة انبناء المعنى في النصّ يرجع إلى آليات تتمركز حول شبكة من الأفضية كلّ فضاء هو عبارة عن بؤرة أو نواة تنجدل تحته مجموعة من الأفضية يشكّل جميعها تعريشة يؤدّي الواحد منها إلى توليد الثّاني وتسهم جميعها عبر ترابطات في تشكيل المعنى.

وفي سياق الحديث عن الترابطات فإنّ فوكونياي يقصد بها "انّ البشر يهتدون إلى نفس المعلومات ويعالجونها بطرق مختلفة"[33] ويجد فوكونياي في ذلك مدخلا يثبت ضرورة البحث فيما يمكن للذّهن ان يقيمه من عمليات ربط في مختلف السّياقات وفيما يكون للسّياقات المختلفة من أثار في انبناء المعنى [34]

فالسّياق يتبيّن كيفية تدخّل المعطيات العرفانية المخزّنة في تصوّر العلاقات بين عناصر الخطاب"[35]. إذا فللتّرابطات أهمّية قصوى ذلك أنّ الكشف عن طرق انبناء المعنى في الذّهن رهين اكتشاف أوجه التّرابط بين عناصر الخطاب مع عدم إغفال دور السّياق في ذلك والاحتكام "إلى ما في الذّهن من اهتمامات وميولات ومعارف ومواقف وأهداف وغيرها من المعطيات العرفنية"[36]. ومن مظاهر الرّبط بين مجال Domin وآخر أن يجري اللّفظ في الواحد أو العبارة الواحدة المنتمية إلى مجال ما قادحا trigger يحيل على وحدة هدف targetمن مجال عرفني آخر[37]. ويصوغ فوكونياي لمبدأ الاهتداء التّعريف التّالي "يمكن لعبارة تسمّي أو تصف وحدة معلومة من مجال ما ان يجري للإحالة على وحدة أخرى من مجال آخر تسمّى الوحدة الأولى قادحا وتسمّى الثانية هدفا وعملية الإحالة اهتداء والشّرط في قيام عملية الاهتداء ان يكون المجال الثّاني ممّا يمكن ان يكون الاهتداء إليه عرفنيا من المجال الأوّل وأن يكون التّرابط أداة أو قرينة ظاهرة"[38]. وتترابط الأفضية بأن يهتدي إلى الواحد منها انطلاقا من الآخر بتوفّر العنصر الواحد في الواحد منها وبتوفّر نظير له في الآخر، وبحدوث نقلة الانتباه من الفضاء الواحد إلى الآخر تتعدّد الأفضية الأساس فتتناءى الأفضية في الخطاب فتنقطع سبل الاهتداء بينها[39] وضمن هذا المنظور فكلّ عنصر من الفضاء الأساس لابدّ له من نظير في الفضاء المولّد منه ليتحقق شرط التّرابط داخل علاقات واسعة وهذا النّظير أو العنصر يكون إمّا لغويا أو عرفنيّا وسيتضّح ذلك أكثر في المقاربة التّطبيقية.

المقاربة التطبيقية:

وهو يجرّب منوالا جديدا في المقاربات النّصّية يختار الباحث نصّيّن نثريين أحدهما؛ نادرة من نوادر الحمقى والمغفّلين اختفى –عبر الزمن –المؤطّر الحقيقي لعملية الإنتاج اللّغوي، ليختفي تباعا أثناء مراقبة اشتغال النّظام المفهومي للنصّ من ثمّ برزت الشّخصية البطلة "جحا" لتعوّض ذلك الفراغ لمؤطّر النصّ فاتّخذه زنّاد كشخصية محورية انبنى عليها جلّ المسار التّحليلي العرفني. ويمكن أن نقف قبل عرض هذه المقاربة على ملاحظتين؛ أولاهما تذكير أنّ من مساعي التّحليل العرفني للنّصوص والخطابات هي البحث فيما يكون به المبدع ذكيا والكشف عن كيفية انبناء المعنى ومن ثم سيرورة انتاج وتشكّل هذه النّصوص في ذهن منتج النصّ، ولكنّ الباحث قصر اشتغاله على مراقبة تلك العمليات على مستوى ذهن جحا، ومن الواضح أن يكون الباحث عليما بهذه الخطوة ويقصد إليها قصدا، على اعتبار انّ النصّ موضوع المقاربة جاء في سياق أخبار الحمقى والمغفّلين *. أين تنتفي أو تكاد عملية الذّكاء، لتبدأ في الانحدار إلى مستوى أدنى وهو سلّم المغفلين. وهذا ما يقودنا إلى الملاحظة الثانية أنّ البحث فيما به يكون الإنسان ليس ذكيا"مغفّلا"قد يقارب في الوقت ذاته ذكاء واضع النصّ الحقيقي إذ بتنضيده للأشياء والعناصر التي يكون بها الإنسان ليس ذكيّا يكون عارفا بما به يكون الانسان ذكيّا– فبضدّها تتضح الأشياء –بمعنى أنّ واضع النصّ يكون ذكيّا بقدر بنائه أفضية ذهنية يتحقّق على مستواها عدم ذكاء البطل مع تحقيق التناسق والترابط الذي حكى به النصّ.

النصّ الأوّل عيّنة المقاربة: خبر جحا والحمّال.

"اشترى جحا يوما دقيقا وحمله على حمّال فهرب بالدّقيق فلمّا كان بعد أيّام رآه جحا فاستتر منه فقيل له مالك فعلت كذا؟ فقال: أخاف أن يطلب منّي كراه"[40].

وزّع الباحث النصّ على سبع أفضية؛ واحد أساس والبقيّة مولّدة، كما رسم الأطر العامّة لهذه الأفضية محدّدا "ما هو مؤسّس وله مقابل واقعي حال الأشياء في الكون، وما هو افتراضي موجود فقط في ذهن المؤطّر" كما قام باستخراج الرّوابط العرفنية واللّغوية بين هذه الأفضية ليصل في النّهاية للكشف عمّا به كان النصّ ذا بنية ساخرة هزلية.

فحدّد الفضاء الأساس الذي هو الفضاء الوالد بنقطة انطلاق الحكي وعدّها النّواة الأولى وهي "عملية الشّراء" التي انطلقت منها باقي الأفضية الأخرى يقول في هذا الصّدد: يتمثّل الفضاء الأساس في عمل الشّراء .... والشّراء إطار كامل بما يقوم عليه من الأسس والأطراف المعلومة وكذلك شخص جحا إطار كامل بما يصاحبه من الخصائص التي نسجتها الثّقافة العربية عنه ...بني هذا الفضاء بمحدّد الزّمان يوما"[41]. إذ أنّ الفضاء قد يكون حدثا "الشّراء"، وهذا الفضاء تسهم في نشوئه عناصر عديدة منها "جحا"وهو إطار كامل في ذهن المتلقّي العربي بما ترسّخ في ذهنه من معلومات استقاها من ثقافته الشّعبية، وقد تبنى الأفضية بمحدّد أو بعنصر زمني "يوم" بمعنى أنّ الباحث يركّز على الأطراف الثّلاثة النصّ والبطل والمتلقّي حيث يقوم بتتبع سيرورة انبناء معنى النصّ في ذهنية جحا والمتلقّي في آن معا وفي حديثه عن الأفضية المولّدة عن الفضاء الأب يقول: "ومن هذا الفضاء ينشأ فضاء ابن هو حمل الدّقيق (الحمّال جحا، دقيق، وأمور أخرى كالاتّفاق في الأجر والمسايرة أو المتابعة وما إلى ذلك ..)[42] إذا كلّ فضاء مؤثّث بعناصر تسهم في نشوئه ففضاء حمل الدّقيق كفضاء مولّد من الفضاء الأب، تسهم في تكوينه العناصر (الحمّال ،جحا .الحمل الدّقيق ..

وهكذا يمضي الباحث في تتبّع سيرورة توالد باقي الأفضية وهي باختصار:

نشوء فضاء ثالث جديد هو هرب الحمّال بالدّقيق، من هذا الفضاء بني فضاء رابع تمثّل في رؤية الحمّال بعد ثلاثة أيّام ثمّ نشأ فضاء خامس هو الاستتار من الحمّال، ففضاء سادس هو سؤال جحا عن سبب استتاره، ومنه تولّد الفضاء السّابع والأخير وقد عدّه الباحث فضاء افتراضيا صرفا لأنّه جواب عن سؤال دافعه الخوف من طلب الكراء "إذ يحيل على حال ذهنية عند جحا بها يبرّر سلوك الاستتار بنوع من الحجاج خاصّ به، والافتراض في فضاء الخوف قائم على الواقع الذي توفّرت عناصره في جملة الأفضية السّابقة"[43] وهو يعيّن الأفضية وقف الباحث أثناء ذلك على الرّوابط بينها وحصرها في نوعين؛ لغوية وعرفنية ومن الرّوابط اللّغوية مثلا الضمير العائد على الحمّال في الفضاء الثّاني، ومثل الرّوابط العرفنية ذلك التّطابق الذي عقده جحا بين الحمّال وقد هرب بالدّقيق وصورة الحمّال كما بدت في الفضاء الخامس حين رآه جحا "واهتدى إلى أنّه هوهو بملامحه وليس حمّالا آخر رغم تباعد الزّمن بأيّام"[44]. ثمّ إنّه مثّل لهذه الأفضية وهي تتوالد من بعضها البعض برسم بياني يمكننا استعارته منه لنفهم ما قام به:

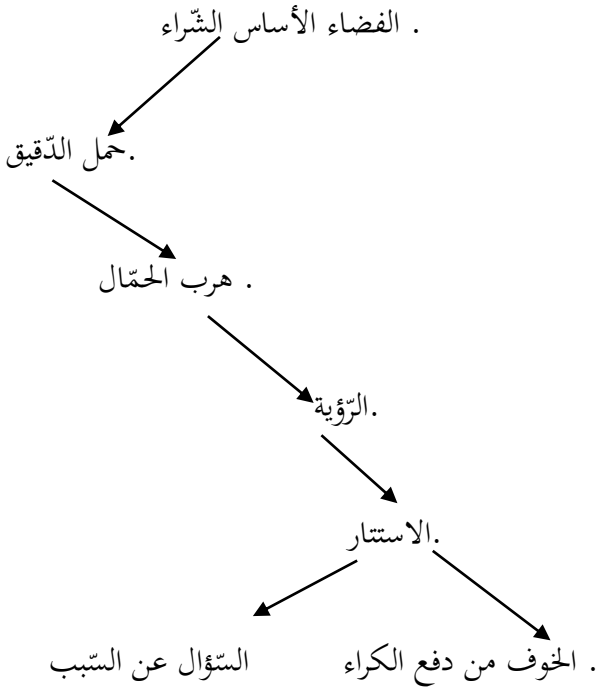

وبعد عرض مفصّل لهذه الأفضية والرّوابط بينها، والأطر التي تنضوي تحتها قصد الكشف عن سمات القوة الإبداعية فيه، يصل ختاما إلى أنّ الأثر الهزلي في **خبر جحا والحمال** لا يكمن في عناصر الأفضية الذّهنية؛ الأحداث والأشخاص والأرمنة.....إلخ، ولا في بنية الخطاب ذاتها وإنّما يكمن في" الفارق بين القيمة في الخلفية المعرفية لما تقتضيه من سير الكراء العادي، وقيمة الحمل عملا وقيمة المحمول بضاعة من جهة منطق جحا، فقد حدث خلاف ما تقتضيه الخلفية المعرفية، إذ حمل الحمّال الدّقيق لنفسه وقيمة المحمول تفوق بكثير قيمة الأجر، وبعبارة أخرى لا يتوفّر التّناسب بين الخطاطة العامّة (حمّال – مؤجّر، حمل-دفع الأجر، بضاعة- تسليم البضاعة للآخر ،قيمة الأجر –قيمة البضاعة) وخطاطة جحا (حمّال- جحا، حمل-∅أجر، دقيق-∅تسليم الدّقيق، قيمة الأجر=قيمة البضاعة) فجحا خاسر في العملية ويعتقد انّه مطالب بدفع الأجر وقد فقد دقيقه ،وعليه أن يعمد إلى الحيلة بالاستتار لتجنّب دفع الأجر وكأنّه لا يعلم أنّه خاسر منذ أصل العملية "[45] هكذا إذا يرجع الباحث ظاهرة الأثر الهزلي إلى عدم التناسب بين الخطاطة العامّة أي ما هو دارج في مجال المعاملات وخطاطة جحا وعدم التّطابق بين تصوّراته الذّهنية وما يجب أن يكون .وتستوقفنا عبارة الباحث "وكأنّه لا يعلم أنّه خاسر منذ أصل العملية" تحيلنا مباشرة على النّواة المركزية لعملية المسار التّحليلي للباحث وهو يتتبّع سيرورة الأفضية الذّهنية في ترابطها وتوالدها التي ساهمت في تشكيل النصّ لكنّه وصل إلى نقطة مبهمة توقّف فيها ذهن جحا عن أداء وظيفته ووقف على تشعّب غير طبيعي في الخطاطات العرفنية للذّهن نجم عن عدم التّطابق بين المعطيات المجرّدة والواقع ممّا أدّى لوجود هوّة شاسعة بين القادح والهدف فولّد تباعا الأثر الهزلي عند المتلقي.

أمّا النصّ الثّاني الذي عرض له الباحث فهو مدخل **مسرحية السدّ** للكاتب التونسي "المسعدي" وبالذّات صفحة عنوانها الشّخصيات أفردها صاحب المسرحية لعرض الشخصيات في شكل قائمة من الأسماء أمّا البعض منها صفات وخصائص ولا شيء أمام البعض الآخر:

الأشخاص:

-ميمونة: امرأة.

-عيلان: رجل كائن، زائف.

-ميارى: خيال وطيف وحبّ وجمال.

-بغل ذكي.

-ذئب ذو عواء

-أطياف وهواتف.

-وواد وجبل [46]

لقد قصر الباحث تحليله على نقطتين؛ الأولى عرضه للوصف الذي قدّمه كاتب المسرحية لشخصياته من ثمّ توصّل إلى القول بتأرجح الأفضية الذّهنية الموجودة في

النصّ بين التخصيص والتّعميم ورأى أنّ "أكثرها تخصيصا فضاء ميارى وأفقرها ميمونة"[47] ثمّ ذكر تواليا الوصف كما هو ظاهر أمام كلّ شخصية بحيث مثّل كلّ وصف فضاء ذهنيا ينشأ في ذهن المتلقّي بمجرّد قراءته.

أمّا الثّانيّة فإنّ هذه الأفضية التي نشأت من القراءة لأسماء الشّخصيات "هي أفضية أساس أباء سيتولّد منها مفردة ومجتمعة على درجات أفضية سليلة لها في المسرحية وفي كلّ فضاء منها إطار سيصحبه وهذا الإطار سيقوم الرّكيزة في كامل الرّواية وهو يبنى شيئا فشيئا إلى منتهاها"[48]. يكتفي الباحث بهتين النّقطتين على خلاف ما قام به في النصّ السّابق.

إنّ ما يمكن ملاحظته في ما يخصّ مقاربته لنص المسرحية ،هو اكتفائه بتقديم تحليل موجز لهذا المدخل المقتضب منها قصد تتبّع بناء الأفضية فيه وتوالدها إذ لم يتجاوز عمله الصّفحة الواحدة من الكتاب ولعلّ ذلك راجع إلى أمرين؛ فعدا عن تقديمه نموذجا للمقاربة الإجرائية المفصّلة نوعا ما للنصّ السابق —على اقتضابه هو الآخر –متوقّعا أنّ الفكرة أو الطّريقة قد بلغت القارئ، فإنّ الأمر الثّاني متعلّق بالضّرورات المنهجية التي ألزم الكاتب نفسه بها من حيث أنّ عنوان الكتاب يصبّ في منحى نظري مؤسّس أكثر منه منحى تطبيقي لذلك شغله العرض النّظري لمختلف المناويل العرفنية واكتفى بعرض بعض النّماذج التّطبيقية، وهي وإن كانت مختصرة كما أسلفنا إلّا انّها أسهمت في إعطاء صورة عن طرق المقاربة الإجرائية. وإذا كانت المفاهيم والمناويل المعرفية "في رحلة دائمة بين المجالات الحياتية وهي في حاجة إلى عقل قادر على استمدادها ودمجها في المجال المناسب وفي الوقت الأنسب"[49] فإنّ الأزهر زنّاد كان العقل الذي فتح —مع بعض الباحثين–باب النّقل المعرفي لهذه الأنوال العرفنية وقد حاول أن يكيّفها لمقاربة النّصوص في المجال المعرفي العربي وهذا –كما لم يخف على القارئ –عائد لافتقارنا لنظرية نقدية عربية حديثة.

ومن بين النّتائج التي يمكن أن نقف عندها:

أنّ هذه النظريات العرفنية ظهرت سليلة لعلم النّفس المعرفي والذّكاء الاصطناعي وهي تقوم على الطّرح التّجريبي وتقطع مع الطّرح الموضوعي للمعرفة، وتسعى للبحث فيما به ما يكون به الإنسان كائنا معرفنا ذكيّا. كما تبحث في آليات اشتغال الذّهن.

–هذه المناويل اعتمدت أساسا على إرجاع الذّهن إلى طبيعته رجعته التّخييلية.

–أنّ نظرية الأفضية الذّهنية التي هي أحد المناويل العرفنية تشتغل في انبناء الأفضية في الذّهن والخلفية المعرفية في شكل أطر ومناويل ثقافية. وتسعى هذه النّظرية للكشف عن آليات الإبداع عند البشر وفيما هم مشتركون فيه لحظة الإبداع.

–أنّ الإبداع لا يرتبط فقط بالعقل بل تشترك فيه جملة من العوامل النّفسية والثّقافية والاجتماعية .... وبقدر ما يكون الإنسان ذكيا يكون إبداعه متفرّدا، وبقدر ذكاء القارئ يمكنه الكشف عن ذكاء المبدع.

هذه النّتيجة تقودنا إلى نتيجة حتمية علّها تكون طرحا لم نطرق له في متن البحث لكن من المهمّ أن نذكّر بها وهي انّ طبيعة النّصوص التي تصلح مقاربتها بمنوال الأفضية الذّهنية لابدّ تكون إبداعا بشريا (روايات قصص حكايات شعر رسومات ...) مادام البحث فيها يسعى بدءا للكشف عن عملية اشتغال الذّهن البشري لحظة إبداعها لمحاكاة الذّكاء البشري. وهو يجعلنا لزاما نستثني من الدّراسة الخطاب القرآني.

ختاما سعينا عبر هذ البحث المقتضب لتقديم بعضا من الأنوال النّظرية الحديثة التي عمل الباحث على

نقلها من مجالها الأوّل الغربي إلى مجال الدّراسات النّقدية العربية، إيمانا بأنّ المعارف تتناسل وتتناسخ ولكنّها في الأخير ستؤدّي إلى تشكّل الوعي المنهجي والفهم العميق بالسّنن المعرفي الذي قامت عليه هذه النّظريات، ليحقّق الباحث وآخرون- في نهاية المطاف -عبر تراكمات معرفية إيجاد نظرية نقدية عربية لمقاربة الإبداع العربي الناتج عن ذهنية متمايزة في ثقافتها وخلفياتها وتجربتها عن ذهنية الآخر.

هوامش البحث:

[1] -المنجي القلفاط وآخرون: النصّ والخطاب في المباحث العرفانيّة، أعمال النّدوة الدّولية الثّانية المعهد العالي للّغات جامعة قابس تونس دار كنوز المعرفة للنّشر ط :1 2018م ص.

نقلا عن مصطفى الحدّاد: اللّغة والفكر وفلسفة الذّهن، دار ورد الأردنية، الاردن ط1،2013م ص36.[2]

-النّظام المفهومي هو نظام يشتغل على المحيط ترتيبا وتبويبا وما إلى ذلك من وجوه التّنضيد والمقولة والحفظ والتّسجيل والتّخزين (ينظر الأزهر زنّاد: لسانيات نظرية عرفنية منشورات الاختلاف ص*15)

-الأزهر زناد: المرجع نفسه ص15نقلاعن لايكوف:1987من المقدّمه[3]

-الكائن الذّكي هو ذلك الكائن الذي يقدر أن يقسّم العالم المعقّد الذي يعيش فيه إلى مجموعات أو عناصر صغرى يمكن تحديدها ومعرفتها ثمّ هو الكائن الذي يستعمل تلك المعرفة لأداء اعمال وفق ما تقتضيه حاجاته وظروفه على وجه يخطّط له ويتحكّم في مساره ومن أسس الذّكاء بركيزتيه حصول التمثيلات والقدرة على توليف المعلومات. (ينظر الأزهر زنّاد: المرجع نفسه ص*16).

-الأزهر زنّاد: المرجع نفسه ص [4]36

-جورج لايكوف ومارك جونسون: الإستعارات التي نحيا بها. تر: عبد المجيد جحفة. دار توبيقال ط2 ،2009مص5 من مقدّمة المترجم.[5]

-ينظرالأزهر زنّاد: نظريات لسانية عرفنية ص130.[6]

* ارتبطت فكرة المقولة categorization ببناء المعرفة فهي أداة يستعملها البشر لتصنيف المعطيات قصد السّيطرة عليها وفهمها (ينظر جليلة حمودة: المعنى وآليات مقولته في اللّغة العربية مقاربة دلالية عرفانية الدار التونسية للكتاب ط1،2017،ص9).

-لايكوف وجونسون: الاستعارات التي نحيا بها ص [7]11

المنجي القلفاط وآخرون: النصّ والخطاب في المباحث العرفنية ص [8]5

-سليم العمري: بنية القصيدة الجاهلية من النماذج التفسيرية [9] السّائدة إلى المنظور العرفاني، ضمن كتاب النص والخطاب في المباحث العرفنية، المنجي القلفاط وآخرون ص214. نقلا عن lakoff.G.women,Fire ,and Dangerous things what categories reveal about the mind ,university of chicago and london ;1987, pp .XI-XVII

-الأزهر زنّاد نظريات لسانية عرفنية ص 34.[10]

المرجع نفسه ص [11]11

المرجع نفسه ص [12]137

المرجع نفسه ص [13]96

-محمّد بازي: نظرية التّأويل التّقابلي، مقدّمات بديلة بالنّصّ والخطاب دار الأمان الرّباط ط1 2013م ص 319.[14]

-محمّد بازي: البنى الاستعارية نحو بلاغة موسّعة دار الأمان الرّباط ط1،2017م ص [15]120

-خليفة الميساوي: المصطلح اللّساني وتأسيس المفهوم منشورات الاختلاف ط2،2015م ص176.[16]

-محمّد بازي: نظرية التّأويل التّقابلي مقدّمات لمعرفة بديلة بالنصّ والخطاب ص [17]302

المرجع نفسه ص 179.[18]

-جليلة حمّودة: المعنى وآليات مقولته ص292.[19]

-المنجي القلفاط وآخرون: النصّ والخطاب في المباث العرفنية ص5/ 6[20]

-الأزهر رنّاد: نظريات لسانية عرفنية ص 198[21]

-لايكوف جونسون: الاستعارات التي نحيا بها ص 8[22]

-المرجع نفسه ص 21[23]

-الأزهر زنّاد: نظريات لسانية عرفنية ص199.[24]

- المرجع نفسه ص206.[25]

ا المرجع نفسه ص. 206[26]

المرجع نفسه ص 199[27] -

المعنى النّووي هي الخصائص الدّلالية التي تفيدها عبارة لغوية * ما بمقتضى بنيتها. أمّا المعنى الهامشي فهي الخصائص أو البلاغية التي تفيدها pragmatic propretiesالذّريعية العبارة اللّغوية انطلاقا من الاستعمال والسّياق "(ينظر لايكوف وجونسون ص 5.)

-لايكوف وجونسون: الاستعارات التي نحيا بها ص5.:.[28]

-الأزهر زنّاد: المرجع السّابق ص 199[29]

- المرجع نفسه ص211.[30]

- المرجع نفسه ص 207[31]

- المرجع نفسه ص211.[32]

- المرجع نفسه ص. 199[33]

- المرجع نفسه ص206.[34]

-جليلة حمّودة: المرجع السّابق ص 293[35]

-جليلة حمّودة: المرجع نفسه ص293نقلا عن فان ديك: النصّ بنى ووظائف ص161.[36]

- الأزهر زنّاد: المرجع السّابق ص 200[37]

-المرجع نفسه ص206.[38]

المرجع نفسه ص212[39]

ينظر في هذا الامر عنوان الكتاب الذي اجتزَأ منه الباحث

*هذا النصّ وهو اخبار الحمقى والمغفّلين لابن الجوزيّ

-الأزهر زنّاد: المرجع نفسه ص212نقلا عن ابن الجوزي: أخبار الحمقى والمغفّلين ص46.[40]

-المرجع نفسه ص212.[41]

- المرجع نفسه [42]

-المرجع نفسه ص 215[43]

-المرجع نفسه ص213.[44]

-المرجع نفسه ص215.[45]

-المرجع نفسه ص219نقلا عن المسعدي: مسرحية السدّ ص13.[46]

-المرجع نفسه ص 219[47]

- المرجع نفسه ص 219.[48]

محمّد بازي: البنى الاستعارية نحو بلاغة موسّعة ص68.[49]

سمات الخطاب القرآني دراسة في الأسلوب

الدكتور عبد الله علمي
جامعة القاضي عياض/المغرب

الملخص :

الملخص يحاول هذا المقال دراسة السمات الأسلوبية للخطاب القرآني، حيث بدأ ببيان عام حول أنواع الخطاب في القرآن الكريم. ثم وقف على طريقة تقديم القرآن قضاياه أسلوبيا. فالتركيب القرآني جاء شديد الترابط والإحكام، والعبارات سيقت بدقة مختارة حسب المقام .حيث حاجَّ القرآن الناس بأسلوب خَطابي جمع بين صيغة العموم وصيغ الخصوص؛ ليخاطب القرآن الجميع بعبارة (يا أيها الناس)، ثم يفرد كل واحد حسب المقام والمقصد المراد إبلاغه. فيخاطب المسلم والكافر، والمؤمن والمنافق، ثم يخص بالخطاب أحيانا المرسلين المكلفين بإيصال معاني الوحي. كما صاغ القرآن خطابه بأسلوب وازن بين العقل والعاطفة؛ ليجمع بين الإقناع والإمتاع .

Cet article Étudie les caractéristiques stylistiques du discours coranique, en commençant par une déclaration générale sur les types de discours du Coran. Puis il se tenait la façon du Coran présenter Ses problèmes. La syntaxe coranique était très serrée, et les phrases étaient soigneusement choisies. Où le Coran convaincre les gens dans un style rhétorique, et lie entre les Formules générales et les Formules spéciaux. Puis Il utilise Chacun selon les différentes circonstances. Le Coran a formulé son discours Dans un équilibre entre l'esprit et l'émotion, et il a comtsiné entre l'art de lire et l'art d'argumentation.

الكلمات المفتاحية: الأسلوب – الخطاب –القرآن

تقديم:

منذ نزول الوحي، شد أسلوب الخطاب القرآني اهتمام العرب، فخر جبابرة البيان صاغرين لبلاغته؛ لأنه كلام الخالق المعجز. كل كلمة فيه لها وقع على النفوس، وكل عبارة تجمع هذه الكلمات تصور لنا معنى كاملا بشكل دقيق.

والحق أقول لا يمكننا تصور مدى تفرد أسلوب الخطاب القرآني إلا بالمعرفة الدقيقة لعلم البلاغة "فالإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خص الله به كتابه من حسن التأليف وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع؛ والاختصار اللطيف إلى غير ذلك من محاسنه؛ التي عجز الخلق عنها؛ لأن البلاغة تُعتبر من أهم وسائل إدراك الإعجاز القرآني، وذلك بأن يتمكن البليغ فيها ويتقنها ويفهم أساليبها وفنونها" [1].

إن أسلوب الخطاب القرآني متكامل من جميع نواحيه، فهو قمة في بنائه؛ تجد بين الحرفين ملاءمة وحبكا، وبين مفرداته تناسبا وائتلافا، وبين الجمل ترابطا

وتكاملا، "فالكلام يقوم بأشياء ثلاثة لفظ حامل ومعنى به قائم وربط لهما ناظم، ثم إن القرآن هو الذي جمع نهايات الفضل في هذه العناصر الثلاثة، فإذا تأملته وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة؛ حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظما أحسن تأليفا؛ وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه، وأما المعاني فلا يخفى على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها والترقي إلى أعلى درجات الفضل في نعوتها وصفاتها" [2]

فأسلوب الخطاب القرآني معجز اتصالا وانفصالا، أما الانفصال: فعباراته الدالة على الحقيقة؛ والمجاز المعبرة بأساليب التشبيه؛ والاستعارة؛ والكناية ... أسلوب لين إذا أراده الله كذلك، وعنيف قاصف إن أراده ذلك.

والاتصال: يظهر في طريقة تركيب الجمل المترابطة مع أخواتها، بشكل يجسد مشاهد تختلف من موضع لآخر لا سبيل للبشر بها؛ ولا طاقة لهم في اتباعها؛ أو السير على منوالها [3].

ومما يزيد أسلوب القرآن تميزا وتفردا؛ أنه يظل جاريا على نسق واحد في السمو والجمال لفظا ودقة وعمقا؛ مع تباين موضوعاته المختلفة.

فالقرآن تشريع؛ وقصص؛ وأخبار غيب؛ ومواعظ خاطب بها صنوفا مختلفة من الناس تتعاقب مع تعاقب الزمان.

إنه أسلوب يروم الخطاب مرة بصيغة العموم، وتارة بصيغة الخصوص، ويوجه كلامه تارة للمرسلين؛ وأخرى للمسلمين؛ والمؤمنين؛ والكافرين؛ والمنافقين.

المحور الأول: أنواع الخطاب القرآني

1– خطاب عام:

نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[4]، وقوله تعالى على لسان سليمان: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾[5]، ويتجلى ذلك أكثر في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[6].

وفي السياق نفسه يقول عز من قائل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[7]، وقال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[8]، وفي غير ذلك من الآيات؛ التي يكون فيها الخطاب موجها للعموم، على عكس بعض الآيات التي يبتغي فيها القرآن أسلوب التخصيص.

2– خطاب خاص:

أ– خطاب موجه للأنبياء والرسل:

مثل قوله تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾[9]، وقوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[10]، وقوله جل وعلا: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[11].

ب– خطاب موجه للمؤمنين والصالحين:

مثال قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾[12]، و قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ

إن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[13]، وقوله جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[14]، وقوله جل ذكره: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[15] ... وغيرها من الآيات المدنية التي تبتدئ ب (يا أيها الذين آمنوا)؛ والتي تأتي إما آمرة أو ناهية؛ مثل قول الله جل وعز: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾[16]، وقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾[17].

ج- خطاب موجه لأهل الكتاب:

نحو قوله تعالى:﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[18]، وقوله جل شأنه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [19]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[20].

د- خطاب موجه للمنافقين:

مثل قول الله: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[21]، وقوله جل شأنه: ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾[22].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَ بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [23].

المحور الثاني: أسلوب الخطاب القرآني

راوح القرآن بين العام والخاص في الأسلوب بشكل فريد شامل، يخاطب العقل والضمير، لا هو بالأدبي الذي ينساق وراء العاطفة والوجدان، ولا بالعلمي أو الفلسفي الذي يهتم بالعقل وحده.

إنه آيات علمية تعرض حقائق الكون، وروعته، ودقة قوانينه، ونظمه، واتساق مجراته.

مثال ذلك ما نجده في تأملنا لقوله عز وجل: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَ مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَ إِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أَ مَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَ إِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[24].

أوردت هذا النص رغم طوله؛ لأنه يلخص أسلوب الخطاب القرآني، الجامع بين دقة خطاب تقريري

يلخص حقائق كونية علمية، وسلاسة العبارة؛ التي تجذب متلقي الخطاب.

فالنص تحدث عن السماوات والأرض، مبينا قدرة الخالق، وذكر حقائق برهن عليها عقلا، لكن المثير هو الكيفية التي سرد بها هذه المسائل العلمية، والتي تقتضي توظيف أسلوب جاف تقريري كما هي العادة، لكن النص جاء بشكل عذب سائغ متصل يشعر مستمعه بالمتعة، ويخاطبه بالحجة والبرهان في الآن نفسه.

فالخطاب القرآني يجمع بين: بلاغتي الإمتاع والإقناع.

وبهذا الاعتبار يظل أسلوب القرآن في منزلة عليا من الفصاحة والبلاغة؛ رغم التباين في الموضوعات كما سبق ذكره.

فالخطاب القرآني؛ وعد ووعيد؛ وحِكم ومواعظ...، كلها تخدم قضية التوحيد وباقي المكارم التي ترتقي بالإنسانية.

هذا إن نظرنا إلى كتاب الله بشكل كلي، أما إن فككنا بنيته؛ فإننا نجده يمتاز بخصائص تتجلى في:

1 فصاحة الألفاظ:

لأننا إذا تأملنا الخطاب القرآني وجدنا الإبداع ظاهرا في احتوائه أفصح الألفاظ الرائعة المعبرة؛ التي يستحسنها السمع، فأي مفردة منه تناولتها بالفحص وجدت حروفها متآلفة.

فتجد في مفرداته البليغ الرصين؛ الجزل في موطنه، والفصيح القريب اللين في موطنه أيضا، ولو استعرضته كله مرارا وتكرارا ما رأيت فيه البتة لفظا حوشيا موحشا، ولا هجينا مذموما؛ أو ثقيلا كريها مما تنفر منه الطباع المهذبة؛ أو تمجه الأسماع المرهَفة.

وقد شهد جل علماء العربية أن ألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزُبدته، وأن ما عداها وعدا الألفاظ المشتقات منها كالقشور والنوى بالنسبة إلى أطايب الثمر، وكالحثالة والتبن بالنسبة إلى لبوب الحنطة [25] .

إن خطاب القرآن ينبو عن الغريب الحوشي، ألفاظه سهلة مُيسرة لمن أراد أن يذَّكر.

2 مناسبة الألفاظ للمعاني:

هذه الخصيصة يتفرد بها أسلوب الخطاب القرآني، فربما تخير الألفاظ للمعاني المتداولة يسهل؛ لكن الأمر شاق مع المعنى البارع، وهذا ما نجده مكينا في خطاب القرآن؛ الذي أتى بألفاظ بديعة لمعان جديدة في العقيدة والشريعة.

فوافق بذلك المعنى اللفظ في البراعة، عكس بلغاء البشر، فكثيرا ما يتعثرون ويخفقون في اختيار الألفاظ المثلى للمعاني المألوفة.

ومن أقرب ما يدل على ذلك، نقد الخنساء لحسان بن ثابت في سوق عكاظ عند قوله:

لنا الجَفناتُ الغُرُّ يلمعنَ بالضُّحَى

وأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِن نَجْدَةٍ دَمَا

... قالت الخنساء: أضعفت افتخارك في ثمانية مواضع[26]، وهي التي وقع فيها الوهن لحسان في بيت الشعر، وهذا يبين عظم الأمر.

3 الدقة في الاختيار:

كل لفظة من ألفاظ الخطاب القرآني تُختار بشكل دقيق؛ لتؤدي المعنى بطريقة بليغة، وأمثلة ذلك في القرآن كثيرة. يقول الجاحظ: "وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها، وغيرها أحق بذلك منها. ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الكريم (الجوع) إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة. وكذلك ذكر (المطر)؛ لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام. والعامة

وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث (...).

والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر، وأولى بالاستعمال (...) والعامة ربما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما، وتستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالا؛ وتدع ما هو أظهر وأكثر، ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار ولم يسر أجود منه وكذلك المثل السائر"[27].

فالجاحظ يشير إلى الدقة الشديدة في اختيار ألفاظ الخطاب القرآني؛ لأن المعنى يتغير ويحسن بلفظ، ويصبح رديئا بآخر. ورب لفظ يحمل من الدلالة ما لا يملكه مرادفه. ويتأكد هذا بتأملنا أسلوب الخطاب القرآني؛ الذي لو أردت أن تستبدل فيه كلمة مكان أخرى لأرقك الأمر، وأحسست بحمل لا طاقة لك به.

4 حسن النظم:

فالنظم أكثر ما يشد ويجذب في خطاب القرآن، وبه فاق جميع أنواع الخطاب؛ لأن الكلمة تحسن في موطن وتتألق؛ في حين تظهر شوهاء شنيعة في موقع. حيث تجد لفظة واحدة في آية من القرآن؛ وفي بيت من الشعر؛ أتت في القرآن جزلة متينة، وفي البيت الشعري ركيكة ضعيفة، مثل خطاب الله لصحابة الرسول، قال تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ **يُؤْذِي** النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾[28] .

وقول المتنبي:

تَلَذّ لهُ المُروءَةُ *وهيَ تُؤذي* ومَنْ يَعشَقْ يَلَذّ لهُ الغَرامُ

فهذا البيت من أبيات المعاني الشريفة؛ إلا أن لفظة (تؤذي) جاءت فيه وفي الآية من القرآن، فحطت من قدر البيت لضعف تركيبها، عكس تركيب الآية؛ الذي وافق فيه اللفظ غرض الخطاب.

ذلك أن لفظة (تؤذي) إذا جاءت في الكلام ينبغي أن تكون مندرجة مع ما يأتي بعدها متعلقة به كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾، لا كما جاءت في قول المتنبي:

تَلَذّ لهُ المُروءَةُ *وهيَ تُؤذي*

ومَنْ يَعشَقْ يَلَذّ لهُ الغَرامُ [29].

إذن: الخطاب القرآني تفوق بنظمه أولا على أعذب الشعر وأكثره بهاءً ورونقا وجزالة، فهو كما قال الرماني: "أتى بطريقة مفردة خارجة عن العادة، لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة" [30].

5 جودة السبك:

تتماسك ألفاظ الخطاب القرآني بشكل يشد بعضها بعضا؛ لتتآخى جرسا وإيقاعا؛ إذ يستحيل الاستغناء عن كلمة من الآيات دون الإخلال بالمعنى؛ لأن الكلمات في القرآن مختارة لمغزى يقصد الخطاب إبلاغه.

فالخطاب في القرآن يأتي بصياغة مقصودة، وحروف مُحكمة؛ تؤدي جرسا وإيقاعا دقيقا، لا يتم المعنى إلا بها، وهذه خصيصة من خصائص الخطاب القرآني.

6 دقة الفواصل:

يُذيّل الخطاب القرآني بفواصل تمنحه طابعا خاصا مميزا، هذه الفواصل ترتبط ارتباطا وثيقا ودقيقا بالمعاني، ولذلك دور عظيم "فالفواصل حروف متشاكلة في المقاطع، توجب حسن إفهام المعاني"[31].

وهي بخلاف قوافي الشعر وباقي أنواع الخطاب المؤثر؛ التي تتماثل في الحرف الأخير، حيث نلاحظ هذا بكثرة في الخطاب المكّي، والذي ترتبط فيه الفاصلة بما قبلها من الآية، وهذا ما يسمى بالتصدير، أو ما يسميه البلاغيون رد الأعجاز على الصدور [32]، أو تدل على

معنى قبلها، كما في قول الله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾[33].

فكلمة مظلمون دلت على انسلاخ النهار من الليل، وقد تُمهد الآية بمعنى يناسب الفاصلة، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾[34].

فتبليغ الرسالة أثار في الذهن وظيفة مهمة وهي الإبلاغ؛ لذا جاءت الفاصلة بالبلاغ المبين، ويسمى هذا تمكينا [35] .

وقد تأتي الآية بمعنى تام، ثم تزيد الفاصلة هذا المعنى كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾[36]. وهذا يسمى إيغالا[37]، فالفاصلة أوغلت في التعبير عن التولي، وبالغت في تصوير الإعراض، وهذا غرض الخطاب في هذا المقام.

المحور الثالث: ميزات الخطاب القرآني

1- توجيه الخطاب لجميع العقائد:

خاطب النص القرآني جميع الناس على اختلاف معتقداتهم، ودليل ذلك قول الله : "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ "[38].

فالآية تضمنت إفراد الله تعالى بالحمد كله[39]، وأبطلت في الحين نفسه جميع المعتقدات مهما تعددت واختلفت؛ لأن الله تعالى بين أنه خالق السماوات والأرض، والظلمات والنور، فتأكد ضمنا أن عباد هذه المخلوقات على ضلال، وقال بعدها ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

ثم أبطل عدولهم عن الصواب، وبين بالحجة التي تعرض حقيقة خلق الإنسان وتقدير أجله؛ ليقول: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، أي: أنهم يكابرون والله عليم بهذا، فهو في السماء وفي الأرض مطلع على السر والعلن.

وفي خطاب القرآن على لسان إبراهيم – سلام الله عليه – قومه نجد الاستعراض الواضح البين للمعتقدات المخالفة، قال الله تعالى :﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[40].

فأقام إبراهيم – عليه السلام – خطابه هذا على الحجة العقلية؛ والتي تستعرض المعتقدات المختلفة لتثبيت العقيدة التي ينوي تبليغها.

وهذا جلي أيضا في خطابه للنمرود عند قول الله – عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[41].

وبالأسلوب نفسه خاطب موسى – عليه السلام – فرعون لما ادعى أنه هو الإله، وأن ليس في الدنيا رب سواه، قال موسى – عليه السلام – متسائلا: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾[42].

ويأتي الخطاب في القرآن قويا للمتطفلين على حاكمية الله في الأرض، المعتقدين أنهم مشرعون يحلون ويحرمون حسب أهوائهم من دون الله، قال الله: ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [43] .

كما خاطب القرآن الملحدين لما: ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، فقال: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾[44].

2- التوجه بالخطاب للعامة والخاصة:

خطاب القرآن الجميع على تفاوت الدرجات، واختلاف القُدرات؛ ليجد فيه الكل بغيته في آن واحد.

فالقرآن جمع بين العمق والمتانة مع السهولة واليُسر، ولو أنه خاطب الأذكياء بالواضح المكشوف؛ الذي تُخاطب به الأغبياء؛ لنزل بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب، ولو أنه خاطب به العامة باللمحة والإشارة؛ التي يخاطب بها الأذكياء؛ لجاء من ذلك بما لا تطيقه عقولهم؛ لأنه لا غنى للمخاطب إن أراد أن يعطي الطائفتين حظهما من تنويع البيان.

فما يُخاطب به الأطفال، غير ما يُخاطب به الرجال؛ لأن الجملة الواحدة تُلقى إلى العلماء والجهلاء، وإلى الأذكياء والأغبياء، وإلى السوقة والملوك في كتابنا العظيم.

فيراها كل منهم مقدرة على مقاس عقله ووفق حاجته[45]، ورسول الله – صلى الله عليه وسلم –، بُعث في أمة أمية؛ ليبين لهم الطريق الحق.

وكان ذلك على قدر عقولهم ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [46].

يقول السيوطي في معرض شرح الآية: "إن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام؛ فإن من استطاع أن يُفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم يتخط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون، ولم يكن مُلْغِزا، فأخرج الله تعالى مخاطبته في محاجات خلقه في أجلى صورة؛ ليفهم العامة من جليلها ما يقنعهم ويلزم الحجة، وتفهم الخواص من أثنائها ما يُربى على ما أدركه فهم الخطباء"[47].

لقد زاوج كتاب الله في حواره بين السهل والمبهر في الآيات نفسها بشكل معجز أخاذ للعقل، إنه يتماشى على قدر طاقة ضعيف الفهم، ويرتقي ليُبهر قوي العقل، فمن الناس من يُصدق بالبرهان ومنهم من يصدق بالأقوال الجدلية تصديق صاحب البرهان بالبرهان، إذ ليس في طباعه أكثر من ذلك، ومنهم من يصدق بالأقاويل الخطابية كتصديق صاحب البرهان بالأقاويل البرهانية [48].

وقد أعلن الله – جل وتقدس – عن منهج الخطاب القرآني صِراحا، وألزم رسوله به أثناء مجادلة قومه، قال – تعالى –: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[49].

لأن الناس تختلف قدرتهم العقلية التي فطرهم الله عليها، بين عقل لا يقنعه النظر الأولي بل يتغلغل ويتبحر في الأدلة، وهذا يحتاج لبسط الدليل لإيصال الفكرة والتدليل على عمقها، ومن الناس من تكفيه الفكرة المتناسبة مع وجدانه، ومنهم من يروقه الجدال.

3- خطاب الإقناع والإمتاع:

إن الأسلوب القرآني عامة هو أسلوب تصويري، يمتاز بالتشويق وحسن النظم، أضف إلى ذلك قوة الإقناع وشدة التأثير.

وهذا جلي في الخطاب الدعوي[50]، وما يجعلني أقف عند هذه الخصيصة، هو الجمع العجيب بين قوة الإقناع في الخطاب المتوجه للعقول بشكل خاص، وبين الجمال الأخاذ؛ الذي ينبعث من الوجدان؛ ليشد العاطفة.

ومُحال أن يجمع أسلوب بين الضربين مهما بلغت بلاغته وارتفعت حكمته، سل علماء النفس هل رأيتم أحدا تتكافأ فيه قوة التفكير وقوة الوجدان وسائر القوى النفسية على السواء؟ ولو مالت هذه القوى إلى شيء من التعادل عند قليل من الناس فهل ترونها تعمل في النفس دفعة واحدة؟ يجيبوك بلسان واحد: كلا بل لا تعمل إلا متناوبة في الحال وكلما تسلطت واحدة منهن اضمحلت الأخرى وكاد ينمحي أثرها [51] .

ولعل السر في ذلك راجع إلى علم الله المطلق، فالله الحكيم – جل شأنه – أحاط بكل شيء علما، لا يعتريه نقص حكيم البشر؛ الذي يتوجه لمخاطبة العقل مستجليا الحقائق ، منهمكا في البراهين ،لا يبالي لجفاء الأسلوب .

أما الشاعر فعلى النقيض ناقص هو الآخر، بينما هو يستجلب النفوس ويدغدغ العواطف يذهب عن قوة البرهان، ويتيه عن إشباع العقل، فمن لك إذا بهذا الكلام الواحد؛ الذي يجيء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يرتضي حتى أولائك الفلاسفة المتعمقين، مع المتعة الوجدانية الطيبة بما يرضي حتى هؤلاء الشعراء المرحين[52]، ذلك الله رب العالمين، فهو الذي لا يشغله شأن.

وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معا بلسان واحد، وأن يمزج الحق والجمال معا يلتقيان ولا يبغيان. وأن يخرج من بينهما شرابا خالصا سائغا للشاربين[53].

4- الإحاطة بما يؤثر في النفس:

يقول تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[54]، فالله – جل شأنه – هو العالم بالخصائص الذاتية للمخلوقات المخاطبة بالقرآن وما جُبلت عليه من غرائز؛ وفطرت عليه من حاجات.

ولذا فإن الخطاب القرآني يركز على هاته المؤثرات.

فهو يخاطب الحنان والعاطفة الميالة للجنس والانتماء الأسري؛ وحب البيت والقبيلة، قال تعالى مثيرا عاطفة الإنسان الاجتماعية: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾[55].

وقال:﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[56] .

كما قال في ذم ما يصبو إليه البشر من حب المال؛ والتملك؛ والحرص؛ والطمع؛ وحب الخلود؛ والتمسك بطول الأمد: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[57].

فالملاحظ من خطاب القرآن أنه يركز كثيرا على الغرائز المحيطة بالإنسان؛ لأن ذلك أنجع طريق

للهداية والدفع بالأقوام لسبل الطاعة؛ وإبعادهم عن طرق الغواية.

فالقرآن رغب ورهب؛ لأن خطابه الأول في نظري كان مع النفس البشرية؛ التي ترغب في نعيم المؤمنين، وتحذر من عذاب الكافرين، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾[58].

5- عرض الآراء بلا زيادة ولا نقصان:

في حال اختلاف وجهات النظر؛ وفي حال ائتلافها؛ يسعى الخطاب القرآني إلى عرض الآراء بشكل تتضح فيه جميع الأطراف بشكل جلي.

مثلا: خطاب موسى للعبد الصالح، أو خطاب ملكة سبأ لقومها؛ الذي تتفق فيه الأطراف، عكس حوارات الرسل وأقوامهم المعاندين، الذي تتضارب فيه الآراء.

والقرآن في هذه الحالة؛ أو تلكم يسعى إلى كشف وجهة نظر كل طرف بصدق وأمانة ودقة.

فهو لا يضيق ذرعا بذكر آراء المخالفين مهما بلغ حد الخلاف، وفي الوقت ذاته يسعى لكشف زيغهم وإظهار زيف كلامهم، كما في الأمثلة السالفة.

6- تأسيس الخطاب على دلائل وبراهين وأقيسة عقلية:

يقول القاضي عياض: "فجمع فيه – أي القرآن – من بيان علم الشرائع والحجج والتنبيه على طرق الحجج العقليات؛ والرد على فرق الأمم ببراهين قوية وأدلة بينة سهلة الألفاظ موجزة المقاصد"[59].

أي: إن القرآن سلك طرقا للحجاج العقلي، وقد ذكرها بتسمية الميزان، وبهذا اللفظ عبر الإمامان ابن تيمية والغزالي واستدلا بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[60]. وبقوله جل وعز: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾[61].

وهذا الميزان ليس خاصا بالأعيان[62]، بل يشتمل كل ما تعرف به المقادير من الأوزان؛ والأطوال؛ والأحجام.

وتُعرف به تماثل المتماثلات، واختلاف المختلفات، وكذلك تُعرف به الفروع المقيسة بالموازين المشتركة بينها، وهي الوصف الجامع المشترك؛ الذي يُسمى الحد الوسط أو العلة [63]، والمقصود بالعلة: ما يتوقف عليه وجود الشيء ويكون خارجا مؤثرا فيه[64].

7- خطاب وجيز تام المعنى:

إذا كان الإيجاز مرغوبا فيه في سائر الكلام، فهو في الخطاب المباشر أكثر إلحاحا وأشد ضرورة؛ لأن من دعائم الفصاحة أن ينتقل الكلام للطرف الآخر بشكل مختزل بلا نقص مخل ولا إسهاب ممل رتيب، وهذا محال في كلام البشر، فالذي يعمد إلى إدخال اللفظ وعدم الاتفاق منه إلا على حد الضرورة لا ينفك من أن يحيف على المعنى قليلا أو كثيرا.

وذلك أنه إما أن يؤدي لك مراده جملة لا تفصيلا، وإما أن يذهب فيه إلى شيء من التفصيل.

لكنه إذ يأخذه الحذر من الإكثار والإسراف يبذل جهده في ضم أطرافه، وحذف ما استطاع من أدوات التمهيد، والتشويق، ووسائل التقرير والتثبيت، وما إلى ذلك مما تمس إليه حاجة النفس في البيان، حتى يخرجه ثوبا متقلصا يقصر عن غايته، أو هيكلا من العظم لا يكسوه لحم ولا عصب.

ورُبَّ حرف واحد من الكلام يذهب بمائه ورونقه، ويكسف شمس فصاحته، ورُبَّ اختصار يطوي الكلام طيا يزهق روحه ويعمي طريقه ويرد إيجازه عيا وإلغازا [65].

ولنستبين تمكن القرآن وتفرده فيما أورد، أسوق نموذجا سبق وأن اعتمدته: لاحظ معي براعة الإيجاز و غزارة المعنى، يقول – تعالى–: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[66]، فالآية اختزلت معاني عِظَام، ودلائل كبيرة الإبهار، بشكل في غاية الاختصار.

حيث بدأت مشهد المناظرة بين إبراهيم والنمرود في القرآن بتحديد الهدف العام منها، وهو: تفرد الله بالربوبية دون غيره.

ثم تشكلت بعد ذلك أطراف المناظرة الأربع بتصوير مختصر، والتي حصرها طه عبد الرحمان في أربعة أركان[67]:

- طرفا المناظرة في الخطاب القرآني: (إبراهيم والنمرود)
- الدعوى في الخطاب القرآني: (إثبات الربوبية، هل هي لله وحده لا شريك له، أم للنمرود أيضا؟)
- أخلاق الطرفين في الخطاب القرآني: حيث اتصف إبراهيم بالهدوء والذكاء، واتصف النمرود بالكبر والادعاء والمغالطة بالقول.
- المآل في الخطاب القرآني: وهي النهاية، والتي لخصها قوله تعالى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾.

ويرجع السبب الرئيس في نجاح إبراهيم – عليه السلام – في مناظرته إلى اختياراته المباشرة، وأسلوبه المختصر في الكلام.

حيث احتج بحجة واضحة يدركها كل عاقل، وهي أن الرب الحق هو الذي يحيي ويميت، وكل واحد يعلم بالضرورة أنه لا يستطيع إحياء ميت، فلذلك ابتدأ إبراهيم الحجة بدلالة عجز الناس عن إحياء الموتى[68].

لكن النمرود رد بأسلوب مغالط، فبدل أن يرد على طرح إبراهيم بالحجة نفسها؛ تجاهل المطلوب.

وراح يبرهن على طريق المجاز عن شيء آخر اعتمادا على منصبه السلطوي، قال: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾، أي: أنه يأخذ الرجل ويحكم عليه بالقتل، في حين يعفو عن الآخر.

وهو تهديد ضمني لإبراهيم ليتراجع، وهذا سلوك كل متكبر متسلط بعدما يحس بالهزيمة والفشل.

ولم يدخل إبراهيم البتة في جو المراء، بل سلم كأن النمرود على حق، ورد عليه بالأسلوب نفسه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾، على طريق الحجاج بالانتقال.

حيث أخرجه من دائرة الربوبية؛ التي أدخل نفسه فيها بالاستدلال المنطقي؛ الذي لا سبيل فيه للمغالطة.

أي: إذا كنت تدعي أنك تحيي وتميت، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته، وتسخير كواكبه وحركاته.

فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلها كما ادعيت فات بها من المغرب؟ فلما علم عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بُهت، وقامت عليه الحجة[69]، وبهذا فند إبراهيم – عليه

السلام – طرح النمرود الأول بطريق غير مباشر، ليحسم المناظرة، وليرد على تهديد النمرود السالف.

تقويم:

برع الخطاب القرآني أسلوبيا اتصالا وانفصالا، فالتركيب جاء مترابطا شديد الإحكام، والعبارات سيقت بدقة مختارة حسب المقام: غيب وعقيدة، قصص وأخبار، تشريع، ثم وعظ أخلاقي ...

وجاء هذا بأسلوب خَطابي جمع بين صيغة العموم وصيغ الخصوص؛ ليخاطب القرآن الجميع بعبارة (يا أيها الناس)، ثم يفرد كل واحد حسب المقام والمقصد المراد إبلاغه.

فيخاطب المسلم والكافر، والمؤمن والمنافق، ثم ليخص بالخطاب أحيانا المرسلين المكلفين بإيصال معاني الوحي.

وصاغ القرآن خطابه بأسلوب وازن بين العقل والعاطفة؛ ليقنع ويمتع، وجاء هذا كله في قالب اصطلح عليه علماء البلاغة بالنظم.

ولعل أهم أسباب الإعجاز الخَطابي في القرآن إحاطة المخاطِب: (الله) – تقدس – بما يؤثر في النفوس المخاطَبة، وهذا لا يتأتى لأحد مهما بلغ درجة الكمال.

وعليه: فالخطاب القرآني، أقنع المخاطَب أحيانا بأسلوب عاطفي وجداني، وأخرى بأسلوب علمي عقلي حسب المقام؛ ليجمع بين الترغيب والترهيب.

ثم عرض كل الآراء بمنهجية شديدة الحياد والصدق، وبأمانة ودقة، وصاغ كل هذا في قالب موجز تام المعنى، ليخرج بالخطاب أحيانا بطريق مباشر كمقامات التشريع مثلا، ويوجه الخطاب أخرى عن طريق الحوار والمناظرة والتي تتغيا بالدرجة الأولى إبلاغ رسائل القرآن العقدية بشكل مشوق يثير انتباه المخاطب بخطاب التوحيد.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، للقاضي أبو السعود محمد ابن مصطفى العمادي ت982هـ، وضع حواشيه: عبد اللطيف عبد الرحمان، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة1999م.
- إعجاز القرآن الكريم والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتب العربي بيروت، بدون تاريخ.
- أضواء بلاغية على جزء الذاريات، عبد القادر حسين محمد، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.
- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، مطبعة مصطفى البابي مصر، الطبعة الرابعة، 1978م.
- الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة القاهرة، الطبعة الثانية، 1997م.
- البيان والتبين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، الطبعة السابعة، 1998م.
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي ت794هـ، تحقيق محمد أبو الفضل، المكتبة العصرية صيدا بيروت، 1972م.
- التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني ت816هـ، تحقيق: إبراهيم الأباري، دار الكتاب العربي، لبنان، الطبعة الأولى، 1405هـ.

- تفسير القرآن العظيم، لعماد الدين إسماعيل بن كثير ت784هـ، علق عليه أحمد محمد شاكر وعبد الرحمان بن ناصر السعدي، ومحمد بن صالح العثيمين، ومحمد ناصر الدين الألباني، ومقبل بن هادي الوادعي، وصالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار الآثار للنشر والتوزيع، 2009م.
- التحرير والتنوير، لمحمد بن عاشور، الدار التونسية للنشر، بدون تاريخ.
- ثقافة الحوار في الإسلام، لمحمد الكتاني، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الأولى، 2007م.
- الرد على المنطقيين، تقي الدين أحمد بن تيمية ت 728هـ، دار المعرفة بيروت لبنان، بدون تاريخ.
- الصناعتين الكتابة والشعر، لأبي الهلال العسكري ت395هـ، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية بيروت لبنان، 1986م.
- فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، ابن رشد، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، دار المعارف، دون تاريخ.
- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمان، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب، الطبعة الثانية، 2000 م.
- معجم مفردات ألفاظ القرآن، أبو القاسم الراغب الأصفهاني، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 1997م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير ت637هـ، قدمه وعلق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة، بدون تاريخ.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، ضبطه وصححه وكتب فهارسه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 1988.
- النكت في إعجاز القرآن، لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول النجار سلام، دار المعارف القاهرة، الطبعة الثانية، 1968 م.
- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، لمحمد عبد الله دراز، دار القلم، بدون تاريخ.
- شرح الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، علي القاري، دار النوادر، دون تاريخ.

هوامش البحث:

[1] الصناعتين، أبو الهلال العسكري، ص:167

[2] الإعجاز البلاغي، أبو موسى، ص:53

[3] أضواء بلاغية على جزء الذاريات، عبد القادر حسين، ص:4

[4] الحج، الآية:49

[5] النمل، الآية:16

[6] البقرة، الآية:21

[7] البقرة، الآية:168

[8] النساء، الآية :170

[9] مريم، الآية:6

[10] مريم، الآية :11

[11] المائدة، الآية:112

[12] البقرة، الآية:104

[13] البقرة الآية :172

[14] البقرة، الآية :183

[15] النساء، الآية :59

[16] آل عمرآن، الآية :103

[17] الإسراء، الآيات:31-34

[18] آل عمران، الآية:64

[19] آل عمران، الآية:99

[20] المائدة، الآية:70

[21] التوبة، الآية:53

[22] التوبة، الآية :64

[23] التوبة، الآية:65

[24] النمل: الآيات:59-65

[25] مقدمة مفردات القرآن، الراغب الأصفهاني

[26] إعجاز القرآن، الرافعي، ص:255 - بتصرف -

[27] البيان والتبين، الجاحظ، ج1/ص:40

[28] الاحزاب، الآية:53

[29] المثل السائر، ابن الأثير، ج1/ص:145-146 - بتصرف-

[30] النكت، الرماني، ص:102

[31] الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1/ص:53

[32] نفسه، ج1/ص:78

[33] يس، الآية:36

[34] يس، الآية:15-16

[35] الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1/ص:78

[36] النمل، الآية :80

[37] السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج2/ص:96

[38] الأنعام، الآيات:1-4

[39] لأن إضافة (الحمد) للام التمليك أفاد التخصيص، أنظر إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ج3/ص:104

[40] الانعام، الآيات:76-80

[41] البقرة، الآية:258

[42] طه، الآيات :48-53

[43] الأنعام، الآيات:143-145

[44] المومنون، الآيات:82-90

[45] عبد الله دراز، النبأ العظيم، ص:113 - بتصرف -

[46] آل عمران، الآية:164

[47] السيوطي، معترك الأقران، ج1/ص:346

[48] ابن رشد، فصل المقال فيما بين الحقيقة والشريعة من الإتصال، ص:31

[49] النحل، الآية:127

[50] المقصود بالحوار الدعوي: أنباء الرسل، وما كان لهم سلام الله عليهم من شأن في الحوار، أنظر ثقافة الحوار في الإسلام، لمحمد الكتاني، أنماط الحوار في القرآن وموضوعاته، الحوار الدعوي، ص: 162

[51] النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص: 114

[52] نفسه، ص: 114

[53] نفسه، ص:116 - بتصرف -

[54] الملك، الآية:15

[55] النحل، الآية :72

[56] الروم، الآية:20

[57] الفجر، الآية:20

[58] النساء، اللآيات:55-56

[59] شرح الشفا في شمائل المصطفى، ج2/ص:748

[60] الحديد، الآية:24

[61] الرحمان، الآيتان:5-6

[62] أي: الأشياء بعينها

[63] الرد على المنطقيين، ابن تيمية، ج2/ص:113

[64] التعريفات، الجرجاني، ص:66

[65] النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص:109

[66] البقرة، الآية:257

[67] يقول طه عبد الرحمان: "لما كان غرض المناظرة أو البحث كما أطلق عليه إظهار الصواب، فقد حُددت لها شروط عامة كالآتي: أ- لا بد من جانبين، ب- لا بد لها من دعوى، ج – لا بد لها من مآل يكون بعجز أحد الجانبين، د – لكل من الجانبين آداب ووظائف"، طه عبد الرحمان، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص: 74

[68] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، 33/3

[69] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 287/1

الكلمة في شعر الشنفرى بين الدلالة والبدائل

د. العيفاوي حمزة
جامعة البليدة 2
قسم اللغة العربية وآدابها

الملخص:

أدرك الشعراء منذ القديم أهمية الكلمة وأثرها في الخطاب الشعري فعمدوا إلى حسن توظيفها من أجل تحقيق صفة الإبلاغ والإفهام، والشنفرى أحد أولئك الذين أجادوا استثمار طاقات اللغة، فجاءت كلماته معبرة وموحية استطاع بفضلها مخاطبة العقول والوجدان، والتأثير في المتلقي.

وانطلاقا مما سبق كان سعي هذه الدراسة هو التطرق إلى أسلوبية توظيف الكلمة في شعر الشنفرى وأثرها في توليد المعاني وتحقيق خاصية التبليغ والإفهام.

الكلمات المفاتيح: الكلمة، الدلالة، الرمز، الترادف، التطابق.

Abstract :

Ancient poets realized the importance of words and its influence in the poetic discourse. Hence, They focused in the well use of Words in order to fulfill high status of reporting and understanding meaning.

Chanfara was one of those poets who whirlyinvested in the energies Of language. His eloquent, suggestive and expressive words could easily address the conscience and mind of the reader.

To sum up, this thesis aims to study the stylistic use of the word in the poetry of chanfara on one hand and realizing the understanding and reporting features.

Key words: word, significance, sign, succession, counterpoint

مقدمة

تعتبر الكلمة الركن الثاني مباشرة بعد الصوت في عملية إنتاج الدلالة، وتكتسي أهمية كبيرة في النسيج الشعري، ولذلك تجد الشعراء حريصين على انتقاء الكلمات المناسبة ووضعها في مكانها الأنسب واستخدامه الاستخدام الأمثل الذي يحقق للغة صفة الإفهام والتبليغ، وهي «من أهم وسائل الشاعر في إبداع الدلالة باعتبارها المثير المادي للمعاني» [1]

والشاعر في سعيه إلى إبداع الدلالة خرج عن الاستخدام العرفي التقليدي دلاليا وسياقيا في استخدامه الخاص للكلمة، والمقصود هنا هو الاستخدام الفني الشعري، وكانت وسائله اللغوية لتحقيق التأثير والفعالية إمّا مباشرة صريحة كابتكار كلمات جديدة، أو استخدام

الكلمات استخداما خاصا بالاختيار والإيثار، أو استخدامه استخداما خاصا عن طريق توظيف السياق أو تحميلها دلالات رمزية أو الميل إلى الكلمات ذات الطول ...وهذه الوسائل تجتمع معا على غاية أسلوبية واحدة، وهي تحقيق التأثير والفعالية للكلمات. (2)

ومقاربتنا لأسلوبية توظيف الكلمة في شعر الشنفرى سنتطرق لها عبر خمسة عناصر: أولا الدلالة الرمزية للكلمة، ثانيًا طول الكلمة ودلالتها، ثالثا الترادف السياقي، رابعا التطابق اللفظي وأخيرا المصاحبة المعجمية.

01- الدلالة الرمزية

يتألّف معجم الشعر الجاهلي من طائفة من الألفاظ «تخرج عن حوزة معانيها المعجمية العرفية، إلى دلالات رمزية شبه اصطلاحية وهذه الدلالات الرمزية خاصية لغوية كامنة في بعض الألفاظ دون الأخرى؛ فليست جميع ألفاظ اللغة قادرة على أن ترمز، أو ليست صالحة لأن يُرْمز بها» (3)

ويعتبر الشنفرى أحد أولئك الشعراء الذين آثروا في بعض الحالات التعبير بالرمز والإيحاء بدل التعبير المباشر الاعتيادي، وهذا ما نلمسه في الأمثلة التالية، يقول: (4)

لقدْ أَعْجَبَتْنِي لا سقوطاً قِنَاعُها

إذا ما مشتْ ولا بذاتِ تلفُّتِ

في هذا البيت لا يعني الشاعر بكلمة تلفت المعنى الحرفي المباشر الذي يعني إمالة أو إدارة الرأس يمينا أو شمالا، وإنّما ينزاح بالكلمة إلى توظيف دلالي رمزي، في إشارةٍ منه إلى حياء حبيبته وخفرها عند مشيها، فعدم الالتفات إشارة إلى خلق كريم مستحبٍّ عند النساء.

وفي قوله:(5)

وأُمُّ عِيَالٍ، قدْ شَهِدْتُ تَقُوتُهُمْ

إذا أَطْعَمَتْهُمْ أَوْتَحَتْ وأَقَلَّتْ

فليس المقصود بالعيال هنا أهل البيت من الأولاد، إنما يشير الشاعر إلى خاله وصديقه في التصعلك تأبّط شرّا الذي تحمّل مسؤولية إدارة شؤون فئة الصعاليك وتسيير أمورهم، واستعار الشاعر الكلمة هنا لما لها من قوة دلالة فأم العيال دائما ما تحرص على سلامة أبنائها، ونفس الأمر بالنسبة لتأبّط شرا الذي يحرص دائما على عودة أقرانه الصعاليك من غزواتهم سالمين مظفرين.

وفي قوله: (6)

ولـو لمْ أرم في أهـل بيـتي قاعـداً

أَتَتْنِي إذن بين العمودين حَمَّتِي

فليس المقصود بالعمود ذلك القضيب من خرسانة أو خشب أو فولاذ، إنّما المقصود هنا هو البيت أو الخيمة، ومعنى البيت أنّ الموت لابدّ منه حتى لو لازم المرء بيته ولم يُعرّض نفسه للخطر.

ومن الرموز الشائعة في الشعر الجاهلي الصفات اللونية (7) ومن الألوان التي استخدمها الشاعر الأبيض، الذي نجده في قوله: (8)

إذا فَزِعُـوا طـارت بأبـيضَ صـارمٍ

ورامـت بمـا في جَفْرهـا ثمّ سـلّتِ

حيث انزاحت كلمة أبيض عن معناها المعجمي إلى المعنى العرفي وحملت مدلول السيف، إذ أن السيف عند العرب يكنى بهذا اللون، وفي هذا البيت يتحدث الشاعر عن تأبط شرا بعدما كنى عنه في بيت سابق بـ "أم العيال" وهو يجالد بسيفه الأبيض أعداءه ويبعدهم عن أصدقائه الصعاليك.

ومن الألوان ذات الدلالة الرمزية التي وظّفَها الشاعر أيضا: الأحمر للتعبير عن القوس، يقول: (9)

وباضِـعَةٍ حُمْـرِ القِسِـيّ بعثتُهـا ومنْ يَغْزُ يغْنَمْ مرّةً ويُشَمَّتِ

يرمز اللون الأحمر في هذا البيت إلى القوس التي جُعِلت حمراء إمّا لاتخاذها من شجر النبع الأحمر وإمّا لِقِدَمِها وإمّا لأنّ الشمس والأنواء غيّرت لونها [10] والشاعر يتحدث عن أهم عدة رفاقه الصعاليك المتمثلة في القسي التي تعتبر أهم أسلحتهم، والتي تحول لونها إلى الأحمر تبعا للعوامل الطبيعية.

ومن الترميز توظيف الصفات، وهذا على نحو ما نلمسه في قوله: [11]

حسامٌ كلون الملحِ صافٍ حديدُهُ جُـرازٍ كأقْطـاعِ الغَـدِيرِ المُنَعّـت

فالحسام صفة للسيف ومن أسمائه، والجُرَاز هو القاطع، وفي توظيف هذه الصفات إشارة إلى حرص الشاعر على تخير أجود السيوف وأحدّها.

02- الطول والدلالة

يعتبرُ طول الكلمة «من أبرز سمات لغة الشعر الجاهلي وأظهرها، بل من أهمّ العلامات التي تعرف بها تلك اللغة» [12]

وتكتسب الكلمات الطويلة طولها من خلال ما يتّصلُ بجذعها الأصلي من الزوائد، ومهما يكن فإنّ طولها وثقلها يتناسب وحياة الجاهلية الثقيلة الغريبة قبل أن تتخلص رويداً رويدا من ذلك الطول والثقل لتناسب بيئة امتدت مع الإسلام وتثبتت مع العصر العباسي، يطبعها التغير في إيقاع الحياة ومقتضيات العصر. [13]

وممّا يُضافُ إلى الطول «عدد من الخصائص الأخرى تتحقق جميعها أو بعضها في هذه الكلمات ومنها الغرابة والندرة، والثقل الصوتي، وعدم سهولة التعرف إلى الأصل» [14]

وبالرغم من إدراك ما سبق فقد استغلّ الشاعر الجاهلي عناصر الطول والثقل والغرابة في هذه الألفاظ استغلالا شعريًّا فنيًّا، وكأنّه كان يعمد إلى إطالة الكلمة ليدفعها إلى أعلى درجات الإيحاء والدلالة وقديماً لاحظ النحاة أنّ زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى. [15] ومن هذا الضرب من الكلمات في شعر الشنفرى نذكر الكلمات التالية:

كلمتا: غماليل، المتعسّف، في قوله: [16]

تعسّفْتُ منه بعدما سقطَ النّدى غَمَالِيلَ يخشى عليها المُتَعسِّفُ

كلمة العسّيف في قوله: [17]

ولسْتُ بِمِحْيَارِ الظّلامِ إذا انتحتْ هُدَى الهوجل العسّيف يهماءُ هَوجلُ

فكلمة غماليل يرجع أصلها إلى غَمَلَ، والغملولُ بالضم من بين معانيه الرابية [18] وهو ما يقصده في البيت، وكلمتا المتعسّف والعسّيف ترجعان إلى أصلٍ واحد وهو عَسَفَ التي تعني مَالَ وعَدَلَ [19] والمتَعَسِّفُ في البيت الأول تعني الراكب عن غير هداية، وهو نفس المعنى الذي حملته كلمة العسّيف.

كلمة مِخْشَفْ، وذلك في قوله: [20]

وآبَ إذا أجْـرَى الجَبَـان وظنُّـهُ فلي حيثُ يَخْشَى أن يُجَاوِزَ مِخْشَفُ

تعود كلمة مِخْشَفُ إلى الأصل الثلاثي خَشَفَ والتي تعني الحس الخفي والجريء على السُّرى أو الجوال بالليل [21] وتبدو الكلمة غريبة من حيث الدلالة وهذا راجع إلى قلة تداولها على الألسن هذا ما أدّى إلى غرابتها.

كلمة مُجَدّعَةً، في قوله: [22]

ولسْتُ بِمِهْيافٍ يُعَشِّي سَوَامَهُ مُجَدّعَـةً سُـقْبَانُهَا وهـي بُهَّـلُ

فالأصل اللغوي لكلمة مُجَدّعَة يعود إلى الجذر الثلاثي جدع الذي يعني المنع [23]وهي في هذا البيت تدل على الماشية سيئة الغذاء والتي مُنعت من التغذية الجيدة لسوء رعيها من قبل هذا الراعي الأحمق الذي يُبعد ماشيته طالبا المرعى على غير علم فيعود بها عشاءً

وأولادها جائعة، وجوع الأولاد كناية عن جوع الأمهات التي لا لبن فيها فيتغذى أولادها منه.

كلمة أكهَى في قوله: [24]

ولا جُبَّأَكْهَى مُربِّ بعِرْسِه يُطالعُها في شَأْنِها كيف يَفْعلُ

إذا ما عدنا إلى المعجم نجد أنّ أصل كلمة أكهى يعود إلى كَهِي، وأكهى عن الطعام امتنع وسخّن أطراف أصابعه بنفس [25] وتعني في هذا البيت الكَدِرَ الأخلاق الذي لا خير فيه والبليد، والشاعر ينفي عن نفسه هذه الصفة.

كلمة التنائف في قوله: [26]

وأغدو على القوت الزّهيد كما غدا أَزَلُّ تَهَادَاه التنَائِفُ أطحلُ

يعود أصل كلمة التنائف إلى الجذر تنف، والتنوفة هي المفازة أو الأرض الواسعة البعيدة الأطراف [27] وهو نفس المعنى الذي تحمله في هذا البيت، ومعنى البيت أنّ الشاعر في هذا البيت يشبه حاله بذئب نحيل الجسم جائع يتنقل بين الفلوات بحثا عن الطعام، ومجي كلمة التنائف دل على أنّ المكان واسع رحب مما يجعل عملية البحث عن الطعام غاية في الصعوبة، وجاء طول الكلمة دالا بطول واتساع الأرض التي يبحث فيه عن الطعام.

كلمة أضاميم في قوله: [28]

كأنّ وَغَاها حَجْرَتَيْهِ وحَوْلَه أضَامِيمُ من سَفْرِ القَبائلِ نُزَّلُ

فكلمة أضاميم تعود إلى الفعل الثلاثي ضمم، والضمُّ قبض شيءٍ إلى شيءٍ، وقد ضمّه فانضمَّ إليه وتضامَّ وضامَّهُ، واضطمّ الشيء جمعه إلى نفسه [29] وتدل هذه الكلمة على القوم الذين ينضمّ بعضهم إلى بعض في السفر.

إنّ مستقرئ معجم الشنفرى يلمس عددا مهماً من الكلمات الطويلة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

مهللة وتتقلقل [30] فكلمة مهللة يعود أصلها إلى هلل [31] أمّا كلمة تتقلقل فيعود أصلها إلى الفعل قلل [32] حثحثومحابيض [33] يعود أصل كلمة حثحث إلى حثث [34] أما كلمة محابيض فيعود إلى الأصل حبض. [35] تتصلصل [36] التي يرجع أصلها إلى الجذر صلل. [37] تتغلغل [38] التي يرجع أصلها إلى الجذر غلل. [39] يتململ [40] التي يرجع أصلها إلى الجذر ملل [41]

أما بالنسبة لخاصية الثقل الصوتي فجُلّ كلمات الشاعر وردت مؤتلفة الأصوات، أمّا ما يشعر به الدارس من ثقل صوتي فراجعٌ إلى غرابة الألفاظ من ناحية الدلالة وقلة تداولها على الألسن، حتّى أن قارئ ديوان الشاعر لابد له من اصطحاب المعجم للتعرف على كلمات من قبيل: باضعة، أوْتحت، الحسيل، نساريٌّ، مِحْلج، بَزّي، سجيس، مهياف، سقبان، جُبّأ، أكهى، خَرِقٍ، هَيْقٍ، الأمعزُ، مُرَّةً، الخَمص، الخشرم، مُهرّتة، شدوق، مهامه، الدكادك، غطْشٍ، بَغْشٍ، سُعَارٌ، إرْزير، وجر، أفكل، .....

هذه الكلمات وغيرها مما ورد في معجم الشاعر لم تعد مستعملة في وقتنا الحالي، مما يجعلنا نشعر بغرابتها وتنافر أصواتها، والحقيقة أنها كلمات عربية أصيلة نابعة من عمق البيئة العربية.

وما يمكن استخلاصه مما سبق هو أنّ «الألفاظ ذات الطول الدال من النوع السابق كانت وسيلة موظفة لغاية فنية أدائية، ولم تكن —كما قد نشعر بها الآن– أحجاراً مُلقاة في طريق المتلقي، يعثر فيها مرّة بعد مرّة» [42] وقد استطاع الشاعر أن يُطوّعها لخدمة المعاني التي أراد تبليغها.

03– الدلالة والترادف السياقي

تعرّض الكثير من الدارسين لظاهرة الترادف الذي يُعدُّ «مَظْهَرَ ثراءٍ في اللغة، فهو حشد لغوي تترادف فيه

الألفاظ، وتتوالى على المعنى الواحد»[43] ويقصد به «وقوع لفظتين بمعنى واحد أو متقاربتين فيه في جملة واحدة أو بيت واحد، متجاورتين أو منفصلتين» [44]

ولن نتعرض لمواقف العلماء تجاه هذه الظاهرة التي تعدّ «بحراً زاخراً لا يُسْبَرُ غَوْرُهُ، ولا تُحْصى دُرره» [45] كوننا في دراسة تطبيقية لا تحتاج إلى كثير من التفصيل والبيان.

وشواهد هذه الظاهرة من اللغة كثيرة ومتنوعة، تشمل الأسماء والأفعال والصفات والحروف، وهذه الكثرة وذلك التنوع في المترادفات العربية أمرٌ استرعى انتباه اللغويين على مرّ العصور، فللماء مائة وسبعون اسماً، وللسيف ألف اسمٍ وللداهية ما لا يُحْصى من الأسماء حتى قالوا: أسماء الدواهي من الدواهي [46]

والترادف هو «ترديد المعنى الواحد بعينه، وبالعدد مرّتين فصاعداً بلفظتين متفقتي الدلالة ترادفاً أو تداخلا. وقد نرسمه بالمجيء بكلمتين مختلفتي اللفظ متفقتي المعنى، وقوتهما واحدة» [47] ومن بين صور الترادف الواردة في الديوان نذكر النماذج الآتية:

كلمتا:(غِشاشاً، مُجْفِل) في قول الشاعر وهو يصف طيور القطاة، يقول: [48]

فغَبّتْ غِشَاشاً ثُمَّ مَرّتْ كأنّها مع الصُبح رَكْبٌ من أُحَاظَةَ مُجْفِلُ

فكلمة غِشاشاً الأولى تحمل معنى العجلة، بينما تدل كلمة مُجْفِل على السرعة، وكلاهما يحمل معنى الآخر، والشاعر هنا يصف سرب القطا وهو يشرب الماء على عجلة لفرط عطشه، ثمّ تفرّق بسرعة بعدما شرب وارتوى.

الكلمات (حتف، منية) (مهامه، بيد) (حِمَام، المنايا) في قوله: [49]

يا صَاحِبيّ هلِ الحِذارُ مُسَلِّمِي أو هل لحتفِ منيّةٍ من مصْرف

وقوله: [50]

ألا هل أتى سُعاد ودونها مَهَامِهُ بيدٌ تعْتَلِي بالصّعالك

وقوله: [51]

بِأنَّا صَبَحْنَا العَوْصَ في حُرّ دَارِهِمْ حِمَامَ المَنايا بالسُّيوفِ البَواتِكِ

فتجاور الكلمات التي سبق ذكرها على الرغم من توحد الدلالة فيهم أدّى إلى تأكيد الدلالة، فالحتْف والمنيّة يحملان نفس المدلول الذي يعني الموت، والمهَامِه التي تعني الصحراء الواسعة التي لا ماء فيها، والبيد جمع بيْداء وهي الصحراء كذلك، فالكلمتان لهما نفس الدلالة، والحِمَام التي تعني قضاء الموت وقدره، والمنايا جمع منية وهي أيضا تعني الموت.

ففي البيت الأول والثالث أدى تجاور هذه الكلمات للدلالة على ثبوت أمر الفناء والموت، وللتأكيد على رحابة وشساعة الصحراء وصعوبة العيش فيها في البيت الثاني.

كلمتا (أحفى، لا أتنعل) في قوله: [52]

فإمّا تَرَيْنِي كابْنَةِ الرَّمْلِ ضاحِياً على رِقَّةٍ أَحْفَى ولا أَتَنَعَّلُ

فتجاور الكلمتين المترادفتين: أحفى، لا أتنعل على الرغم من توحد دلالتهما جعل الشاعر ينفي الصفة الأولى بنفي الصفة الثانية ليؤكد على خاصية غير مألوفة التصقت به، وهذا الترادف يبدو زيادة وإطنابا، لأنه لا يضيف معنى جديدا فالحفاء يستوجب عدم التنعل، وهي وسيلة لإنهاء البيت بقافيته المطلوبة.

ومن الكلمات المترادفة التي جاءت على وجه استدعته القافية لا غير كلمات مثل (أوتحت، أقلّت) (قدّمت، أزلت) في قول الشاعر: [53]

وأمُّ عيالٍ قدْ شهدْت تقوتُهم إذا أطْعَمَتْهم أوْتَحَتْ وأقلَّتْ

وقوله: [54]

جَزَيْنا سَلَامان بن مُفْرِجٍ قرضَها بما قَدَمَتْ أيْدِيهِمُ وأزَلَّتِ

فأوتح وأقلّ كلاهما يحملان معنى الإقلال والتقتير، وقدّم وأزلّ لهما نفس الدلالة، ومجيء هذه الكلمات مترادفة ضرورة اسْتدعتها القافية لإنهاء البيت ولم تحمل معنى جديد يمكن أن يُضاف.

مما سبق من خلال ما تمّ التدليل به على ظاهرة الترادف في شعر الشنفرى يتضح لنا أنه مظهر من مظاهر شاعرية الشاعر التي تشي بقدرته على التحكم بمفردات اللغة والتوسع فيها، كما أنه ساهم في ضبط نظام القافية والتحكم فيها من حيث الروي ومن حيث الأصوات بصفة عامة.

04- الدلالة والتطابق اللفظي

يعتبر الطباق «ثالث أنواع فنون البديع الخمسة التي بنى عليها عبد الله بن المعتز كتاب البديع، قبل أن يُلحِقَها بباقي المحاسن الأخرى، وأسماه: المطابقة» (55)

ومعناه في اللغة «الموافقة، يُقال: طابقت بين الشيئين إذا جمعت بينهما على حذو واحد» (56)

أمّا اصطلاحا فقد «أجمع الناس أن المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو البيت من بيوت القصيدة، مثل الجمع بين البياض والسواد... والليل والنهار... والحر والبرد» (57)

والمغزى من الجمع بين الأمور المتضادة أنّه يكسو الكلام جمالاً ويزيده بهاءً ورونَقاً، فالضدُّ –كما قالوا– يُظهر حسنه الضدُّ، ولكنّ وظيفة الطباق لا تقف عند هذا الزخرف وتلك الزينة الشكلية، بل يتعدّاها إلى غاياتٍ أسمى، فلابد أن يكون هناك معنى لطيف ومغزى دقيق وراء جمع الضدين في إطارٍ واحد، وإلاّ كان هذا الجمع عبثا وضربا من الهذيان (58)

وما اتفق عليه جمهور البلاغيين هو أنّ الطباق جمع بين متضادين، والفرق بينه وبين المقابلة هو أنّ الطباق تتشكل بنيته من اللفظ المفرد ونقيضه (59) أمّا المقابلة فهي عبارة عن طباق متعدد بأن تأتي بمعنيين متوافقين أو بمعان متوافقة ثمّ بما يُقابلها على الترتيب (60) فالمقابلة بهذا المفهوم أعم من الطباق.

والمطابقة أو الطباق من الأساليب التي عرفها الشعر العربي القديم، ويؤتى بها في الكلام «إذا كانت الفكرة تقتضيها والموقف يتطلبها، وليس لمجرد الصنعة اللفظية، وهي حينئذ تضفي على الكلام جمالا ورونقا، وتزيده حُسْناً وقبولاً... فضلاً عمّا تضفيه كل مطابقة على حدة على الكلام من دلالات ومشاعر» (61)

ولدى الشنفرى لم يشُذ الطباق عن هذه القاعدة، إذ كان وروده عفويا لا تكلُّفَ فيه، والسياق الذي اجتلبه ليس له عنه محيد أو بديل فهو يقع موقع الحسن فيه، وإذا ما اسْتبدلنا أسلوبا آخر شبيهاً له غاب وجه الحسن الذي كان له من قبل. (62)

ومن مطابقات الشاعر، قوله: (63)

وإنّي لحُلْوٌ إنْ أُريدَتْ حلاوَتي ومُرٌّ إذا نفْسُ العَزوفِ استمَرَّتِ

فطابق بين: حلوٌ ومرٌّ وهذا النوع عند البلاغيين يسمّى طباق الإيجاب، ومن جمالياته أنه يجمع بين متناقضين في ذات الشاعر ليدل على لين وسهولة الشاعر لمنْ يُحْسِن معاملته، وصعب قاسٍ على الذي يخالفه ويقف ضدّه.

وقوله: (64)

لعمْرُك ما بالأرض ضيقٌ على امرئٍ سَرَى راغِباً أو راهِباً وهو يعْقِلُ

فطابق بين راغبا وراهبا ليبين أنّ الأرض واسعة لأصحاب الآمال والرغبات، وكذلك للخائفين، فهي تقبل كلَّ من يمشي فوق ثراها.

وقوله: (65)

ولسْتُ بِعَلٍ شرُّهُ دون خيره ألفَّ إذا ما رُعْته اهْتَاجَ أَعْزَلُ

فطابق بين كلمتي شره وخيره في صدر البيت، وجمع بين المتضادين ليبين في النهاية أنّ خيرُه أكثر من شرّه.

وقوله: (66)

شكا وشَكَتْ ثُمَّ ارْعَوى بَعْد وارْعَوَتْ

وللصبر إن لمْ يَنْفَعِ الشكوُ أجْمَلُ

فطابق بين الصبر والشكو، والمعنى أنّ صبر الشاعر على قساوة الحياة التي يعيشها أفضل من الشكوى التي لا تُجدي ولا تنفع، وهنا يؤكد الشاعر على اتصافه بالصبر والتجلد.

وقوله: (67)

هَمَمْتُ وهَمَّتْ وابْتَدَرْنَا وأَسْدَلَتْ وثَمَّرَ مِنِّي فَارِطٌ مُتَمَهِلُ

جاءت المطابقة بين فارطٌ ومتمهل ليجمع بين خاصتي السرعة والتمهل في عدوه، ليجمع بين نقيضين وهذا ما لا يستطيعه غيره، فهو عندما سابق القطا لشرب الماء أسرع في البداية ليتفوق عليها، وعندما تأكد له السبق وتيقن من الفوز، تمهل في عدوه، وقد صّور لنا بفضل جمعه بين المتناقضين ليرسم لنا صورة مشهدية جعلتنا نتخيل المشهد وكأنه أمام مرأى العين.

وفي قوله: (68)

تَنَامُ إذا ما نام يقْظى عيُونها حِنَاناً إلى مَكْروهِهِ تتَغَلْغَلُ

استلهم الشاعر المطابقة الحاصلة بين كلمتي تنام، يقظى للإبانة عن مدى ترصد أعدائه له من بني قومه فحتّى في نومهم تبقى عيونهم يقظى حِرْصاً على الإمساك به، وقد دلّ هذا الطباق على حال قومه الذين أصبح ليلهم نهار، وأصبحوا يعيشون حالة من الترقب الدائم والمستمر علّهم يظفرون بالإمساك بالشاعر والانتقام منه.

وفي قوله: (69)

إذا وَرَدَتْ أَصْدَرْتُهَا ثُمَّ إنّها تَثُوبُ فَتَأْتِي من تُحَيْتُ ومن عل

في هذا البيت جاءت المقابلة بين وردت وأصدرت، وكذلك بين تُحيت وعل، وهذه المتناقضات التي أبان عليها الشاعر كشفت لنا مقدار الهموم التي يعاني منها فكلّما أقبلت عليه من جانب صرفها عنه إلاّ أنّها تعود إليه من كل الجوانب، في صورة توحي بمصاحبة الهموم للشاعر أينما حلّ وارتحل.

وفي قوله: (70)

وأَعْدِمُ أَحْياناً وأَغْنَى وإنّما ينالُ الغِنَى ذو البُعْدَةِ المُتَبَذِّلُ

جاءت المطابقة بين أعدم وأغنى لتكشف عن جانبٍ من جوانب حياة الشاعر الذي يفتقر حيناً ويغنى حيناً آخر، فحياته بين الفقر تارة، وبين الغنى تارة أخرى، وقد دلّت المطابقة على حياة اللاستقرار التي يعيشها.

وفي قوله: (71)

فلا جَزِعٌ من خُلَّةٍ مُتَكَشِّفٌ ولا مَرِحٌ تحت الغِنَى أَتَخَيَّلُ

قابل الشاعر بين جزع ومرح وكذلك بين خلَّة والغنى، وهذه الثنائيات الضدية أبانت على أنّ الشاعر لا يتئس ولا يجزع من فقره، كما أنّ الغِنَى لا يجعله يختال ويمرح، وقد أوحت هذه التناقضات باضطراب المشاعر وتداخلها في خُلْد الشاعر اضطراب حياته التي لم تعرف الاستقرار من صباه إلى غاية تصعلكه.

ومن المطابقة نذكر أيضا قوله: (72)

فإنْ يَكُ من جِنٍّ لأَبْرَحُ طارِقاً وإنْ يَكُ إنْساً ما كها الإنْسُ تَفْعَلُ

جاء طباق الإيجاب بين جن وإنس، وقد أفاد في البيت معنى الحيرة والارتباك الذي وقع فيه قومه بعد أن أغار عليهم فلم يستطيعوا حتى تحديد الفاعل، للسرعة الخارقة التي تمت بها عملية الإغارة لدرجة الشك في أنّ هذه العملية لم يقم بها لا إنس ولا جن، وهذا يدل على إتقان وتفنن الشاعر في تنفيذ غاراته على قومه

بكل دقة واحترافية مما يدل على حسن تدبيره وتفكيره ومعرفته الوقت الأمثل لتنفيذ مخططاته.

ومن المطابقة كذلك قوله: (73)

فألْحَقْتُ أُولا هُبِأُخْرَاهِ مُوفِياً على قُنّةٍ أُقْعِي مراراً وأَمْثُلُ

جاءت المطابقة بين كلمات: أولاه وأخراه في الشطر الأول وأقعي بمعنى أجلس وأمثلُ التي تعني أنتصب قائماً في الشطر الثاني، والشاعر في هذا البيت ومن خلال هذه المقابلة أشار إلى سرعته الكبيرة التي يُلْحِقُ أول الأرض بآخرها، وهو جالس حيناً، وسائرٌ حيناً آخر. فالمطابقة بين أول الخَرْقِ وآخره، وكذا بين جلوسه وانتصابه ماشياً، خدمت الصورة الفنية التي رسمها الشاعر لمشهد السرعة.

وقوله: (74)

يا رُبَّ غَورٍ جئتُ من تِهَامِه وشعْبِ نَجْدٍ لم أَهَبْ عُرَامَه

جاءت المطابقة بين غور وهو ما انخفض من الأرض وتِهَامه وهي ما ارتفع من الأرض لتدل على أنّ الشاعر صال وجال في البراري في المنخفضات والمرتفعات.

ومن الطباق نذكر الكلمات الآتية: تقبلوا، تدبروا (75) شمالها، يمينها (76) وارد، صادر (77)يروح، يغدو (78) مشرب، مأكل (79) وقد ذكرنا موضع الشاهد دون شرح كوننا سنتطرق لها في مبحث الدلالة والمصاحبة المعجمية حتّى لا يشعر القارئ بنشاز من خلال إعادة الأبيات نفسها في كل مبحث.

لقد ساهمت هذه الثنائيات الضدية في توليد قيمة موسيقية مضافة يخلقها ذلك التنافر الدلالي بين الصيغة والصيغة المعاكسة لها (80)وكذلك سمحت بتوضيح المعنى وتقريبه إلى الأذهان لأنه كما يقال بالأضداد تتضح المعاني.

وعلى ضوء ما تمّ إيراده نخلص إلى القول باطمئنان أنّ الشاعر اتّخذ من أسلوب الطباق مطيّةً للإفصاح عن المعاني الخفية وكشفها من خلال نقيضها. ممّا شكّل أساليب جمالية دفعت بالمعاني نحو التوهج والتلألؤ.

وقد أثّر هذا المحسن البديعي في ناحيتين: «لفظية تتأتى بمجيئه في الأسلوب سَلِساً طيّعاً غير متكلف، فيخلع عليه جزالة وفخامة، ويجعل له وقعاً جميلاً مؤثراً. ومعنوية تتحقق من إيضاحه المعنى وإظهاره، وتأكيده وتقويته عن طريق المقارنة بين الضدين، وتصور أحد الضدين فيه تصورٌ للآخر، على هذا فالذهن عند ذكر الضد يكون مُهَيّأً للآخر ومُستعداً له، فإن ورد عليه ثبت وتأكّد فيه»(81) وقد ساهم الطباق في خدمة الدلالة وتغذية الإيقاع العام للديوان، والكشف عن الاضطرابات النفسية الناجمة عن حالات التضاد الدلالي الذي تحكمها ثنائيات ثابتة التقابل.

05- الدلالة والمصاحبة المعجمية

تعني المصاحبة المعجمية مجيء «مفردات متتالية معاً على نحو مطرد مثل: الليل والنهار، والشمس والقمر، والإقبال والإدبار، وغيرها... بحيث كلما ذُكِرت الأولى في تعبير ما، توقّع المتلقي مجيء الثانية معانقة لسابقتها» (82) ومن هذه المصاحبات التي تضمّنها معجم الشنفرى، كلمتي: تقبلوا، تدبروا في قوله: (83)

فأنْ تُقْبِلُوا تُقْبِلْ بمن نِيلَ منهم وإنْ تُدْبِرُوا فأُمُّ منْ نِيلَ فُتَّتِ

فكلمة تقبلوا تصطحب معها كلمة تدبروا حتّى وإن لم يذكرها الشاعر فالذهن مهيّأٌ لاستحضار الكلمة وتوقع مكان مجيئها.

وفي قوله: (84)

شفينا بعبد الله بعض غليلنا وعَوْفٍ لدَى المَعَدَّى أوان اسْتَهَلَّتِ

فكلمة شفينا تستحضر مصاحبتها المعجمية غليلنا، ولا تكاد تذكر إلا وتذكر معها.

وفي قوله: (85)

أضَـعْتُم أبي إذْ مَـالَ شِـقُّ على جَنَفٍ قد ضاعَ منْ لمْ يُوَسَّدِ

يقال جنف فلان إذ مال أحد شقيه عن الآخر، فكلمة مال تصطحب معها كلمة جنف.

وفي قوله: (86)

ومقرونَـةٍ شِمَالُهَـا بيَمينِهَـا أُجَنِّبُ بَزِّي مَاؤها قد تَعَصّرَا

فلا يكاد يُذكَرُ الشمال إلا ويذكر معه اليمين، سواء كان الاستحضار لفظيا أو ذهنياً.

وفي كلمتي الليل وأسدف في قوله: (87)

نَعَبْتُ إلى أدْنَى ذُرَاهـا وقـد من الليلِ ملْتَفُّ الحَديقةِ أَسْدَفُ

فالأسْدَفُ هو المظلم، والظلام مصاحب ومقترن بالليل، ولذا كان من الطبيعي أن تُصاحب الصفة موصوفها.

وفي قوله: (88)

فقد حُمَّتِ الحَاجات والليل مُقْمِرٌ وشُـدّتْ لطيّـاتٍ مَطَـايَا وأَرْحـلُ

فكلمة مقمر صفة لليل، وهي تصاحبها لفظياً كون الليل لديه عدة مصاحبات لابد من تحديدها حتى تتقيد الدلالة بمفهوم واحد.

وفي قوله: (89)

هم الأهلُ لا مُستودَعُ السِّرِّ ذائع لديهم ولا الجاني بما جرّ يُخذلُ

فالمصاحبة المعجمية جاءت بين كلمة مستودع والمضاف إليه السر.

ونجد كذلك مصاحبة معجمية بين يروح ويغدو في قوله:(90)

ولا خـالفٍ داريَّـةٍ مُتَغَـزِّلٍ يَـروحُ ويغْـدُو داهنـاً يتكحّـلُ

فالرواح والغدو مقترنان ببعضهما البعض، ويصطحب كل منهما الآخر.

وأيضاً بين شرّه وخيره في قوله: (91)

ولَسْتُ بعلٍّ شرُّهُ دونَ خَيْرِهِ ألفَّ إذا ما رُعْتَهُ اهتاجَ أَعْزَلُ

فلا يكاد يُذكر الخير إلا وذُكر معه الشر والعكس، والذهن يستحضرهما معًا سواء إن ذُكراَ معاً كما في البيت، أو إذا ذُكر أحدهما فقط.

ومن المصاحبة المعجمية كذلك قوله: (92)

ولا اجْتِنَابُ الذأْمِ لمْ يُلْفَ مَشْرَبٌ يُعَـاشُ بـه إلاّ لـديَّ ومأْكَـلُ

فكلمة مشرب تصطحب معها كلمة مأكل، فلا غِنىً للأكلِ عن الشرب، ولا الشربُ يستغني عن الأكل فكلاهما متلازمين.

وآخر ما نختم به هذا المبحث ما ورد من مصاحبة مُعْجمية بين كلمتي أولاه وأُخراه، حيثُ تسْتَحْضِرُ الأولى الثانية دائماً، يقولُ: (93)

فَـألْحَقْتُ أولاهُ بأُخـراه مُوفِيـاً على قُنَّةٍ أُقْعِي مِرَاراً وأَمْثُلُ

إنّ هذا الضرب من الاستعمال المعجمي للكلمة باعتماد التجاور والمصاحبة يخْلِقُ لدى المتلقي أريحية تتجلى في قدرته على التوقع والاستكناه، إذ يُصبح بمقدوره التنبّؤ عن الكلمة المصاحبة مُعجَمياً فورما تقع الأولى في مسْمَعِه، وبذلك يتمكن من الاندماج في النص والتماهي معه. (94)

وقد وظّف الشاعر هذه المصاحبة متجاورة تارة في صدر البيت، وتارة أخرى في عجزه، وتارة ثالثة موزّعة بين الصدر والعجز، وإنّها أيْنما حلّت اسْتجابتْ لسُلْطَةِ التركيب وخدمت الدلالة، بالإضافة إلى إثراء الإيقاع العام بالموسيقى الناتجة عن هذه المصاحبات.

خاتمة

ختاما يمكننا القول بأن الشاعر تمكن من استغلال الطاقات الكامنة والمعبرة لكل مفردة من المفردات التي وظفها، فجاءت كل كلمة حاملة لمعنى لا يوجد في كلمة أخرى، وهذا دليل على حسن اختياره في ضبط كلمات قصائده، وعلى الزاد اللغوي الثري الذي يمتلكه، إضافة إلى دقته في التعبير التي تجلت في اختياره

ألفاظا مرتبطة بواقعه محددة لأماكن تواجده أو راصدة لأحداث وقعت.

وتوظيف هذه الأساليب اللغوية ساهم في الكشف عن بعض أسرار الشنفرى، وشخصيته القوية في التعامل مع مختلف العوائق والمصاعب التي واجهها.

قائمة المصادر والمراجع

1- ديوان الشنفرى، تحقيق وشرح يعقوب إميل بديع، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، 1996.

2- أبو محمد القاسم السجلماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تقديم وتحقيق علال غازي، ط1، مكتبة المعارف، الرباط، 1980.

3- أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، تح: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة.

4-بيوني عبد الفتاح فيّود، علم البديع –دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع- ط2، مؤسسة المختار-دار المعالم الثقافية، القاهرة، 1998.

5- الشحات محمد أبو ستيت، دراسات منهجية في علم البديع، ط1، دار خفاجي، مصر، 1944.

6- عبد العاطي غريب علام، دراسات في البلاغة العربية، ط1، منشورات جامعة قان يونس، بنغازي، ليبيا، 1997.

7- عبد الكريم الرحيوي، الشعر الجاهلي في ضوء الدرس اللغوي الأسلوبي الحديث، قراءة في شعر زهير بن أبي سلمى، ط1، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2015.

8- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تح: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة.

9- محمد العبد، إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي، مدخل لغوي أسلوبي، ط1، دار المعارف، القاهرة، 1988.

هوامش الدراسة

[1]محمد العبد، إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي، مدخل لغوي أسلوبي، ط1، دار المعارف، القاهرة، 1988، ص:51

[2]عبد الكريم الرحيوي، الشعر الجاهلي في ضوء الدرس اللغوي الأسلوبي الحديث قراءة في شعر زهير بن أبي سلمى، ط1، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2015، ص: 65، 66

[3]محمد العبد، إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي، مدخل لغوي أسلوبي، (م، س) ص:53

[4]الديوان، ص: 32.

[5]الديوان، ص: 35.

[6]الديوان، ص: 38.

[7]عبد الكريم الرحيوي، الشعر الجاهلي في ضوء الدرس اللغوي الأسلوبي الحديث (م، س)، ص: 67.

[8]الديوان، ص: 36.

[9]الديوان، ص: 34.

[10]الديوان، كلام الشارح ص: 34.

[11]الديوان، ص: 36.

[12]محمد العبد، إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي (م، س) ص: 56

[13]عبد الكريم الرحيوي، الشعر الجاهلي في ضوء الدرس اللغوي الأسلوبي الحديث (م، س)، ص: 68

[14]محمد العبد، إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي (م، س) ص: 56

[15]المرجع نفسه، ص: 56، 57.

[16]الديوان، ص: 55.

[17]الديوان، ص: 62.

[18]الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تح: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، 2008، ص:1204.

[19] المرجع نفسه، ص: 1091.

[20]الديوان، ص: 55.

[21]الفيروزآبادي، القاموس المحيط (م، س)، ص: 468، 469.

[22]الديوان، ص: 61.

[23]الفيروزآبادي، القاموس المحيط (م، س)، ص: 247.

[24]الديوان، ص: 61.

[25]الفيروزآبادي، القاموس المحيط (م، س)، ص: 1443.

[26]الديوان، ص: 63.

[27]الفيروزآبادي، القاموس المحيط (م، س)، ص: 199.

[28]الديوان، ص: 66.

[29]الفيروزآبادي، القاموس المحيط (م، س)، ص: 982.

[30]الديوان، البيت 30 من اللامية، ص: 64.

[31]الفيروزآبادي، القاموس المحيط، (م، س)، ص:1705

[32]المرجع نفسه، ص: 1359، 1360

[33]الديوان، البيت 31 من اللامية، ص: 64.

[34]الفيروزآبادي، القاموس المحيط، (م، س)، ص:329.

[35]الفيروزآبادي، القاموس المحيط، (م، س)، ص:323.

[36]الديوان، البيت 37 من اللامية، ص: 66

[37]الفيروزآبادي، القاموس المحيط، (م، س)، ص:942.

[38]الديوان، البيت 47 من اللامية، ص: 68

[39]الفيروزآبادي، القاموس المحيط، (م، س)، ص:1200.

[40]الديوان، البيت 62 من اللامية، ص: 71.

[41]الفيروزآبادي، القاموس المحيط، (م، س)، ص:1556

[42]محمد العبد، إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي (م، س)، ص: 65، 66

[43]أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، تح: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، ص: 17

[44] محمد العبد، إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي، (م، س)، ص: 66.

[45]أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، (م، س)، ص: 17

[46] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[47]أبو محمد القاسم السجلماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تقديم وتحقيق علال غازي، ط1، مكتبة المعارف، الرباط، 1980 ص: 333

[48]الديوان، ص: 67.

[49]الديوان، ص: 56.

[50]الديوان، ص: 57.

[51]الديوان، ص: 57.

[52]الديوان، ص: 68.

[53]الديوان، ص: 35.

[54]الديوان، ص: 37.

[55]عبد الكريم الرحيوي، جماليات الأسلوب في الشعر الجاهلي (م، س)، ص: 247

[56]بيوني عبد الفتاح فيّود، علم البديع –دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع- ط2، مؤسسة المختار- دار المعالم الثقافية، القاهرة، 1998، ص: 135

[57]أبو هلال العسكري، الصناعتين: الكتابة والشعر، ط1، مطبعة محمود بك، مصر، ص: 238

[58]بيوني عبد الفتاح فيّود، علم البديع (م، س)، ص: 136

[59]عبد الكريم الرحيوي، جماليات الأسلوب في الشعر الجاهلي (م، س)، ص: 248

[60]بيوني عبد الفتاح فيّود، علم البديع (م، س)، ص: 152.

[61]عبد العاطي غريب علام، دراسات في البلاغة العربية، ط1، منشورات جامعة قان يونس، بنغازي، ليبيا، 1997، ص:170.

[62]عبد الكريم الرحيوي، جماليات الأسلوب في الشعر الجاهلي (م، س)، ص:248، 249

[63] الديوان، ص: 38.

[64]الديوان، ص: 59.

[65] الديوان، ص: 62.

[66] الديوان، ص: 65.

[67] الديوان، ص: 66.

[68] الديوان، ص: 68.

[69] الديوان، ص: 68.

[70] الديوان، ص: 69.

[71] الديوان، ص: 69.

[72] الديوان، ص: 71.

[73] الديوان، ص: 72.

[74] الديوان، ص: 75.

[75]الديوان، البيت 30، ص:37

[76]الديوان، البيت 03، ص:46

[77]الديوان، البيت 07، ص:50

[78]الديوان، البيت 18، ص:61

[79]الديوان، البيت 24، ص:63

[80]عبد الكريم الرحيوي، الشعر الجاهلي في ضوء الدرس اللغوي الأسلوبي الحديث (م، س)، ص: 80

[81]الشحات محمد أبو ستيت، دراسات منهجية في علم البديع، ط1، دار خفاجي، مصر، 1944، ص 50، 51

[82]عبد الكريم الرحيوي، الشعر الجاهلي في ضوء الدرس اللغوي الأسلوبي الحديث (م، س)، ص: 81

[83]الديوان، ص: 37.

[84] الديوان، ص: 37.

[85] الديوان، ص: 45.

[86] الديوان، ص: 46.

[87]الديوان، ص: 53.

[88] الديوان، ص: 57.

[89] الديوان، ص: 59.

[90]الديوان، ص: 61.

[91] الديوان، ص: 62.

[92] الديوان، ص: 63.

[93]الديوان، ص: 72

[94]عبد الكريم الرحيوي، الشعر الجاهلي في ضوء الدرس اللغوي الأسلوبي الحديث (م، س)، ص: 82

الفروق في العناصر اللغوية بين اللغتين العربية والإندونيسية وأهمية معرفتها في الترجمة من اللغة العربية إلى اللغة الإندونيسية وبالعكس

(دراسة تقابلية)

سوكامتو سعيد
مدرس الترجمة من الإندونيسية إلى العربية وبالعكس
قسم اللغة العربية وأدبها/ كلية الآداب والعلوم الثقافية
جامعة سونان كاليجاكا الإسلامية الحكومية /جوكجاكرتا / أندونيسيا

ملخص:

لكل لغة نظامها ومنطقها في صياغة الكلمات وتراكيبها، ودلالتها وأصواتها. وكثيرا ما تكون بين اللغتين فيها أوجه الشبه والفرق. فينبغي لدارسي اللغة أن يكونوا على علم -أكثر ما يمكن- فيما يخص بأوجه الشبه والفرق بين اللغة الأم واللغة الأخرى التي يريد أن يدرسها علما بأن الإنسان الذي يتعلم اللغة الأخرى غير اللغة الأم ما زال متأثرا بنظام اللغة الأم. فليس من السهل بالنسبة للإندونيسي الذي يتعلم اللغة العربية الهروب عن آثار نظام اللغة الأم فهو يهيمن عليه دائما لأنه نشأ في بيئة اللغة الأم في فترة من الزمن حتى سيطر نظام اللغة الأم تفكيرا وتعبيرا. بالإضافة إلى ذلك فإن هناك كثيرا من المفردات العربية دخلت في اللغة الإندونيسية، وليس بالقليل منها ما تغيرت معانيها أو نطقها بشكل يصعب على الإندونيسيين الذين ليس لهم خلفية عربية أن يفرقوا بينها. هنا تكمن أهمية الدراسة التقابلية لأنها تحلّل أوجه الشبه والفرق بين اللغتين العربية والإندونيسية في مواضع الاختلاف بينهما. تهدف هذه المقالة إلى تعرف أوجه الشبه والفرق بين اللغتين العربية والإندونيسية بهدف تيسير المشكلات اللغوية التي كثيرا ما تنشأ عند ما أراد الإندونيسي القيام بعملية الترجمة من الإندونيسية إلى العربية وبالعكس، وذلك يرجع إلى عوامل عدة منها ما يتعلق بالمفردات بأنواع مشاكلها ومنها ما يتعلق بنظام التركيب بأنواعه ومنها ما يتعلق بنظام التعبير الاصطلاحي في شكل النماذج وليس الحصر. أما الطريق إلى ذلك فمن مطالعة الكتب أو الجرائد أو المجلات العربية والإندونيسية. (الكلمات الرئيسة: اللغة العربية — اللغة الإندونيسية — أوجه الشبه والفرق)

تمهيد:

تتفاعل اللغات بعضها مع بعض تفاعل الكائنات الحية تأثيرا وتأثرا حتى أن هناك صراعا يدور بين اللغات من أجل البقاء كما يدور الصراع بين الكائنات أيضا.[1] من بين هذا التفاعل عملية الترجمة من لغة إلى أخرى وهي مفيدة في الحياة العلمية والاجتماعية بصفة عامة لأن بها تتناقل الأمم الأخبار والمعلومات التي يحتاجونها في حياتهم. والترجمة ليست عملية بسيطة، ذلك لأن لكل لغة منطقا خاصا بها ونظاما يراعيه الناطقون بها لأنه شرط الفهم والإفهام في البيئة اللغوية الواحدة. ويرتبط هذا النظام بعقول أصحاب اللغة وتفكيرهم إلى حد كبير.[2] الترجمة نقل الكلام من لغة إلى أخرى مع الوفاء بجميع معانيه ومقاصده، فهي التعبير

بلغة ثانية (اللغة الهدف) من المعاني التي تم التعبير عنها بلغة أولى (اللغة المصدر). فهناك مستويان: مستوى المعاني ومستوى التعبير. رغم أن العرب والإندونيسيين يتساوون في كيفية اكتساب المعاني فإنهم يختلفون في طريقة التعبير عنها، وذلك لأن كل لغة له وسائله لتركيبية والصرفية والصوتية والدلالية التي يستعملها للتعبير عن المعاني المختلفة، على سبيل المثال إن معنى التعجب موجود لدى العرب والإندونيسيين ولكن طريقة التعبير عنه تختلف بين الناطقين بالعربية وبين الناطقين بالإندونيسية. بناء على ما سبق تصعب –إذا لم نقل تستحيل– الترجمة الحرفية من العربية إلى الإندونيسية وبالعكس لوجود الكثير من الاختلافات بين اللغتين في نظام تراكيب الجمل ونظام الصرف والصوت والدلالة. وزاد الطين بلة تسرب المفردات العربية إلى اللغة الإندونيسية حيث تغير نطقها وانحرفت معانيها قليلا أو كثيرا.

أ– الفروق التي تتعلق بالمفردات

1–المفردات الإندونيسية ذات الجذور العربية

إن المعاني التي تحملها الألفاظ تمر عليها مراحل تاريخية، ولا ريب أن الألفاظ التي تمر في تلك المراحل وتنتقلها الأجيال بما تحمله من معان قد تبقى وقد تتغير وقد تنحرف حسب عادات وأسباب لا يمكن التنبؤ بها جميعا. كما أن المعنى قد يتغير مفهومه لدى الأجيال كذلك أصوات الألفاظ عرضة للتغير.[3] هناك كلمات عربية دخلت في اللغة الإندونيسية مع انتشار الإسلام في سومطرة وجاواة وكاليمانتان وسولاويسي والجزر الإندونيسية الأخرى. وكلما انتشر الإسلام انتشرت معه اللغة العربية. فلا غرو أن دخلت المفردات العربية في اللغة الإندونيسية بشكل قد لا يعرف الكثير من الإندونيسيين أنها عربية الأصل، بل كانت اللغة الملايوية والجاوية مكتوبتين بالحروف العربية ثم تغيرت الحالة مع دخول نظام التعليم الغربي الذي جاء به الاستعمار الهولاندي.

على أن دخول المفردات العربية إلى الإندونيسية له أثر في الترجمة في النواحي التالية:

ا) **ناحية النطق** وذلك لأن الكثير من المفردات العربية التي دخلت في اللغة العربية منطوقة بالنطق الإندونيسي، فالعين في اول الكلمة تنطق بالهمزة وفي وسط الكلمة أو آخرها تنطق بالكاف، والعين والقاف في العربية تنطقان بحرف الكاف في الإندونيسية بينما تنطق الظاء بحرف اللام، مثل:

عليم	**A**lim	نعمة	Ni**k**mat	ظاهر
أليم	**A**lim	نقمة	Ni**k**mat	ظهور
قلب	**K**albu	تعليم	Ta**k**lim	سماع
تقوى	Ta**k**wa	تعظيم	Ta**k**lim	خشوع

فيترتب على ذلك ظهور الالتباس في إرجاع المفردات الإندونيسية ذات الجذور العربية، الأمر الذي يؤثر الترجمة من الإندونيسية إلى العربية، على سبيل المثال: كلمة Nikmat قد تكون من نعمة وقد تكون من نقمة؟ وكذلك كلمة alim من أليم أو عليم ؟ وهل الكلمة kalbu من القلب أو من الكلب. في هذا الصدد لا بد للمترجم من ملاحظة سياق الجملة فهو الذي يعين المعنى.

يمكننا تقسيم الكلمات العربية الأصل التي دخلت إلى اللغة الإندونيسية إلى أقسام هي:1–الكلمات التي يختلف نطقها ويختلف معناها، مثل عليم (ينطق أليم)؛ عالَم (ينطق ألَم)؛ قلب (ينطق كَلْبُ)؛ علماء (ينطق: ألماء). 2–الكلمات التي يختلف نطقها ولكن لا يختلف معناها، مثل: ظاهر (ينطق لاهر)؛ لفظ (ينطق lafal)؛ حفظ (ينطق hafal) دعوة

(ينطق dakwah)؛ ضرورة (ينطق darurat)؛ غالب (ينطق galib)؛ غائب ينطق(gaib) حاضر ينطق هادر)؛ عموم (ينطق umum)؛ شراهة (ينطق شراكة /serakah)؛طمع (ينطق: tamak)؛ نعمة (ينطق : nikmat)؛ تعليم (ينطق taklim)؛ دهشة(ينطق dahsyat)؛ معنى (makna)؛ قوم (ينطق kaum)؛ 3-الكلمات التي لا يختلف نطقها ولا يختلف معناها، مثل: إمام؛ ممأموم؛ نبي؛ وجود؛ أبدي؛ أزلي؛ وقت؛ زمان؛ واجب؛ جواب؛ مجلس؛ إخلاص، روح؛ خصوص؛ خطبة؛ خرافات؛ تخيل؛ مسافر ؛ أمانة؛ إيمان؛ إسلام؛ إنكار؛ أمان؛ عورات؛ مشهور.4-الكلمات التي لا يختلف نطقها ولكن يختلف معناها، مثل: دفتر؛ كلمات؛ صبر؛ نقمة؛ علماء؛ عمل؛ عرب؛ شاعر؛ أفضل.

ب) ناحية المعنى: أما من ناحية المعنى فمنها ما بقيت كما كانت ومنها ما انحرفت دلالتها عن أصلها قليلا أو كثيرا. من الكلمات الإندونيسية ذات العربية التي بقي معناها كما كان مثل: iman (من إيمان)، akidah(من عقيدة)؛ hakekat (من حقيقة). وأما الكلمات التي انحرف معناها عن أصلها فمثل kalimat:(من كلمة) بمعنى جملة وهي ما تكون من المبتدأ والخبر أو الفعل والفاعل؛ فإذا أردنا أن نعبر عن معنى ' كلمة' نقول في اللغة الإندونيسية kata . و ulama من كلمة 'علماء' جمع عليم بمعنى من له علم بصفة عامة غير مقصورة على العلوم الدينية. أما 'العلماء' في اللغة الإندونيسية فهي بمعنى المفرد، جمعها: para ulama هذه الكلمة تدل على من له علوم الدين الإسلامية؛ وكلمة afdal من اللغة العربية ' أفضل' إلا أنها في اللغة الإندونيسية ليست تفضيلا، أما التفضيل فيها: lebih afdal؛ كلمة daerah من اللغة العربية 'دائرة' ولكنها في اللغة الإندونيسية بمعنى 'منطقة' أما كلمة 'دائرة' نفسها في الإندونيسية بمعنى lingkaran .

بناء على ما سبق من الأمثلة لا بد للمترجم من اللغة العربية إلى اللغة الإندونيسية وبالعكس من الانتباه أنه قد يكون هناك انحراف في المعنى في بعض المفردات الإندونيسية التي لها جذور عربية.

2- المفردات ذات الأصول الثقافية الخاصة

ليس من السهل ترجمة المفردات التي لها أصول ثقافية سواء كانت من العربية أو الإندونيسية. فلا بد من التفريق في ترجمة لفظ عم وخال وعمة وخالة، الناقة والجمل، إلى اللغة الإندونيسية، وكذلك في اللغة الإندونيسية لا بد من التفريق في الترجمة بين padi وgabah وberas فكلمة الأرز لا تمثل جميع المفردات المذكورة. وكذلك ترجمة كلمات: meninggal dunia, wafat, berpulang, tewas, mati, gugur لا تكفينا كلمة 'مات'وكذلك المفردات الإندونيسية التالية: tempat tinggal, rumah, hunian, kediaman, gubuk. لا تكفينا كلمة 'بيت'و isteri, nyonya, pasangan hidup, ibunya anak-anak لا تكفينا كلمة 'زوجة' رغم أنها هي المعنى الذي احتوت عليه تلك المفردات الإندونيسية، ذلك لأن لكل واحدة منها معنى خاصا بالثقافة الإندونيسية. فعلى المترجم من الإندونيسية إلى العربية أن يتزود بالمعارف الثقافية الموجودة في كلتي اللغة المصدر واللغة الهدف. فالترجمة السليمة يجب ألا تقف عند حدود مراعاة التكافؤ بين المفردات المعجمية، ولا عند تطبيق القواعد النحوية وإنما يجب أن تتعداه إلى مراعات المواضعات الثقافية والتصورات المختلفة. وهذا بالطبع

يحتاج إلى خبرات واسعة في مجال اللغة المترجم منها وإليها.

ب–الفروق المتعلقة بالتعبيرات الاصطلاحية

التعبير الاصطلاحي عبارة لا يفهم معناها الكلي بمجرد فهم معاني مفرداتها وضم هذه المعاني بعضها إلى بعض فهو مجموعة كلمات تكون بمجموعها دلالة جديدة، غير الدلالة المعجمية مفردة ومركبة. وقد كثرت التعابير الاصطلاحية في زماننا الآن نتيجة لعوامل مختلفة منها: نشاط حركة الترجمة والنقل عن اللغات الأخرى، وانتشار الصحافة وكثرة العلوم والفنون التي تتطلب إيجاد التعابير الخاصة، إلى غير ذلك.[4]وهناك بعض التعبيرات الاصطلاحية التي كانت جذورها من الأمثال، لأن المثل إذا تكرر استعماله وشاع أصبح تعبيرا اصطلاحيا، ويمكن تقسيمها فيما يلي:

ا) –التعبيرات الاصطلاحية العربية التي لها تشابه في اللفظ والمعنى مع التعبيرات الاصطلاحية الإندونيسية، مثل:

1–'رفع له القبعة'[5]، بمعنى التحية والتقدير والإعجاب في مثل العبارة: "رفعت الجماهير القبعات للاعب المتميز." كانت هذه العبارة تقليدا منقولا من الإنجليز. وهي مفهومة لدى الإندونيسيين، فتكفيهم الترجمة الحرفية لها، وهي:

"Publik (para penonton) angkat topi untuk pemain yang hebat itu."

2–'الغاية تبرر الوسيلة'[6] بمعنى استباحة الأساليب غير الشريفة لتحقيق هدف ما. وهو مبدأ سياسي شهير قال به ميكيافيللي. هذه العبارة مفهومة في أوساط الإندونيسيين فتكفيهم الترجمة الحرفية منها بما يلي:

"Tujuan itu membolehkan (menghalalkan) segala cara."

3–'البقرة الحلوب'[7] بمعنى ما يستغلّ للكسب، في مثل العبارة: " ظلت مصر أحقابا طويلة البقرة الحلوب للاستعمارالأجنبي". هذه العبارة مفهومة في أوساط الإندونيسيين فتكفيهم الترجمة الحرفية منها بما يلي:

"Mesir dalam jangka waktu yang cukup lama menjadi sapi perah bagi penjajah asing".

4–'دق طبول الحرب' كان من عادة الناس قديما دق الطبول لإعلان الحرب. فدق الطبول بمعنى التهديد بالحرب والدعوة إليها، في مثل العبارة: فور وقوع أحداث 11 سبتمبر بدأ الرئيس بوش في دق طبول الحرب.[8] هذه العبارة مفهومة لدى الإندونيسيين، فتكفيهم الترجمة الحرفية منها بما يلي:

"Segera setelah terjadi peristiwa 11 September Presiden Bush mulai menabuh genderang perang."

ب) التعبيرات الاصطلاحية العربية التي لها تشابه في المعنى لا في اللفظ مع التعبيرات الاصطلاحية الإندونيسية، مثل:

1–'حفظ عن ظهر قلب'[9] بمعنى حفظ حفظا تاما واستقر في عقله، في مثل العبارة: "حفظ الإمام الشافعي القرآن عن ظهر القلب منذ صغره. هذه العبارة غير معروفة في اللغة الإندونيسية إلا أن هناك عبارة أخرى بنفس المعنى مع اختلاف اللفظ، فلا بد في ترجمتها إلى اللغة الإندونيسية لأجل الإفهام من التفسير بالتعبير المتداول في اللغة الإندونيسية، كما يلي:

"Imam Syafi'i telah hafal al-Qur'an dari punggung hati (= di luar kepala) sejak kecil.

(di luar kepala = خارج الرأس)

2-‘حدث ولا حرج‘[10]بمعنى قل ما شئت وبالغ كما تحب، وأكثر ما يقال في التعبير عن سوء الأحوال، في مثل العبارة: " أصاب التدهور الأخلاقي والفساد كثيرا من الدول في العالم. أما عن البلاد النامية فحدث ولا حرج." هذه العبارة غير معروفة في اللغة الإندونيسية إلا أن هناك عبارة أخرى بنفس المعنى مع اختلاف اللفظ‘ فلا بد في ترجمتها إلى اللغة الإندونيسية لأجل الإفهام من التفسير بالتعبير المتداول في اللغة الإندونيسية ،كما يلي:

‘‘Kemerosotan moral dan korupsi melanda banyak Negara di dunia. Adapun tentang negara-negara berkembang maka ceritakan saja dan tiada dosa’’. (= jangan ditanya lagi)

(لا تسأل مرة أخرى= jangan ditanya lagi)

3-‘جناح بعوضة‘[11] للتعبير عن القلة والضآلة وضعف القيمة، في مثل العبارة: " هذا الشيء لا يساوي جناح بعوضة". هذه العبارة غير معروفة في اللغة الإندونيسية إلا أن هناك عبارة أخرى بنفس المعنى مع اختلاف اللفظ‘ فلا بد في ترجمتها إلى اللغة الإندونيسية لأجل الإفهام من التفسير بالتعبير المتداول في اللغة الإندونيسية ،كما يلي:

‘‘Hal ini tidak menyamai sayap nyamuk’’. (=Hal ini tak ada seujung kukunya)

(tak ada seujung kukunya= لا يساوي طرف الظفر)

4- دفن الرؤوس في الرمال[12] بمعنى تجاهل الحقائق وعدم الرغبة في الرؤية الصحيحة للواقع، في مثل العبارة: "الهروب من الواقع ودفن الرؤوس في الرمال لا يحل المشاكل". هذه العبارة غير معروفة في اللغة الإندونيسية إلا أن هناك عبارة أخرى بنفس المعنى مع اختلاف اللفظ‘ فلا بد في ترجمتها إلى اللغة الإندونيسية لأجل الإفهام من التفسير بالتعبير المتداول في اللغة الإندونيسية ،كما يلي:

‘‘Lari dari kenyataan dan menanam kepala dalam pasir (= tutup mata tutup telinga) itu tidak memecahkan masalah.’’

(غض البصر والأذن = tutup mata tutup telinga)

ج) التعبيرات الاصطلاحية العربية التي ليس لها تشابه في المعنى ولا في اللفظ مع التعبيرات الاصطلاحية الإندونيسية، مثل:

1-‘ذرا للرماد في العيون‘ [13]للدلالة على التضليل والتمويه وإخفاء حقيقة الأمر، في مثل العبارة: "تتظاهر إسرائيل برغبتها في التفاوض من أجل السلام ذرا للرماد في العيون". ليس في اللغة الإندونيسية مثل هذه العبارة لفظا أو معنى فلا بد في ترجمتها إلى اللغة الإندونيسية لأجل الإفهام من التفسير كما يلي:

‘‘Israel berpura-pura bersemangat untuk melakukan perundingan damai karena untuk menaburkan abu di mata orang-orang. (= untuk mengelabuhi orang-orang).

2- ‘البكاء على اللبن المسكوب‘[14] بمعنى الندم بعد فوات الأوان حين لا ينفع الندم، في مثل العبارة: "لا يكفي العرب البكاء على اللبن المسكوب بعد ضياع فلسطين" ليس في اللغة الإندونيسية مثل هذه العبارة

لفظا أو معنى فلا بد في ترجمتها إلى اللغة الإندونيسية لأجل الإفهام من التفسير كما يلي:

‘‘Tidak lah cukup orang-orang Arab menangisi air susu yang tumpah (= menyesali sesuatu yang sudah tidak dapat diambil kembali, sehingga penyesalan tak berguna lagi) setelah hilangnya Palestina.’’

3-‘رهن إشارتك‘[15] للتعبير عن الاستجابة التامة والطاعة المطلقة، في مثل العبارة: " إذا أردت مساعدة فأنا رهن إشارتك". ليس في اللغة الإندونيسية مثل هذه العبارة لفظا أو معنى فلا بد في ترجمتها إلى اللغة الإندونيسية لأجل الإفهام من التفسير كما يلي:

‘‘Jika kamu menghendaki bantuan maka saya digadaikan isyaratmu.(= saya siap kapan saja, layaknya barang yang sudah digadaikan yang sudah ada di tangan si penerima gadai).

4-‘ضرب أخماسا في أسداس‘ للتعبير عن الحيرة الشديدة، في مثل العبارة: " السقوط المريب للطائرة المنكوبة جعل الخبراء يضربون أخماس في أسداس". ليس في اللغة الإندونيسية مثل هذه العبارة لفظا أو معنى فلا بد في ترجمتها إلى اللغة الإندونيسية لأجل الإفهام من التفسير كما يلي:

‘‘Pesawat naas yang jatuh dengan tragis itu membuat para ahli mengalikan seperlima ke dalam seper enam.’’ (membuat para ahli amat kebingungan, tidak tahu penyebabnya. Sama seperti bingungnya orang Arab zaman dahulu untuk memecahkan perkalian 1/5 x 1/6)

5- يلقي الكلام على عواهنه[16]: للدلالة على الكلام الذي يقال بغير روية ولا تفكير، ودونما اهتمام بالصواب والخطأ، في مثل العبارة: "لا ينبغي للعالم أن يلقي الكلام على عواهنه، بل عليه أن يتحرى الصدق والحقيقة. "ليس في اللغة الإندونيسية مثل هذه العبارة لفظا أو معنى فلا بد في ترجمتها إلى اللغة الإندونيسية لأجل الإفهام من التفسير كما يلي:

‘‘Tidak seyogyanya orang yang pandai itu ketika berbicara melepaskan perkataan apa adanya dan tergesa-gesa. (= Seyogyanya orang pandai itu kalau berbicara jangan asal bicara, tetapi harus dilandasi kejujuran dan kebenaran.)

مما سبق بيانه فعلى المترجم في ترجمة التعابير الاصطلاحية ذات الجذور الأمثال كما سبق بيانه أن يبحث عما يقابلها في لغة الهدف فإن لم يجد فعليه أن يفهم المقصود منها ثم يترجمها ترجمة تفسيرية.

ج) التعبيرات الاصطلاحية في شكل الفعل أو المصدر والحرف

هناك بعض الفروق بين اللغتين العربية والإندونيسية في التعبيرات الاصطلاحية في شكل الفعل أو المصدر والحرف أمثال:

1--بخلاف في مثل العبارة: "قراءة الحروف العربية من اليمين إلى اليسار، بخلاف الحروف اللاتينية فإن قراءتها من اليسار إلى اليمين".

“Membaca huruf Arab itu dari kanan ke kiri, dengan berbeda (= berbeda dengan) bahasa huruf Latin,membacanya dari kiri ke kanan.”

2-رجا من: "الرجاء من جميع الطلاب حضور المحاضرة العامة في الساعة التاسعة صباحا في قاعة الجامعة."

“Dimohon dari (=kepada) semua mahasiswa menghadiri ceramah umum pukul sembilan pagi di aula universitas.”

3-وقف على ...: عرف السر والسبب[17] في مثل العبارة: "وقف الطبيب على سبب شكوى المريض"

“Dokter itu berhenti atas (=mengetahui sebab) keluhan pasien itu.”

4-وُقف على ...: مقصورا على ..[18] في مثل العبارة: "الإرهاب ليس موقوفا على بعض الدول دون بعض، ولكنه ظاهرة عالمية."

“Terorisme tidak diberhentikan atas (= tidak terbatas pada) sebagian negara tertentu bukan yang lain, tetapi terorisme itu adalah fenomena gelobal.”

5-لا يمتّ بصلة ل: للدلالة على النفي القاطع وعدم وجود علاقة بين الشيئين. في مثل العبارة: "الإرهاب لا يمتّ للإسلام بصلة".[19]

“Teror sama sekali tak ada hubungannya dengan Islam”.

التعبيرات الاصطلاحية ذات الجذور القرآنية، مثل:

1-لاترهقني من أمري عسرا[20] يستعمل في العربية المعاصرة بمعنى لا تحملني بما لا أطيق[21]، مثل العبارة: صاح الرجل بصاحبه بعد طول جدال: كفى جدالا يا أخي، ولا ترهقني من أمري عسرا.

“Orang itu teriak pada temannya setelah perdebatan yang panjang: cukup debatnya saudaraku, jangan tambah beban lebih lagi padaku dengan sesuatu yang aku tak mampu”.

2-لا تثريب عليك [22] بمعنى لا لوم عليك.[23] في مثل العبارة: قال الطالب لمدرسه هاتفيا: "معذرة إني لا أستطيع أن أحضر المحاضرة لأني مريض"، فأجابه:" لا تثريب عليك".

Mahaiswa itu berkata kepada dosennya melalui telpon: “Ma’af, sungguh saya tidak dapat hadir kuliah karena saya sakit”, maka dijawabnya: “tidak ada cela (= tak masalah)”

3-لا جرم: لا بد، لا محالة[24] من العبارة القرآنية: "لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون".[25])

“Tidak bisa tidak/ pasti, bahwa nerakalah bagi mereka dan sesungguhnya mereka segera dimasukkan.”

4-لا يسمن ولا يغني من جوع[26]، تعبير قرآني يستعمل في العربية المعاصرة للدلالة على الشيء التافه. في مثل

العبارة: "كان مرتب الموظف الحكومي قبل أربعين سنة لا يسمن ولا يغني من جوع".[27]

"Dulu gaji pegawai negeri empat puluh tahun yang lalu tidak membuat gemuk dan tidak menghilangkan lapar (= amat tidak seberapa)".

5- ما لبث أن: للتعبير عن سرعة الفعل أو التحول من التعبير القرآني: فما لبث أن جاء بعجل حنيذ[28]. فاستعمل في مثل العبارة: "بعد انخفاض أسعار السلع ما لبثت أن ارتفعت".[29]

"Setelah harga-harga itu turun, segera naik lagi".

د) التعبيرات الاصطلاحية ذات الجذور الحديثية:

1- لا فض فوك: دعاء لمن قال فأحسن القول أو للتعبير في سياقات ساخرة، لمن يقول كلاما في غير موضعه، مثل العبارة: أحسن الشيخ خطبة الجمعة فقال له المصلون: لا فض فوك. (معناه الحرفي: لا نثرت أسنانك أو لا يسقط أسنانك، الفم ههنا الأسنان) [30]

Syaikh itu bagus khutbah jum'atnya, maka para jama'ah berkata padanya: "semoga tidak rontok gigi-gigimu (= hebat)

2-القيل والقال: وهو القول بما لا يصح ولا تعلم حقيقته، وحكاية أقوال الناس، وتناقل الشائعات بين الناس، في مثل العبارة: "تتعرض الشخصيات المهمة للقيل والقال أكثر من غيرها"[31].

"Tokoh-tokoh penting itu lebih banyak menghadapi isu-isu yang tidak jelas alang ujungnya daripada yang lain."

3-حمي الوطيس: لوصف المعارك الحقيقية أو المعنوية. للتعبير عن اشتباك الحرب. الوطيس = التنور أي الفرن. في مثل العبارة: " اشتد القتال وحمي الوطيس بين قوات الاحتلال والفدائيين"[32]

Perang antara tentara pendudukan dengan para pejuang seru dan panas tungkunya (=amat dahsyat, amat seru)

4- لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين[33] بمعنى لا يصيبه مكروه أصابه من مصدر واحد مرتين. في مثل العبارة: "ينبغي على العرب أن يتعلموا الدرس من المحن المعاصرة، فالمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين".

"Seyogyanya bangsa Arab itu dapat mengambil pelajaran dari dari cobaan-cobaan yang mereka alami sekarang ini, karena orang mukmin itu (semestinya) tidak disengat dari lobang yang sama dua kali (= tidak jatuh pada kesalahan yang sama dua kali)."

التعبيرات الاصطلاحية من نوع آخر:

1-ذهابا وإيابا، في مثل العبارة: "ركب الطلاب من بيوتهم إلى الجامعة حافلة الجامعة بالمجان ذهابا وإيابا".

"Para mahasiswa itu naik bus dari rumah ke kampus dengan gratis pergi pulang (=pulang pergi).

2-على علاته في مثل العبارة: "عامل الناس على علاتهم فلا أحد يخلو من عيب".[34]

"Perlakukan orang-orang sebagaimana adanya, karena tak ada satu pun orang yang lepas dari kekurangan".

3-على رأس.. (ص378)

الأمم المتحدة تطالب إسرائيل بتطبيق اتفاقيات السلام وعلى رأسها مبدأ " الأرض مقابل السلام".

PBB menuntut Israel untuk menjalankan kesepakatan-kesepakatan damai di atas kepalanya (terutama) prinsip "tanah sebagai imbalan damai".

4 لات حين مناص، بمعنى لا يمكن التخلص والفرار منه[35]، مثل العبارة: "يحاول كثير من الناس أن يفروا من أقدارهم، ولكن القدر إذا جاء فلات حين مناص".

"banyak orang yang berupaya lari dari takdir, tetapi ketika takdir datang mereka tak dapat lari darinya."

5-فما بالك، بمعنى لا سيما في مثل العبارة: "هذا متعذر على أبناء اللغة أنفسهم فما بالك بالأجانب"

"Ini amat sulit bagi para penutur bahasa, apalagi bagi orang-orang asing."

ج –الفروق المتعلقة باستعمال حروف الجر

عرّف ابن منظور الحرف بأنه الأداة التي تسمى الرابطة لأنها تربط الاسم بالاسم والفعل بالفعل، والمراد بحروف الجر مثل: من وإلى وعن وعلى وفي والباء والكاف واللام. بالإضافة إلى الوظيفة البنائية فإن حروف الجر أيضا تقوم بالوظائف المعنوية، فإذا قلت: "ليس زيد بقائم" فمعنى ذلك: ليس زيد حقا قائما. وإذا قلت: " أمسكت بالحبل" فمعنى ذلك: أمسكته ملاصقة يدي له وإذا قلت: " أكلت من الطعام، فمعنى ذلك: أكلت بعض الطعام. مما سبق علمنا أن حرف الباء قد ناب عن معنى 'حقا' أو ' الملاصقة' كما ناب عن معنى ' بعض'. والمدار في تعيين معنى حرف الجر سياق الكلام.

على أن معاني حروف الجر قد تتوسع فدل بعضها على معاني بعض، مع ملاحظة بلاغية لا تخفى على المتأمل، مثل 'من' تأتي للظرفية (بمعنى في): "إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة (أي في يوم الجمعة)؛ وفي تأتي للاستعلاء (بمعنى على): "لأصلبنكم في جذوع النخل" (أي على جذوع النخل)؛ و'على' تأتي للظرفية (بمعنى في): على حين غفلة (أي في حين غفلة)؛ و'عن' تأتي للتعليل: "ما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك (أي لقولك)؛ والباء تأتي للتبعيض (بمعنى من) : عينا يشرب بها (أي منها)، وللظرفية (بمعنى في): وما كنت بجانب الغربي (أي في جانب الغربي)[36]

أما في اللغة الإندونيسية فإن الحروف الرابطة التي تقابل الحروف الجر التي سبق ذكرها مثل (dari; ke; atas; dalam; pada, seperti, untuk) لا تتوسع معانيها كما تتوسع حروف الجر في اللغة العربية.

د – ترجمة الكلمات التي لها أكثر من معنى

ينبغي للمترجم أن يتنبه دائما أن الكلمة الواحدة قد يكون – بل كثيرا ما يكون- لها أكثر من معنى فلا بد له من فهم سياق الكلام فهما جيدا. مثل كلمة مالك وساعة ومكتب فيما يأتي:

1-قال محمد هو ابن مالك أحمد ربي الله خير مالك

2-ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ... (الروم: 55)

3-اشترى عمى المكتب بعد أن رجع من مكتب البريد

بالإضافة إلى ذلك فيما يخص بنص القرآن لا بد للمترجم من مطالعة كتب التفسير ليتحقق له فهم القرآن وتدبره. ذلك لأن هناك بعض الكلمات التي يفهمها بعض الناس فهما خاطئا، مثل:

1-الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم. (البقرة: 46) يظنون بمعنى يتيقنون لا بمعنى يشكّون.

2-ويستحيون نساءكم (البقرة: 49) بمعنى يتركونهن على قيد الحياة، لا من الحياء.

3-ويسئلونك ما ذا ينفقون قل العفو (البقرة: 219) بمعنى: الفضل والزيادة أي أنفقوا مما فضل وزاد عن قدر الحاجة من أموالكم.

4-فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون (الأعراف: 4) قائلون من القيلولة أي في وقت القائلة منتصف النهار وليست من القول.

5-فلما رأينه أكبرنه وقطّعن أيديهن (يوسف: 32) قطّعن أيديهن بمعنى جرحن أيديهن بالسكاكين حينما ذهلن بجمال يوسف وليس بمعنى بترها.

6- إلا ولها كتاب معلوم (الحجر: 4) كتاب بمعنى أجل مقدر ومدة معروفة. وليس المراد هنا كتاب يُقرأ.[37]

هـ – ترجمة بناء المعلوم والمجهول

ونظام اللغة الإندونيسية يختلف عن نظام العربية في كثير من الظواهر اللغوية ولا سيما ترتيب الكلمات في تكوين الجملة. أما الترجمة من العربية إلى الإندونيسية فهناك بعض الأفعال المبنية للمجهول في اللغة العربية، وهي قليلة، ولكن توافقها الأفعال المبنية للمعلوم في اللغة الإندونيسية. فعلى المترجم أن يعرف الفرق بين نظام البناء للمجهول في الإندونيسية وبينه في العربية حتى لا يقع في الخطأ. وفيما بعد أمثلة على ذلك.

يسمى البناء للمعلوم أو البناء للفاعل في اللغة الإندونيسية bentuk aktif، بينما يسمى البناء للمجهول أو البناء للمفعول في اللغة الإندونيسية bentuk pasif. وإنما يسمى البناء معلوما لأن الفاعل معلوم أي مذكور في سياق الجمل، كما يسمى أيضا البناء للفاعل لأن الفاعل أسند إلى الفاعل. بينما يسمى البناء مجهولا لأن الفاعل مجهول أي غير مذكور في سياق الجمل، كما يسمى أيضا البناء للمفعول لأن الفعل أسند إلى المفعول الحقيقي المسمى بنائب الفاعل. والفرق بين العربية والإندونيسية في هذا الأخير أن الفاعل في اللغة الإندونيسية قد يكون مذكورا في الجمل وإن كان البناء مجهولا، وليس كذلك في العربية. فما دام البناء مجهولا فالفاعل فيها غير مذكور. يبدو أن هذا الفرق هو الذي سبب بعض الاندونيسيين يخطئون في ترجمة الجمل التي تحتوي على البناء للمجهول من الإندونيسية إلى العربية.

أ- البناء للمعلوم والمجهول في اللغتين: الإندونيسية والعربية، وترجمتها[38]:

في الأساس إن الأفعال المبنية للمعلوم في اللغة الإندونيسية تقابلها الأفعال المبنية للمعلوم في اللغة العربية، وكذلك الأفعال المبنية للمجهول في اللغة الإندونيسية تقابلها الأفعال المبنية للمجهول في اللغة العربية، ولكن هناك بعض المستثنيات فيما يخص باختلاف بعض تركيب الجمل في اللغة العربية كما يلي:

1- الأفعال التي على البناء للمعلوم في العربية وترجمتها إلى الإندونيسية بالبناء للمجهول

كثيرا ما تترجم الأفعال المبنية للمعلوم في الجمل العربية التي على ترتيب نظام الجملة على شكل: الفعل –

الضمير الواقع موقع المفعول به – الفاعل، بالأفعال المبنية للمجهول في اللغة الإندونيسية، كما في الأمثلة الآتية:

1-هذا الحديث رواه البخاري ومسلم

Hadis ini meriwayatkannya (diriwayatkan oleh) al-Bukhari.

2- طوبى لمن شغلته عيوبه عن عيوب الناس

Beruntung, orang yang menyibukkannya kekurangan-kekurangannya (disibukkan oleh kekurangan-kekurangannya) (sehingga tidak sempat meneliti) kekurangan-kekurangan orang lain.

3-هذا ما اتفق عليه العلماء

Ini adalah apa yang telah menyepakati atasnya (disepakati oleh) para ulama.

وهناك بعض الأفعال في اللغة العربية وهي على شكل البناء للفاعل ولكن يحسن ترجمتها إلى اللغة الإندونيسية بالأفعال المبدوءة ب " ter " على شكل البناء للمجهول كما في الأمثلة التالية.

1) ثبت علميا أن للصوم منافع صحية للإنسان

Terbukti secara ilmiah bahwa puasa itu bermanfaat dari sisi kesehatan bagi manusia

2) ورد في الحديث أنه كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع

Tersebut dalam hadis bahwa banyak orang yang berpuasa yang tak mendapat apa-apa dari puasanya kecuali lapar.

3) نشأت في بيئة متدينة

Saya dibesarkan di lingkungan yang agamis.

وهناك أيضا استخدام أفعال مثل: تم / يتم + مصدر للدلالة على صيغة المبني للمجهول[39]، مثل:

1) تم نقل المعلومات في التوراة والإنجيل بشكل يفهمه الناس

Pengalihan informasi dalam Taurat dan Injil dilakukan dengan cara yang dipahami oleh orang-orang

2) هذا المسجد سيتم بناؤه في آخر هذا العام.

Masjid ini akan selesai dibangun di akhir tahun ini.

2- البناء للمجهول في العربية وترجمتها إلى الإندونيسية بالبناء للمعلوم:

هناك بعض الأفعال المبنية للمجهول في اللغة العربية التي ترجمت إلى اللغة الإندونيسية بالأفعال المبنية للمعلوم أو ما في معناها. والبناء للمجهول المراد هنا هو ما ضم أوله وكسر ما قبل آخره في الماضي، وفتح ما قبل آخره في المضارع. وصيغة اسم المفعول داخلة في معنى البناء للمجهول. أما البناء للمجهول في اللغة الإندونيسية هو الأفعال المبدوءة ب di أو ter وإليك هذه الأمثلة:

1) أُعجبت بجمال هذه المناظر الطبيعية

Saya kagum dengan indahnya pemandangan alam ini

ترجمت كلمةُ أُعْجِبت ب: kagum ولم تترجم ب: dikagumkan مع أنها على شكل البناء للمجهول. وفيما يلي أمثلة في نفس الشكل:

2) عُنِيت الحكومة بالقضاء على الإرهابية[40]

Pemerintah mempunyai perhatian untuk memerangi terorisme

3)سُرِرت بلقاءك / أنا مسرور بلقاءك

Saya senang bertemu denganmu

4)المجنون من ليس له عقل سليم

Orang gila adalah orang yang tak punya akal sehat.

5) تُوفي أبي قبل أكثر من عشر سنوات

Ayahku telah wafat lebih dari sepuluh tahun lalu.

6)- لقد أفاق الرجل الذي أُغمي عليه

Orang yang pingsan itu telah sadar.

7) هل أخوك موجود في الفصل؟

Apakah saudaramu ada di dalam kelas?

8) وُلِد أحمد في هذه المدينة

Ahmad lahir di kota ini.

9) لم يذهب محمود إلى الجامعة هذا اليوم لأنه مشغول في البيت

Mahmud tidak pergi ke kampus hari ini karena ia sibuk di rumah

أنظر الكلمات التي تحتها خط في اللغة الإندونيسية التي هي ترجة الكلمات التي تحتها خط في العربية، ليس هناك علامات البناء للمجهول حيث لم تبدأ الترجمة بحرف di أو ter، وذلك يرجع إلى اختلاف نظام التعبير عن المعنى في كلتا اللغتين. فعلى المترجم معرفة الفروق بين اللغتين: لغة الأصل ولغة الهدف.

3- البناء للمعلوم في اللغة الإندونيسية وترجمتها إلى العربية إلى البناء للمجهول

1)-Di Indonesia ada lebih dari 13 000 pulau besar dan kecil.

يو جَد في إندونيسيا أكثر من ثلاثة عشر ألف جزيرة كبيرة وصغيرة.

2)-Saya senang bertemu denganmu pagi ini

سُرِرْت بلقاءك في هذا الصباح.

3)-Saya kagum akan kemampuan anak umur 10 tahun telah hafal al-Qur'an tiga puluh juz di luar kepala.

أُعْجِبْت بمهارة الولد الذي بلغ من عمره عشر سنوات وقد حفظ القرآن ثلاثين جزءا على ظهر القلب.

4)-Surat yang saya terima sebulan yang lalu itu sungguh telah hilang.

لقد فُقِدت الرسالة التي تلقيتها قبل شهر.

5)-Dia (lk) lahir dibesarkan dan meninggal di kota ini.

وُلِدَ ونشأ وتُوُفِّيَ في هذه المدينة.

مما سبق من الأمثلة يمكننا أن نلاحظ أن الكلمات: meninggal, lahir, hilang, kagum, senang, ada, هذه كلها مبنية للمعلوم ولكنها كلها تترجم إلى اللغة العربية بالأفعال المبنية للمجهول حيث ضم أولها وكسر ما قبل آخرها، وبعبارة أخرى: يمكننا أن نقول أن بعض الأفعال المبنية

للمعلوم تقابلها الأفعال المبنية للمجهول في اللغة العربية. فالأمر يرجع إلى استعمال الناطقين باللغة نفسها.

4- البناء للمجهول في اللغة الإندونيسية وترجمتها إلى اللغة العربية بالبناء للمعلوم

الفرق الأساسي بين تركيب البناء للمجهول في اللغة الإندونيسية وبينه في اللغة العربية أن الفاعل في البناء للمجهول غير مذكور في اللغة العربية. أما في اللغة الإندونيسية فالفاعل قد يذكر وإن كان الفعل مبنيا للمجهول. وعلى هذا الأساس، إذا كان الفعل على بناء المجهول في اللغة الإندونيسية، ومع ذلك ذكر فيه الفاعل، فترجمتها في اللغة العربية على شكل البناء للمعلوم وليس للمجهول، على أن يكون تركيب الجملة في اللغة العربية في شكل: فعل – ضمير (مفعول به) – فاعل كما في الأمثلة الآتية:

1) Buku bahasa Arab yang akan saya beli itu sudah dibeli oleh seseorang dua hari yang lalu

كتاب اللغة العربية التي سأشتريه قد اشتراه أحد قبل يومين

2) Buku itu sedang dibaca oleh ayahku di kamarnya dan majalah itu sedang dibaca oleh ibuku di depan rumah.

الكتاب يقرأه أبي في غرفته والمجلة تقرأها أمي أمام البيت.

3)Bahasa Inggris itu sudah dipelajari bahkan sudah dikuasai dengan baik oleh para mahasiswa yang akan melanjutkan studinya ke London.

اللغة الانجليزية قد درسها بل ألمّ بها الطلاب الذين يريدون أن يواصلوا دراستهم إلى لندن إلماما جيدا.

4)Kesulitan pertama yang dihadapi oleh sebagian mahasiswa Indonesia di negara-negara Eropa adalah penyesuaian diri dengan cuacanya.

المشكلة الأولى التي يواجهها بعض الطلاب الإندونيسيين في الدول الأوربية التكيف بالمناخ.

5) Undang-undang yang telah dibuat oleh DPR itu dapat diubah sesuai dengan tuntutan zaman.

القوانين التي وضعها مجلس النواب قابلة للتغيير وفقا لمتطلبات الزمان.

وفي عصرنا الحاضر هناك عبارة "من قبل" في اللغة العربية كترجمة حرفية لحرف " by"باللغة الإنجليزية الذي يرد في صيغ المبني للمجهول مثل: كُتِبَ الدرسُ من قِبَل على مقابل العبارة الإنجليزية: The lesson was written by Ali. هذا بالطبع من تأثير اللغة الأجنبية مثل الإنجليزية.[41] واللغة الإندونيسية في هذه العبارة مثل اللغة الإنجليزية من ناحية التركيب تماما. لو أن هذا الأسلوب مقبول في اللغة العربية فهو يسهّل المترجمين الإندونيسيين، إلا أنه خارج عن قواعد اللغة العربية وأقيستها المعروفة وهو من تأثير الترجمة على لغة الإعلام[42].

وقد تكون الترجمة في اللغة العربية على شكل صيغة المصدر لأنها تحتمل معنى البناء للمعلوم والمجهول على السواء، مثل ترجمة dapat diubah ب قابلة للتغيير كما ذكر آنفا وفي الأمثلة الآتية:

6) Sesungguhnya minuman keras itu tidak layak diminum dari sisi kesehatan maupun syari'ah.

إن الخمر غير صالحة للشرب صحة وشرعا.

7) Ini perkara yang jelas tak perlu dijelaskan.

هذا أمر واضح غني عن البيان

الأفعال المبنية للمجهول في اللغة الإندونيسية قد تترجم بصيغة المصدر في اللغة العربية وذلك لأن مصدر الأفعال المبنية للمجهول هو نفس مصدر الأفعال المبنية للمعلوم فيمكن استخدامه لترجمة الأفعال المبنية للمجهول في اللغة الإندونيسية كما سبق، ويمكن استخدامه كذلك لترجمة الأفعال المبنية للفاعل في اللغة الإندونيسية كما في الأمثلة الآتية:

1) Kita harus membiasakan diri kita disiplin dalam belajar.

لا بد لنا من تعويد أنفسنا على الانضباط في الدراسة.

2)Sebaiknya anda menghadiri rapat hari ini.

يحسن بك حضور الاجتماع هذا اليوم.

مما سبق بيانه لا بد في ترجمة صيغة المصدر من النظر إلى سياق الكلام لأنها قد تفيد معنى البناء للفاعل كما قد تفيد معنى البناء للمجهول كما مرّ بيانه.

أما الأفعال ذات المعنى المثبت والمنفي فهناك في العربية بعض الأفعال المتضمنة معنى الإثبات ولكن توافقها الأفعال المتضمنة معنى النفي في اللغة الإندونيسية، والعكس صحيح. فعلى المترجم الانتباه بهذه الأفعال حتى لا يقع في خطأ الترجمة.

ب – الأفعال ذات المعنى المثبت والمنفي في اللغتين العربية والإندونيسية

الأصل أن الأفعال ذات المعنى المثبت في اللغتين: العربية والإندونيسية تقابلها الأفعال ذات المعنى المثبت، كما أن الأفعال ذات المعنى المنفي تقابلها الأفعال ذات المعنى المنفي، ولكن هناك بعض الأفعال المثبة في اللغة العربية تترجم إلى اللغة الإندونيسية بالأفعال المنفية، والعكس صحيح. أما الأفعال المثبتة في العربية ولكنها تترجم إلى اللغة الإندونيسية بالنفي فمثل:

1)- يبدو أن هناك أمورا مهمة ما زالت يجهلها كثير من الطلاب.

Ternyata ada hal-hal penting yang masih tidak diketahui oleh para mahasiswa.

2)-يوجد كثير من خريجي المدارس الثانوية عجزوا عن مواصلة دراساتهم لأسباب اقتصادية.

Ada banyak alumni Sekolah Lanjutan yang tidak mampu melanjutkan studinya karena masalah-masalah ekonomi.

3)- إن شهرة جامعة الأزهر في مصر غنية عن النقاش لأنها من أقدم الجامعات الإسلامية في العالم.

Sesungguhnya ketenaran Universitas al-Azahar di Mesir itu tak perlu diperdebatkan karena Universitas tersebut adalah Universitas Islam tertua di dunia.

4)-الانضباط في الدراسة شيء يرغب عنه الكسالى

Kedisiplinan dalam studi adalah merupakan sesuatu yang tidak disukai (dibenci) oleh para pemalas.

يرى الكاتب أن هناك فرقا ذوقيا لطيفا بين tidak disukai وبين dibenci فيميل الكاتب في هذا السياق إلى الترجمة التي تحتها خط.

5)رغم غياب مدير الشركة فإن العمل ظل يسير على قدم وساق

Meskipun direktur perusahaan itu tidak masuk pekerjaan tetap berjalan dengan baik.

5-كاد الفقر أن يكون كفرا

2- الأمثلة من الأفعال المنفية في العربية ولكنها تترجم بالأفعال المثبة في الإندونيسية:

1)- لا يستغني كل طالب العلوم الشرعية عن الإلمام باللغة العربية إلماما جيدا.

Setiap mahasiswa yang menekuni ilmu-ilmu syari'ah harus menguasai bahasa Arab dengan baik.

2)- لا يزال الكثير من طلاب الجامعات الإسلامية يهتمون باللغة العربية.

Masih banyak mahasiwa Universitas Islam yang memperhatikan bahasa Arab.

3)- لا أقسم بهذا البلد. وأنت حل بهذا البلد

Aku benar-benar bersumpah dengan kota ini (Mekah). Dan kamu (Muhammad) bertempat di kota Mekah ini.[43]

4)- فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنه لقسم لو تعلمون عظيم

Aku bersumpah dengan hari kiamat. Dan Aku bersumpah dengan jiwa yang amat menyesali (dirinya sendiri).[44]

5)-إن أركان الإسلام الخمسة أمر لا بد ألا يجهلها المسلمون.

Rukun Islam yang lima itu suatu hal yang harus diketahui oleh umat Islam.

6)- إن الواجبات الشرعية الإسلامية شيء لا يعجزه كل من له نية صادقة لأداءه.

Kewajiban-kewajiban syari'ah Islam adalah sesuatu yang setiap orang yang memiliki niat yang sungguh-sungguh dapat melaksanakannya.

7) لا بد للمترجم من الإحاطة باللغتين: لغة الأصل ولغة الهدف إحاطة تامة.

Penerjemah harus menguasai dua bahasa: bahasa sumber dan bahasa sasaran.

8)- لا أعرف هذا الأمر إلا الآن

Saya baru tahu perkara ini sekarang (Saya tidak tahu hal ini kecuali sekarang).

9) مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يُصَلِّى لِلَّهِ كُلَّ يَوْمٍ ثِنْتَىْ عَشْرَةَ رَكْعَةً تَطَوُّعًا غَيْرَ فَرِيضَةٍ إِلاَّ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ أَوْ إِلاَّ بُنِىَ لَهُ بَيْتٌ فِى الْجَنَّةِ. رواه مسلم[45]

Setiap orang Islam yang salat karena Allah setiap hari dua belas rakaat, salat sunat, selain yang fardlu, Allah pasti buatkan

untuknya sebuah rumah di sorga atau ia pasti dibuatkan sebuah rumah di sorga. Diriwayatkan oleh Imam Muslim.

10)" ما إن وقف القطار حتى ازدحم الركاب على الصعود إليه"، "وما إن طلع الفجر حتى أذن المؤذن[46]"

Begitu kereta berhenti, para penumpang berdesakan naik. Begitu terbit fajar, muazzin mengumandangkan azan.

نتيجة لما ذكر فإن هناك نفس الأساليب في اللغة الإندونيسية التي تتضمن معنى الإثبات ولكنها تترجم ترجمة منفية في العربية **مثل:**

1) Setiap mahasiswa harus mempersiapkan diri dengan hal-hal yang amat diperlukan dalam studinya.

على كل طالب الاستعداد بالأشياء التي لا يستغني عنها في دراسته.

2) Dasar-dasar budi pekerti adalah sesuatu yang harus diketahui oleh setiap orang yang beradab.

المبادئ الأخلاقية شيء لا يستغني عنه كل مثقف.

3) Begitu teman saya tahu bahwa yang di depannya adalah teman akrabnya yang dulu belajar bersamanya di Sekolah Dasar 30 tahun yang lalu, ia memeluknya.

ما كاد يعرف صديقي أن الرجل الذي أمامه هو صديقه الحميم الذي كان يدرس معه قبل ثلاثين سنة حتى عانقه. أو

ما إن عرف صديقي أن الرجل الذي أمامه هو صديقه الحميم الذي كان يدرس معه قبل ثلاثين سنة حتى عانقه.

3)Mereka berkata: sekarang barulah kamu menerangkan hakikat sapi betina yang sebenarnya. Kemudian mereka menyembelihnya dan mereka baru melaksanakan perintah itu (hampir saja mereka tidak melaksanakan perintah itu).

قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون[47]

4) Aku selalu berusaha memperbaiki hubunganku dengan teman-temanku selama mereka memperlakukanku dengan baik.

لا أزال أحاول تحسين علاقتي مع أصدقائي ما داموا يعاملونني معاملة حسنة.

4- الأفعال المنفية في الإندونيسية التي تترجم ترجمة مثبتة في العربية مثل:

1)Problem-problem kehidupan itu terkadang amat komplek sehingga banyak orang tidak mampu memecahkannya.

قد تكون مشكلات الحياة معقدة للغاية حتى عجز كثير من الناس عن حلها.

2) Jangan ungkapkan kata-kata tak disukai oleh temanmu agar dia tidak menjauh darimu.

لا تعبر عن الكلمات التي يرغب عنها صديقك لكيلا يبتعد عنك.

5-استخدام حرف الباء في اللغة العربية لما هو متروك في أفعال: أبدل – بدّل – تبدّل – استبدل وما يشبهها[48]، أما اللغة الإندونيسية فحرف الباء (dengan) للدلالة على المأخوذ والمستخدم، لا المتروك، الأمثلة:

1-بدّل أحمد ملابس الشتاء بملابس الصيف إذا جاء موسم البرد؛ أو بدّل أحمد بملابس الصيف ملابس الشتاء إذا جاء موسم البرد. في الإندونيسية:

Ahmad mengganti baju-baju musim panas dengan baju-baju musim dingin, ketika datang musim dingin.

2-من الخير أن تستبدل بقلم الحبر السائل قلم الحبر الجاف.. في الإندونيسية:

Sebaiknya kau mengganti pena basah (pena tinta) dengan pena kering (bulpoin).

3-ولا تتبدلو الخبيث بالطيب.[49] في الإندونيسية:

Dan janganlah kaliah ganti yang baik dengan yang buruk.

4- ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل.[50] في الإندونيسية:

Siapa yang mengganti keimanan dengan kekufuran maka ia sungguh telah sesat dari jalan yang lurus.

5-أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين.[51] في الإندونيسية:

Mereka itulah orang yang membeli kesesatan dengan petunjuk, maka tiadalah beruntung perniagaan mereka dan tidaklah mereka mendapat petunjuk.

الخاتمة:

لا بد لعمل الترجمة من الاهتمام بخصائص اللغتين: لغة الأصل ولغة الهدف، إذ لكل منهما منطقه ونظامه في التعبير عن المعنى، وذلك لأن الترجمة نقل المعنى الذي تتضمنه لغة الأصل إلى لغة الهدف بحيث تفيد لغة الهدف المعاني التي تتضمنها لغة الأصل، مع أن في كلتا اللغتين أوجه الشبه والفروق سواء كانت قريبة أو بعيدة. وقد تكون الترجمة التامة شبه المستحيلة في مواضع تكون بين اللغتين اختلافات كبيرة. ومهما يكن من أمر، فإن الترجمة كثيرا ما تكون تقريبية لأنها قد تكون معقدة جدا. والمعيار في الترجمة هو أن يكون المعنى في لغة الهدف التي ترجم إليه نص لغة الأصل هو نفس المعنى التي في لغة الأصل. ولذلك من الشروط التي يجب توفرها في الترجمة أن يلمّ المترجم إلماما تاما باللغتين: لغة الأصل ولغة الترجمة. والإلمام التام بلغة من اللغات يكاد يكون مستحيلا، ولا سيما العربية التي بلغ عمرها أكثر من أربعة عشر قرنا والتي تتطور في هذه المدة الطويلة. وخير ما يقال في هذا الأمر: ما لا يدرك كله لا يترك أقله. فالمهم على القائمين بعمل الترجمة المحاولة بكل الجهود للإلمام باللغتين: لغة الأصل ولغة الترجمة.

فما قدمنا من الأمثلة في الترجمة من نتائج تجربة الكاتب في تدريس الترجمة من الإندونيسية إلى العربية وبالعكس أكثر من عشرين سنة، مع ما فيها من قصور ونقصان، إذ الكمال لله وحده.

المصادر والمراجع:

كتاب صحيح مسلم

حسن منديل حسن عكيلي، دراسات نحوية، بيروت: دار الكتب العلمية، 2012

علي يونس الدهش، الأساليب الإنجليزية في اللغة العربية المعاصرة، في دور اللغة العربية في عملية البناء الحضاري، 2011

حسن منديل حسن عكيلي، دراسات نحوية، بيروت: دار الكتب العلمية، 2012

عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، مجلد 2،

عبد الغفار حامد هلال، علم اللغة بين القديم والحديث، شبرا: مطبعة الجبلاوي ط 2، 1986

علي حسني المزين، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، العدد الثاني السنة الثانية

عبد المجيد إبراهيم السيد، مائة كلمة قرآنية قد تفهم خطأ، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، 2012

كارم السيد غانم، اللغة العربية والصحوة العلمية الحديثة، الرياض: مكتبة الساعي، 1990

محمد عناني، فن الترجمة، القاهرة: الشركة العالمية للنشر لونجمان، 2004

محمود اسماعيل صيني وآخرون، العربية للناشئين، بيروت: مؤسسة سعيد الصباغ، 1983، المجلد الرابع،

محمد شحرور، الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة، دمشق: الأهالي، 1990

محمد محمد داود، معجم التعبير الاصطلاحي في العربية المعاصرة، القاهرة: دار غريب، 203،

محمود إسماعيل عمار، الأخطاء الشائعة في استعمالات حروف الجر، الرياض: دار عالم الكتب: 1998

وزارة الشؤون الدينية الإندونيسية، القرآن وترجمة معانيه إلى اللغة الإندونيسية، المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1433 هـ

Ahmad Warson Munawwir. Al-Munawwir. Yogyakarta: Pesantren al-Munawwir, 1984

http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=279017 diakses 28 Juli 2015

هوامش البحث:

[1] كارم السيد غانم، اللغة العربية والصحوة العلمية الحديثة، الرياض: مكتبة الساعي، 1990، ص: 32

[2] حسن منديل حسن عكيلي، دراسات نحوية، بيروت: دار الكتب العلمية، 2012، ص: 5

[3] عبد الغفار حامد هلال، علم اللغة بين القديم والحديث، ص: 105

[4] علي حسني المزين، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، العدد الثاني السنة الثانية، ص: 222

[5] محمد محمد داود، معجم التعبير الاصطلاحي في العربية المعاصرة، القاهرة: دار غريب، 203، ص 288

[6] محمد محمد داود، معجم التعبير الاصطلاحي..... ص 116

[7] محمد محمد داود، معجم التعبير الاصطلاحي.....ص 76

[8] محمد محمد داود، معجم التعبير الاصطلاحي..... ص 268

[9] محمد محمد داود، معجم التعبير الاصطلاحي.....ص: 240

[10] محمد محمد داود، معجم التعبير الاصطلاحي.....ص235

[11] محمد محمد داود، معجم التعبير الاصطلاحي.....ص 225

[12] محمد محمد داود، معجم التعبير الاصطلاحي..... ص 268

[13] محمد محمد داود، معجم التعبير الاصطلاحي.....ص 272

[14] محمد محمد داود، معجم التعبير الاصطلاحي.... ص 77

[15] محمد محمد داود، معجم التعبير الاصطلاحي.... ص292

[16] داود، معجم التعبير الاصطلاحي.....ص591

[17] داود، معجم التعبير الاصطلاحي.....ص559

[18] داود، معجم التعبير الاصطلاحي..... ....ص 559

[19] داود، معجم التعبير الاصطلاحي..... ....ص 467

[20] سورة الكهف: 73

[21] داود، معجم التعبير الاصطلاحي..... ....ص 459

[22] سورة يوسف: 92

[23] داود، معجم التعبير الاصطلاحي..... ....ص 459

[24] داود، معجم التعبير الاصطلاحي..... ....ص 458

[25] سورة النحل: 62

[26] سورة الغاشية: 7

[27] داود، معجم التعبير الاصطلاحي..... ....ص 464

[28] سورة هود: 69

[29] داود، معجم التعبير الاصطلاحي..... ....ص 481

[30] داود، معجم التعبير الاصطلاحي..... ....ص461

[31] داود، معجم التعبير الاصطلاحي..... ....ص123

[32] داود، معجم التعبير الاصطلاحي..... ....ص 244

[33] داود، معجم التعبير الاصطلاحي..... ....ص 467

[34] داود، معجم التعبير الاصطلاحي..... ....ص 381

[35] داود، معجم التعبير الاصطلاحي..... ....ص 458

[36] محمود إسماعيل عمار، الأخطاء الشائعة في استعمالات حروف الجر، الرياض: دار عالم الكتب: 1998، ص 24-26

[37] عبد المجيد إبراهيم السنيد، مائة كلمة قرآنية قد تفهم خطأ، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، 2012، ص: 9-23

[38] قارن: محمد عناني، فن الترجمة، القاهرة: الشركة العالمية للنشر لونجمان، 2004، ص 67 - 96

[39] علي يونس الدهش، الأساليب الإنجليزية في اللغةالعربية المعاصرة، في دور اللغة العربية في عملية البناء الحضاري، ص 384

[40] Ahmad Warson Munawwir. *Al-Munawwir.* Yogyakarta: Pesantren al-Munawwir, 1984, hlm 667-961-1052

[41] علي يونس، *نفس المصدر*، ص 384

[42] علي يونس، *نفس المصدر*، ص 385

[43] وزارة الشؤون الدينية الإندونيسية، القرآن وترجمة معانيه إلى اللغة الإندونيسية، المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1433 هـ، ص 1060

[44] المصدر نفسه، ص 998

[45] تمام الحديث: عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- أَنَّهَا قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ «مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يُصَلِّى لِلَّهِ كُلَّ يَوْمٍ ثِنْتَىْ عَشْرَةَ رَكْعَةً تَطَوُّعًا غَيْرَ فَرِيضَةٍ إِلاَّ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ أَوْ إِلاَّ بُنِىَ لَهُ بَيْتٌ فِى الْجَنَّةِ». قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ فَمَا بَرِحْتُ أُصَلِّيهِنَّ بَعْدُ. وَقَالَ عَمْرٌو مَا بَرِحْتُ أُصَلِّيهِنَّ بَعْدُ. وَقَالَ النُّعْمَانُ مِثْلَ ذَلِكَ. رواه مسلم.

[46] http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=279017 diakses 28 Juli 2015:

كثيرا ما يقع خطأ في كلمتي "أَنْ" و"إِنْ" إذا سبقتهما ما يفتح همزتهما فيقال: "ما أن سمعت الأمُّ بكاءَ طفلها حتى سارعت إليه ."والصواب هو "ما إن سمعت" بكسر الهمزة؛ لأن "إِنْ" مكسورة الهمزة التي تأتي بعد "ما" النافية تكون زائدة إذا تبعتها جملة فعلية. والمعنى على ذلك "في اللحظة التي سمعتْ، وبمجرد

ما سمعتْ". أما "أَنْ" المفتوحة فلا تكون زائدة، بل لها أثر يظهر على بنية الكلمة وهو غير موجود في التعبير؛ لذا يبقى الصواب هو "ما إن". ونقول: "ما إن وقف القطار حتى ازدحم الركاب على الصعود إليه"، "وما إن طلع الفجر حتى أذن المؤذن."

[47] البقرة: 71

[48] محمود إسماعيل عمار، *الأخطاء الشائعة في استعمال حروف الجر*، الرياض، دار عالم الكتب: 1998، ص 283

[49] (النساء: 2)

[50] البقرة: 108

[51] البقرة: 16

التوجيه اللغوي لانفرادات الإمام قالون
في روايته عن الإمام نافع

أ/خالد خالدي
أستاذ مساعد بقسم العلوم الإسلامية
جامعة تلمسان

الملخص:

يتناول هذا البحث ما انفرد به الرّاوي الأوّل للإمام نـافع المدني الإمام قالون، والّذي أخذ عنه القراءة من غير واسطة، وهو المقدّم على الإمام ورش عند أهل الأداء. فانفرد هذا الإمام الجليل بستة أحرف كما بيّن ذلك الإمام الدّاني في كتابه "التّهذيب لما تفرّد به كلّ واحد من القرّاء السبعة "، فوقفت عند هاته الحروف رواية ودراية.

الكلمات المفتاحيّة: الانفرادات، التوجيه، رواية قالون عن نافع.

Abstract

This research deals exclusively with the first narrator, Imam Nafi' al-Madani, Imam Qallun, who took the reading from a non – medium. He is the preacher on the Imam Worsh in the people of performance. This unique Imam was distinguished by six letters, as indicated by Imam al Dani in his book "By each of seven readers" and stood in these characters novel and knowledge.

Keywords: Singularity, orientation, Quallun's novel narrated by Nafi' al-Madani.

المقدّمة:

بسم الله وكفى، والصلاة والسّلام على المصطفى، وعلى آله الأطهار وصحبه الأخيار ومن وفّى، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين، أمّا بعد:

يعتبر القرآن الكريم أعظم الكتب المنزّلة، فهو أحسنها نظاما، وأبينها حلالا، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ولما كان كذلك حظي بعناية فائقة رسما، وضبطا، وقراءة وإقراءً، وحفظا، وتجويدا، وفهما، وتدبّرا، واستنباطا. فهو مفجّر العلوم ومنبعها، ودائرة شمسها ومطلعها، أودع فيه سبحانه وتعالى علم كلّ شيء... ومن أجلّ هاته العلوم المتّصلة اتّصالا وثيقا بالقرآن القراءات القرآنية، الّتي هي قراءة ألفاظه بوجوه مختلفة يحتملها الرّسم العثماني، وقد لا يختلف اثنان أنّ القراءات كانت ولا زالت معينا لا ينضب للباحثين، وزخرا مليئا بالدّرر والجواهر، لما لهذا العلم من علاقة وطيدة بشتّى العلوم والفنون، كالتفسير

والفقه وعلوم العربية. وقراءة نافع المدني إحدى هاته القراءات، والّذي روى عنه القراءة الإمام قالون والإمام ورش، فانفرد كلّ واحد منهما بأحرف لم يشاركه فيها غيره من القرّاء ولا رواتهم. فجاءت الدراسة موسومة "**التوجيه اللغوي لانفرادات الإمام قالون في روايته عن الإمام نافع**". والإشكال الّذي نطرحه والّذي نحاول الإجابة عنه هو: ماهية الانفرادات؟ وما طبيعة ما انفرد به الإمام قالون في روايته عن الإمام نافع؟ وهل تعرّضت هاته الرّواية للطعن من قبل النّحويّين واللّغويّين؟

التمهيد: الإمام قالون والانفرادات

التعريف بقالون

هو أبو موسى عيسى بن مينا بن وردان بن عيسى بن عبد الصّمد بن عمر بن عبد الله المدني الزّرقي مولى بني زهرة [1]، لقّب بقالون وهي كلمة روميّة تعني: جيّد، وكان أوّل من أطلق عليه هذا اللقب شيخه نافع، فقد روي أنّه كان إذا قرأ عليه يقول له: قالون أي: جيّد، يلاطفه بلغته.[2] قال ابن الجزري:""سألت الرّوم عن ذلك فقالوا: نعم غير أنّهم نطقوا لي بالقاف كافا على عادتهم هكذا (كالون)[3].

ولد الإمام قالون سنة عشرين ومائة [4]، وقرأ القرآن على شيخه الإمام نافع مرّات كثيرة، وقيل إنّه كان ربيبه، وقد سئل هذا الإمام الجليل: كم قرأت على نافع؟ فقال: مالا أحصيه كثرة، إلّا أنّني جالسته بعد الفراغ عشرين سنة.[5]

كما قرأ القرآن على عيسى بن وردان الحذّاء[6]. وقد انقطع قالون لإقراء القرآن وتعليمه، وتعليم العربية، فذاع صيته في المدينة وتولّى منصب شيخه بعده، فقد عاش نحو نيّفا وثمانين سنة[7] .

تتلمذ عليه كثيرون أشهرهم: ابناه أحمد وإبراهيم، وأبو نشيط محمّد بن هارون [8]، وأحمد بن يزيد الحلواني[9]، وأحمد بن صالح المصري[10]، وإبراهيم بن الحسين الكسائي[11]،وغيرهم[12].

ومن أهم ما اتّصف به الرّاوي الأوّل للإمام نافع أنّه كان أصمَّ شديد الصّمم لا يسمع البوق، أمّا إذا قرأ عليه قارئ فإنّه يسمع. وقيل إنّ الصمم هذا أصابه في آخر عمره بعد أن أُخذت القراءة عنه.[13]

توفي الإمام قالون –رحمه الله –سنة عشرين ومائتين بالمدينة المنوّرة[14].

ماهية الانفرادات

الانفراد لغة: يقال انفرد بالشّيء: إذا استفرده، ويقال: أفرد وانفرد واستفرد بمعنى تفرّد به[15]. والفرد" الّذي لا يختلط به غيره، فهو أعمّ من الوتر وأخصّ من الواحد وجمعه فرادى".[16]ومنه قوله تعالى:{ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ } (الأنبياء: 89). أمّا اصطلاحا: هي "ما يعزّى من أوجه القراءات إلى قارئ من الأئمّة أو أحد رواتهم أو أحد طرقهم، ومنها ما هو في عداد الشاذّ، ومنها ما هو عي عداد المتواتر، ويعبّر عنها ب(التفرّد)، و(الانفراد)، و(الأفراد)[17]. جاء في معجم مصطلحات علم القراءات "الانفرادات لها معنيان: الأوّل: ما انفرد بقراءته أحد القراء العشرة على وجه منفرد مخالف لبقيّة القرّاء"[18].

ممّا سبق يتبيّن أنّ الانفراد يمكن أن ينفرد به الإمام المقرئ الّذي تروى عنه القراءة، أو أحد رواته الّذين رووا عنه القراءة، أو أحد طرقهم. فمثلا يمكن أن نقول: انفرد الإمام نافع بقراءة كذا، أو انفرد الإمام قالون –وهو الرّاوي الأوّل عنه –بقراءة كذا، أو انفرد ورش عن طريق الأزرق بقراءة كذا.

ودراسة انفرادات القرّاء السبعة لها أهمّيّة كبيرة أجملها في النّقطتين الآتيتين:

أمّا أحدهما فهذه الانفرادات دليل قاطع وحجّة دامغة على أنّ القرآن وقراءاته ليس فيهما أيّ تناقض أو تنافر، وهي طاردة من الأذهان شُبهة التّضاد الّتي أثارها بعض الملحدين، وخاصّة المستشرقين الّذين حاولوا النّيل من القرآن والتشكيك فيه، إمّا عن قصد أو عدم فهم. فالاختلاف الموجود بين القرّاء والانفرادات من بين هاته الاختلافات إنّما هو تنوّع محمود لا تنوّع تضاد[19].

وأمّا الآخر فتعتبر هذه الانفرادات مجالا خصبا للدّراسات اللّغوية، وذلك بما تحتويه من ظواهر صوتية وصرفيّة ونحويّة ودلالية بما أنّها جزء من القراءات القرآنية[20].

وانفرد الإمام قالون بستّة أحرف قد ذكرها الإمام الدّاني في كتابه التهذيب، وهي كالآتي[21]:

1-{ قُلْ **أَؤُنَبِّئُكُمْ** } .قرأها بمدّة بعد همزة الاستفهام.

2- { **يُؤَدِّهِ** إِلَيْكَ}.قرأ في الهاء المتّصلة بالفعل المجزوم باختلاس كسرتها.

3- {لَا **تَعْدُوا** }.قرأ بإسكان العين وتشديد الدّال.

4-{ إن **أنا** إلّا نذير}.قرأ بإثبات الألف في الوصل والوقف.

5-{ **لِلنَّبِيِّ** إِنْ أَرَادَ}.قرأ بتشديد الياء من غير همز.

6-{ عَادًا **الْأُولَى** }. قرأ بهمزة ساكنة بعد ضمّة اللّام النقول إليها حركة الهمزة.

الحرف الأوّل: {قُلْ **أَؤُنَبِّئُكُمْ** } .قرأها بمدّة بعد همزة الاستفهام.

قال تعالى: **{قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ}**[22].

انفرد الإمام نافع في رواية قالون عنه بقراءة قوله تعالى:{ **قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ**} بمدّة بعد همزة الاستفهام، وكذلك في قوله تعالى: **{وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ}** [23]، ولكن بخلاف في هذا الحرف [24].

جاء في التيسير: نافع "أُشهدوا" بهمزتين الثانية مضمومة مسهّلة بين الهمزة والواو، وقالون من رواية أبي نشيط بخلاف عنه يدخل قبلها ألفا والشّين ساكنة، والباقون "أُشهدوا" بهمزة واحدة مفتوحة وفتح الشين "[25]. ويبيّن عبد الفتّاح القاضي ذلك الخلاف في حرف الزّخرف إذ يقول: "في سورة الزّخرف الخلاف في إدخال ألف الفصل بين همزتين لقالون، فله بينهما الإدخال وتركه ..."[26].

وخلاصة ذلك كلّه أنّ قالون يقرأ بتسهيل الهمزة الثانيّة من الهمزتين الواقعتين في كلمة مع إدخال ألف الفصل بينهما سواء أكانت الثانيّة مفتوحة، أم مكسورة أم مضمومة [27].

وقد احتجّ مكّي لقراءة قالون:"أنّه لما كانت الهمزة المخفّفة بزنتها مخفّفة قدّر بقاء الاستثقال على حاله مع التّخفيف، فأدخل بينهما ألفا ليحول بين الهمزتين بحائل يمنع اجتماعهما "[28].

يتبيّن من توجيه مكّي لقراءة قالون أنّ سبب إدخال الألف بعد تسهيل الهمزة هو: لتحول هاته الألف بين الهمزتين بحائل تكون مانعة من اجتماعهما

الحرف الثاني:{ **يُؤَدِّهِ** إِلَيْكَ}.قرأ في الهاء المتّصلة بالفعل المجزوم باختلاس كسرتها.

قال تعالى: **{وَمِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي**

الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [29] .

انفرد الإمام نافع في رواية قالون عنه بقراءة هاته الهاء المتّصلة بالفعل المجزوم باختلاس كسرتها في هذا الموضع، وكذلك في قوله تعالى:"نؤته منها "[30].وقرأ أبو بكر قي روايته عن عاصم وأبو عمر وحمزة بإسكان الهاء في هذه المواضع، وقرأ باقي القراء السبعة بصلة الهاء بياء في الوصل [31].

ووجه قراءة قالون ""أنّه أجري على أصله قبل الجزم، وذلك أنّ أصله كلّه أن يكون بياء قبل الهاء، وهي لام الفعل، وبياء بعدها بدلا من الواو دخلت للتّقويّة، نحو: نؤتيهي ونصليها، فلمّا كانت الهاء خفيا لم تحجز بين الياءين السّاكنتين فحذفت الثانيّة لالتقاء السّاكنين وبقيت الهاء مكسورة، ثمّ حذفت الياء الّتي قبل الهاء للجزم، فبقيت الهاء مكسورة على ما كانت عليه قبل الحذف، وهذه علّة حسنة لا داخلة فيها "[32]

فمعنى ذلك أنّ الإمام قالون قرأ بعدم الصّلة مراعاة للأصل، لأنّ الأصل في هذا الحرف (يُؤَدِيهِ) فحذفت الياء للجازم الّذي قبلها.

أمّا حجّة قراءة أبو بكر وأبو عمرو وحمزة ""أنّ هذه الأفعال قد حذفت الياء الّتي قبل الهاء فيها للجزم، وصارت الهاء في موضع لام الفعل، فحذفت محلّها فأسكنت كما تسكن لام الفعل للجزم، ألا ترى أنّهم قد قالوا: لم يَقْرَ فلان القرآن، فحذفوا حركة الهمزة للجزم فأبدلوا من الهمزة السّاكنة ألفا لانفتاح ما قبلها، ثمّ حذفوا أيضا الألف للجزم، كذلك حذفوا الياء قبل الهاء للجزم وأسكنوا الهاء للجزم، إذ حلّت محلّ الفعل"[33].

فبعض القبائل العربية تسكن هاء الضمير إذا تحرّك ما قبلها، فيقولون مثلا: ضربتهْ ضربا مشبهين ذلك بميم الجمع[34].

وحجّة قراءة باقي القرّاء السّبعة ""أنّه أتى بالهاء مع تقويتها على الأصل، وأيضا فإنّه لما زالت الياء الّتي قبل الهاء، الّتي من أجلها تحذف الياء الّتي بعد الهاء عند سبويه، أبقى الياء الّتي بعد الهاء، إذ لا علّة في اللّفظ توجب حذفها""[35].

يتّضح ممّا سبق أنّ الإمام قالون قرأ هذا الحرف وما شابهه بقصر الهاء، أيّ: بعدم الصّلة، وقد يعبّر عنها بالاختلاس، وحجّته في ذلك أنّه أجراه على أصله قبل الجزم، لأنّ أصله قبل ذلك هكذا "نؤتيهي" و"نصليهي"، فحذفت الياء الثانيّة لالتقاء السّاكنين فتبقى الهاء الّتي قبلها مكسورة، ثمّ حذفت الياء الثانيّة الّتي قبل الهاء للجزم، فتبقى الهاء أيضا مكسورة على ما كانت عليه قبل الحذف فتصير "نؤته"

الحرف الثالث:{ لَا **تَعْدُوا** }. قرأ بإسكان العين وتشديد الدّال.

قال تعالى: **{وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا البَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا }** [36].

انفرد الإمام نافع في رواية قالون عنه بقراءة قوله تعالى "لَا تَعْدُوا" • بإسكان العين وتشديد الدّال، وكذلك في قوله تعالى:" أَمَّن لَّا يَهِدِّي" في سورة يونس، قرأها بإسكان الهاء وتشديد الدّال، وأيضا في قوله تعالى: "وَهُمْ يَخِصِّمُونَ "سورة يس قرأها بإسكان الخاء وتشديد الصّاد[37].

ويرى مكّي القيسي أنّ الحجّة لمن قرأ باختلاس حركة العين وتشديد الدّال "أنّها حركة عارضة عليها،

لأنّ أصلها "تَعْتَدوا" فأصلها السكون، ثمّ أدغمت التاء في الدّال بعد أن ألقيت حركتها على العين، فاختلس حركة العين ليخبر أنّها حركة غير لازمة، ولم يمكنه أن يسكن العين لئلّا يلتقي ساكنان: العين وأوّل المدغم، وكره تسكين الحركة، إذ ليست بأصل فيها، وحسُن ذلك للتّشديد الّذي في الكلمة ولطولها"[38].

فقراءة الإمام قالون باختلاس حركة العين تنبيها على أنّ أصلها السّكون، فقبل إدغام التاء في الدّال كان أصلها (تعْتَدوا) وبعد الإدغام نقلت حركت التاء إلى العين فاختلسها.

وقد وصف ابن خالويه قراءة قالون هاته بالقبح، إذ قال: "جمع ساكنين وهو قبيح جدّا، لأنّ العرب لا تجمع بين ساكنين إلّا إذا كان أحدهما حرف لين، وكأنّه أراد الحركة فأسكن لأ الفرّاء حكى عن عبد القيس أنّها تقول :(أسل زيدا)، فتُدخل ألف الوصل على متحرّك، لأنّهم أرادوا الإسكان "[39].

أمّا النّحاس فاعتبر القراءة خطأ، يقول في ذلك:"وقلنا لهم لا تعدوا في السّبت" من عدا تعدوا وتعدّوا، والأصل فيه تعتدوا فأدغمت التّاء في الدّال، ولا يجوز إسكان العين ولا يوصل إلى الجمع بين السّاكنين في هذا، والّذي يقرأ بهذا إنّما يروم الخطأ"[40].

وعكس ابن خالويه والنّحّاس اعتبر كل من المهدويّ[41] والعكبري[42] أنّ الاختلاس أحسن وأجود في العربية، لأنّه يجمع بين التّخفيف والدّلالة على الإعراب، ولأنّه يؤمن معه اجتماع السّاكنين. أمّا البنّا الدمياطي فيرى الاختلاس في هاته القراءة أقيس. يقول في ذلك: "لقالون اختلاس حركة العين مع تشديد الدّال أيضا، وعبّر عنه بالإخفاء فرارا من ذلك (التقاء الساكنين) ... وروى الوجهين عنه الدّاني، وقال: إنّ الإخفاء أقيس والإسكان آثر..."[43].

ممّا سبق يتّضح لنا أنّ قراءة نافع في رواية قالون عنه يؤسّس عليها قاعدة التّخلّص من التقاء السّاكنين، وذلك بالاختلاس، لأنّه يجمع بين الدّلالة على الإعراب، ويؤمن معها اجتماع السّاكنين.

الحرف الرّابع: { إن **أنا** إلّا نذير}.قرأ بإثبات الألف في الوصل والوقف.

قال تعالى:**{ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }** [44] .

انفرد الأمام نافع في رواية قالون عنه بقراءة قوله تعالى من سورة الأعراف ""إن أنا إلّا نذير"، وكذلك في سورة الشّعراء قوله تعالى: "إن أنا إلّا نذير"، وفي سورة الأحقاف قوله تعالى:"وما أنا إلّا نذير" بإثبات الألف في الوصل والوقف[45].

يقول الدّاني: "وهذه قراءتي على فارس بن أحمد في روايه أبي نشيط عنه، وكذلك أخبرني طاهر بن غلبون، عن أبيه، عن صالح بن إدريس، عن علي بن سعيد، عن الأشعث، عن أبي نشيط، عن قالون، عن نافع، ولم يروه عن قالون غير أبي نشيط"[46].

وحجّة قراءة نافع في رواية قالون عنه: "أنّه أتى بالكلمة على أصلها، وما وجب في الأصل لها، لأنّ الألف في (أنا)كالتّاء في (أنت)..."[47].وقيل أيضا في حجّتها:"أنّه لما تمكّن له مدّ الألف للهمزة كره أن يحذف الألف، أو يحذف مدّتها، فأثبتها في الموضع الّذي يصحب الألف فيه المدّ، وحذفها في الموضع الّذي لا تصحب الألف فيه المدّ، نحو:"أنا ومن اتّبعني "- يوسف:108-والألف زائدة عند البصريّين، والاسم المضمر عندهم الهمزة والنون وزيدت الألف للتّقويّة "[48].

وقد اختلف علماء النّحو حول أصل الضمير(أنا)، هل هو (أن) أو (أنا) كلّها[49]. فذهب الأشموني إلى أنّ هذا الضمير "فيه خمس لغات ...فأصحهنّ إثبات ألفه وقفا وحذفها وصلا، والثانيّة إثباتها وصلا ووقفا، وهي لغة تميم"[50].

إذن فإثبات الألف وقفا ووصلا لهجة تميميّة، والّذي تتميّز به هاته اللّهجة أنّها تميل إلى السّرعة في الكلام، فنسب إليها حذف بعض الأصوات، ولكن إذا أمعنّا النّظر في هاته الرّواية الّتي تثبت الألف في (أنا) نجدها وردت في قراءة بعدها همزة، والمشهور عن لهجة تميم أنّها تحقّق الهمزة، فقد يكون إثبات الألف هنا من أجل تحقيق الهمزة [51].

والجدير بالذّكر أنّ النّحّاس قد طعن في القراءة، فهو يرى أنّ إثبات الألف شاذّ في الشعر، يقول في ذلك: "والأولى حذفها في الإدراج وإثباتها لغة شاذّة خارجة عن القياس، لأنّ الألف حين جيئ بها لبيان الفتحة وأنت إذا أدرجت لم تثبت فلا معنى للألف"[52].

والرّاجح أنّ إثبات الألف وصلا ووقفا لهجة ثابتة في العربية، لا يمكن إنكارها، لأنّ القراءة لا تحمل على المقاييس النّحويّة، والنّحّاس نفسه يذهب إلى هذا حيث يقول: "إنّ كتاب الله عزّ وجلّ لا يحمل على المقاييس، وإنّما يحمل بما يؤدّيه الجماعة"[53].بل يوثّق قراءة نافع ويؤكّدها بقوله: "وإنّما تؤخذ القراءة كما قلنا أو كما قال نافع بن أبي نعيم: ما قرأت حرفا حتّى يجتمع عليه رجلان من الأئمّة أو أكثر"[54].

الحرف الخامس: {**لِلنَّبِيّ** إِنْ أَرَادَ}. قرأ بتشديد الياء من غير همز.

قال تعالى: **{ وَامْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ إِن وَّهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَّسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ }** [55] .

وكذلك قوله تعالى: {إِنَّ ذَالِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ} [56].

انفرد الإمام نافع في رواية قالون عنه بقراءة كلمة (النّبيّ) بتشديد الياء من غير همز في هذين الموضعين خاصّة في الوصل دون الوقف [57] .

فقالون في هذا الباب ليس له في هذين الحرفين إلّا الإبدال، أي: إبدال الهمزة ياءً مع الإدغام، وذلك حالة الوصل، أمّا حال الوقف فيرجعان إلى أصلهما همزتين محقّقتين [58].

قال الدّاني:"وترك قالون الهمز في قوله (النّبي إن أراد) و(بيوت النّبي إلّا أن) في الموضعين في الوصل خاصّة على أصله في الهمزتين المكسورتين"[59].وإنّما عمل قالون بالبدل في هذين الموضعين في الوصل لأنّ قاعدته إذا اجتمع همزتان مكسورتان من كلمتين ظان يسهّل الأولى ويمدّ ويقصر، فالبدل على هذا أخف من التسهيل، فعدل إلى البدل عن التّسهيل [60].

الحرف السّادس: { عَادًا **الأُولَى** }. قرأ بهمزة ساكنة بعد ضمّة اللّام النقول إليها حركة الهمزة.

قال تعالى: **{ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَى }** [61] .

انفرد الإمام نافع في رواية قالون بقراءة (عَادًا الأُولَى) بهمزة ساكنة بعد ضمّة اللّام المنقول إليها حركة الهمزة، وقرأ الإمامان نافع وأبو عمرو بضمّ اللّام بحركة الهمزة وإدغام النون فيها، وقرأ باقي السّبعة بكسر التنوين ويسكّنون اللّام ويحقّقون الهمزة بعدها [62].

وعلى رواية قالون يجوز في الابتداء بهذه الكلمة بثلاثة أوجه وهي: الأوّل: بإثبات همزة الوصل وضمّ اللّام وهمزة ساكنة على الواو، هكذا: (أَلُؤْلَى). الثاني: بضمّ اللّام وحذف همزة الوصل وهمزة الواو، هكذا: (وَلُولَى). والثالث: بإثبات همزة الوصل وإسكان اللّام وتحقيق همزة فاء الفعل بعدها، هكذا: (أَلْأُولَى).[63]

فوجه رواية قالون أنّه لما كانت قبل الواو من (اللُّولى) ضمّة همزت الواو لمجاورة الضمّة، كموسى من قول الشّاعر[64]:

لَحُبَّ المؤْقَدَانِ إِلَيَّ مُؤْسَى[65]

ووجه قراءة نافع وأبو عمرو أنّ أصله (عادًا الأولى)، بتنوين عاد، وبالهمزة في الأولىّ فخفّفت الهمزة بأن نقلت حركتها إلى اللّام السّاكنة الّتي قبلها، وحذفت الهمزة فبقي: (عادً الُولَى)، ثمّ أدغم التنوين في اللّام، فبقي (عادًا اللّولى)، والتنوين نون ساكنة، وإدغام النّون في اللّام إنّما يكون بأن تقلب النّون فبقي:(عادًا لُولَى) ، ثمّ أدغم التنوين في اللّام، فبقي (عادًا اللّولى)، والتنوين نون ساكنة، وإدغام النّون في اللّام أنّما يكون بأن تقلب النّون لاما، ثمّ تدغم اللّام في اللّام.[66]

ووجه قراءة باقي السبعة أنّ الهمزة مجراة على أصلها من التّحقيق لم تخفّف، فسكّنت لام التعريف لذلك، وكان التنوين قبلها ساكنا، فكسر التنوين لالتقاء السّاكنين فبقي (عادًا الأولى) وهو الأصل[67].

الخاتمة:

بعد الوقوف على جميع الحروف الّتي انفرد بها الإمام قالون في روايته عن الإمام نافع، رواية ودراية، توصّلت الدّراسة إلى النّتائج التّالية:

1-إنّ تعدّد القراءات القرآنيّة واختلافها لا ينشأ عنه تضادّ وتضارب بينها، بل هو خلاف تنوّع، وكلّها من لدن حكيم حميد.

2-أجازت رواية قالون عن نافع لقوله تعالى:{ **إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنونَ**} الأعراف:188- إثبات الألف في الضمير المنفصل (أنا) وصلا ووقفا.

3- لقد أسّست رواية قالون عن نافع لبعض القواعد، مثل قراءته لقوله تعالى: {**وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ**}، بإسكان العين وتشديد الدّال نجم عنها تأسيس قاعدة التّخلص من التقاء السّاكنين وذلك بالاختلاس.

4-لم تسلم رواية قالون –هي أيضا- من طعن النّحاة واللّغويّين، فوصفوها أحيانا بالخطأ، وأحينا أخرى بالقبح، بالرّغم من أنّه روى قراءته عن الإمام نافع، وهو أحد القرّاء السبعة الّين أثبت العلماء بالدّليل القاطع تواتر قراءته عن الصّحابة عن رسول الله على رسولنا أفضل الصّلاة وأزكى التّسليم.

5-تعتبر رواية قالون عن نافع كغيرها من القراءات والرّوايات غنيّة بالظّواهر اللّغوية، الصوتيّة منها والصّرفيّة والنّحوية، لدا يجب على الباحثين والدّارسين أن يهتمّوا بهاته الرّواية، وأن تأخذ حضّها من البحث شأنها في ذلك شأن رواية ورش عن نافع.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

1- إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر-لأحمد بن محمّد البنّا-تح: شعبان محمّد إسماعيل-لبنان-عالم الكتب-ط1-1407هـ،1987م.

2- إعراب القرآن-للنّحاس-تح: زهير غازي زاهد-العراق-مطبعة العاني-دط-1397هـ،1977م.

3- إعراب القراءات السبع وعللها-لابن خالويه- تح: عبد الرّحمان بن سليمان العثيمين-مصر-مكتبة الخانجي-ط11413هـ،1992م.

4- إعراب القراءات الشّواذ- للعكبري-تح: محمّد أحمد عزّوز-لبنان-عالم الكتاب-ط1-1996م.

5- انفرادات القرّاء السبعة-دراسة لغوية-لخليل رشيد أحمد-لبنان-دار ابن حزم-ط1-1434هـ،2013م.

6- البدور الزّاهرة في القراءات العشر المتواترة -للنّشار-تح: علي محّمد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود-لبنان-عالم الكتب-ط1-1421هـ،2000م.

7- وتاريخ الإسلام -للذهبي -تح: عمر عبد السّلام تدمري-لنان-دار الكتاب العربي-ط1-1411هـ،1990.

8- التّهذيب لما تفرّد به كل واحد من القرّاء السبعة - للدّاني- تح: حاتم صالح الضّامن-سوريا-دار نينوى-ط1-1426هـ،2005م.

9- التيسير-للدّاني- اعتنى به: أوتويرتزل -مصر- مكتبة الثقافة الدينيّة-ط1-1426هـ،2005م.

10- الثمر الجنيّ في بيان أصول رواية قالون عن نافع المدنيّ- لعبد الحكيم أبو زيّان-ليبيا-دار ومكتبة بن حمّودة-ط1-2004م.

11- الحجّة في القراءات السبع-لابن خالويه- تح: عبد العال سالم مكرم-لبنان-دار الشروق-ط3-1399هـ،1979م.

12- حجّة القراءات-لابن زنجلة- تح: سعيد الأفغاني - لبنان- مؤسسة الرّسالة-ط5-1418هـ،1997م.

13- الحجّة للقرّاء السبعة-لأبي علي الفارسي-تح: بدر الدين قهوجي وبشير جويجاني -سوريا- دار المأمون للتّراث-ط1-1411هـ،1991م.

14- السبعة في القراءات -لابن مجاهد- تح: شوقي ضيف-مصر-دار المعارف-دط- دت.

15- سيّر أعلام النّبلاء -للذّهبي- تح: شعيب الأرنؤوط-لبنان-مؤسّسة الرّسالة-ط11-1417هـ،1996م

16- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك -للأشموني-تح: محمّد محي الدّين عبد الحميد-مصر-مطبعة مصطفى البابي الحلبي-ط2-1365هـ،1946م.

17- شرح كافية ابن الحاجب-للرضيّ الأستراباذي- تح: أحمد السيّد أحمد-مصر-المكتبة التوفيقيّة-دط- دت.

18- شرح النّظم الجامع لقراءة الإمام نافع-لعبد الفتّاح القاضي-مصر-دار السّلام-ط1-1428هـ،2007م.

19- شرح الهداية -للمهدويّ- تح: حاز مسعيد حيدر-السعوديّة-مكتبة الرّشد-دط-1415هـ.

20- غاية النّهاية في طبقات القرّاء -لابن الجزري-لنان -دار الكتب العلمية-ط1-1427هـ،2006م.

21- غيث النّفع في القراءات السبع -للسفاقسي- تح: أحمد محمود عبد السميع الحفيان-لبنان-دار الكتب العلمية-ط1-1425هـ،2004م.

22- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها- لمكّي القيسيّ-تح: عبد الرّحيم الطّرهوني-مصر-دار الحديث-دط-1428هـ،2007م.

23- اللّهجات العربية في القراءات القرآنية -لعبده الرّاجحي- مصر-دار المعارف-دط-1969م.

24- معاني القرآن-للفرّاء-لبنان-عالم الكتب-ط3-1403هـ،1983م.

25- معاني القراءات-لأبي منصور الأزهري- تح: عيد مصطفى درويش وعوض بن حمد القوزي-ددن-ط1-1412هـ،1991م.

26- معرفة القراء الكبار -للذّهبي- تح: طيّار آلتي قولاج-إستانبول-تركيا-دط-1995،1416

27- المفردات-للرّاغب الأصفهاني- تح: محمّد سيّد كيلاني-لبنان-دار المعرفة-دط- دت .

28- الموضّح في وجوه القراءات وعللها-لابن أبي مريم-تح: عمر حمدان الكبيسي-ددن-ط1-1414هـ،1993م.

29- وهمع الهوامع في شرح جمع الجوامع في علم العربية- للسيوطي-لبنان-دار المعرفة-دط- دت.

30- الوافي في شرح الشّاطبية -لعبد الفتّاح القاضي-مصر-دار السّلام-ط9-1434هـ،2013م.

المعاجم والقواميس:

1 -القاموس المحيط-للفيروز آبادي- تح: محمّد نعيم العرقسوسي-لبنان-مؤسسة الرسالة-ط8-1426هـ،2005م

2-معجم القراءات-لعبد اللّطيف الخطيب-مصر-دار سعد الدّين-ط1- 1422هـ2002.

3-معجم مصطلحات علم القراءات القرآنية وما يتعلّق به-لعبد العلي المسئول-مصر-دار السّلام-ط1-1428هـ،2007م.

4- معجم المصطلحات في علمي التجويد والقراءات-لإبراهيم بن سعيد الدوسري-السعودية-مطبوعات جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة-دط-1425هـ،2004م.

الرسائل الجامعيّة:

1-طبيعة الاختلاف بين القرّاء العشرة وبيان ما انفرد بقراءته كل منهم-لكوليبالي سيكو-رسالة ماجستير-جمهوريّة ساحل العاج-1423هـ.

المجلّات:

1-- الهمز بين القرّاء والنّحاة -لأكرم علي حمدان- مقال بمجلة البحوث والدّراسات القرآنية-المملكة العربية السعوديّة -العدد:8-السنة الرّابعة.

هوامش البحث:

[1] ينظر: غاية النّهاية —لابن الجزري-لنان —دار الكتب العلمية-ط1-1427هـ،2006م-ص:542ج:1.

[2] ينظر: غاية النّهاية-لابن الجزري- ص:542ج:1، وتاريخ الإسلام -للذهبي- تح: عمر عبد السّلام تدمري-لنان-دار الكتاب العربي-ط1-1411هـ،1990م-ص:351ج:15.

[3] غاية النّهاية-لابن الجزري- ص:542ج:1.

[4] ينظر: معرفة القرّاء الكبار -للذهبي- تح: طيّار قولاج إستانبول -تركيا- دط-1416هـ،1995م-ص:326ج:1

[5] ينظر: السّابق- ص:542ج:1.

[6] هو عيسى بن وردان أبو الحرث المدني الحذّاء إمام مقرئ حاذق عرض على أبي جعفر وشيبة ثمّ على نافع. توفي سنة 160هـ. ينظر: غاية النّهاية —لابن الجزري- ص:543ج:1.

[7] ينظر: معرفة القرّاء الكبار-للذهبي- ص:326ج:1، وتاريخ الإسلام-للذهبي- ص:352ج:15.

[8] هو محمّد بن هارون أبو نشيط إمام مقرئ ولد سنة نيّف وثمانين ومائة قرأ على الإمام قالون والإمام روح بن عبادة. ينظر: سيّر أعلام النبلاء-للذهبي- ص:108ج: 12 .

[9] الإمام أبو الحسن من كبار المجوّدين الأعلام، قرأ على قالون وهشام بن عمّار، وخلف. توفّي سنة خمسين ومائتين. ينظر: القرّاء الكبار-للذهبي- ص:437ج:1.

[10] الإمام أبو جعفر الطبريّ الحافظ المقري، أحد الأعلام، ولد سنة سبعين ومائة، وتوفّي سنة ثمان وأربعين ومائتين، أخذ القراءة عرضا وسماعا عن ورش وقالون. ينظر: معرفة القرّاء الكبار-للذهبي- ص:377ج:1.

[11] بن علي بن دازيل الحافظ، أبو إسحاق الهمذاني، روى القراءة سماعا عن قالون، توفي سنة إحدى وثمانين ومائتين. ينظر: غاية النّهاية-لابن الجزري- ص:17ج:1.

[12] ينظر: السبعة في القراءات —لابن مجاهد -تح: شوقي ضيف-مصر-دار المعارف-دط-دت-ص:63.

[13] ينظر: غاية النّهاية —لابن الجزري- ص:542ج:1

[14] ينظر: نفسه والصّفحة.

[15] ينظر: القاموس المحيط -للفيروز آبادي -تح: محمّد نعيم العرقسوسي-لنان-مؤسسة الرسالة-ط8-1426هـ،2005م-مادّة(فرد)- ص:443ج:1.

[16] المفردات-للرّاغب الأصفهاني-تح: محمّد سيّد كيلاني-لبنان-دار المعرفة-دط-دت-مادة(فرد)-ص:629.

[17] معجم المصطلحات في علمي التجويد والقراءات-لإبراهيم بن سعيد الدوسري-السعودية-مطبوعات جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة-دط-1425هـ،2004م-ص :39، وانفرادات القرّاء السبعة-دراسة لغوية-لخليل رشيد أحمد-لبنان-دار ابن حزم-ط1-1434هـ،2013م-ص:10.

[18] معجم مصطلحات علم القراءات القرآنية وما يتعلّق به-لعبد العلي المسئول-مصر-دار السّلام-ط1-1428هـ،2007م-ص:100.

[19] ينظر: طبيعة الاختلاف بين القراءات العشرة وبيان ما انفرد بقراءته كل منهم-لكوليبالي سيكو-رسالة ماجستير-جمهورية ساحل العاج-1423هـ-ص:154، وانفرادات القرّاء السبعة —دراسة لغوية-لخليل رشيد أحمد-ص:51.

[20] ينظر: طبيعة الاختلاف بين القراءات القرآنية العشرة-لكوليبالي سيكو-ص:254، وانفرادات القرّاء السبعة –دراسة لغوية-لخليل رشيد أحمد-ص:51.

[21] ينظر: التّهذيب لما تفرّد به كل واحد من القرّاء السبعة-للدّاني- تح: حاتم صالح الضّامن-سوريا-دار نينوى-ط1-1426هـ،2005م-ص:36

[22] سورة آل عمران الآية -15-.

[23] سورة الزّخرف الآية-19-.

[24] ينظر: التّهذيب -للدّاني -ص:36، والسبعة –لابن مجاهد-ص:585.

[25] التيسير-للدّاني- اعتنى به: أوتويرتزل-مصر-مكتبة الثقافة الدينيّة-ط1-1426هـ،2005م-ص:196.

[26] شرح النّظم الجامع لقراءة الإمام نافع-لعبد الفتّاح القاضي-مصر-دار السّلام-ط1-1428هـ،2007م-ص:45.

[27] ينظر: الهمز بين القرّاء والنّحاة -لأكرم علي حمدان-مقال بمجلة البحوث والدّراسات القرآنية-العدد:8-السنة الرّابعة-ص:176.

[28] الكشف-لمكّي القيسيّ-تح: عبد الرّحيم الطّرهوني-دارالحديث-دط-1428هـ،2007م-ص:153، ج:1.

[29] سورة آل عمران الآية -75-.

[30] ينظر: التهذيب لما تفرّد به كل واحد من القرّاء السبعة-للدّاني-ص:36، والثمر الجنيّ في بيان أصول رواية قالون عن نافع المدنيّ-لعبد الحكيم أبو زيّان-ليبيا-دار ومكتبة بن حمّودة-ط1-2004م-ص:102

[31] ينظر: الوافي في شرح الشّاطبية-لعبد الفتّاح القاضي-مصر-دار السّلام-ط9-1434هـ،2013م-ص:56.

[32] الكشف-لمكّي القيسيّ- ص:392ج:1.

[33] الكشف-لمكّي القيسيّ- ص:392ج:1.

[34] ينظر: نفسه والصفحة.

[35] نفسه والصفحة.

[36] سورة النّساء الآية-154-.

[37] ينظر: التهذيب لما تفرّد به كل واحد من القرّاء السبعة-للدّاني-ص:37، والسبعة-لابن مجاهد-ص:240، والتيسير-للدّاني-ص:98.

[38] الكشف-لمكّي القيسيّ- ص:440ج:1. وينظر: الموضّح في وجوه القراءات وعللها-لابن أبي مريم- تح: عمر حمدان الكبيسي-ددن-ط1-1414هـ،1993م- ص:1268ج:3.

[39] إعراب القراءات السبع وعللها-لابن خالويه- تح: عبد الرّحمان بن سليمان العثيمين-مصر-مكتبة الخانجي-ط11413هـ،1992هـ- ص:139ج:1. وينظر: الحجّة في القراءات السبع-لابن خالويه-تح: عبد العال سالم مكرم-لبنان-دار الشروق-ط3-1399هـ،1979م-ص:65.

[40] إعراب القرآن-للنّحاس-تح: زهير غازي -العراق-مطبعة العاني-دط-1397هـ،1977م- ص:467ج:1.

[41] ينظر: شرح الهداية -للمهدويّ- تح: حاز مسعيد حيدر-السعوديّة-مكتبة الرّشد-دط-1415هـ-ص:450.

[42] ينظر: إعراب القراءات الشّواذ- للعكبري- تح: محمّد عزّوز-عالم الكتاب-ط1-1996م- ص:662ج:1

[43] إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر-لأحمد بن محمّد البنّا- تح: شعبان محمّد إسماعيل-لبنان-عالم الكتب-ط1-1407هـ،1987م-ص:247-248.

[44] سورة الأعراف-الآية-188-.

[45] ينظر: التهذيب-للدّاني-ص:73، وغيث النّفع في القراءات السبع -للسفاقسي- تح: أحمد محمود عبد السميع الحفيان-لبنان-دار الكتب العلمية-ط1-1425هـ،2004م-ص:351.

[46] التّهذيب-للدّاني-ص :38.

[47] الحجّة في القراءات السبع-لابن خالويه-ص :54.

[48] الكشف-لمكّي القيسيّ- ص:306ج:1. وينظر: معاني القراءات-لأبي منصور الأزهري- تح: عيد مصطفى درويش وعوض بن حمد القوزي-ددن-ط1-1412هـ،1991م-ص:83.

[49] ينظر: شرح كافية ابن الحاجب-للرضيّ الأسترآباذي-تح: أحمد السيّد أحمد-مصر-المكتبة التوفيقيّة-دط-دت-ص:9ج:2، وهمع الهوامع في شرح جمع الجوامع في علم العربية-للسيوطي-لبنان-دار المعرفة-دط-دت- ص:60ج:1.

[50] شرح الأشموني على ألفية ابن مالك -للأشموني- تح: محمّد محي الدّين عبد الحميد-مصر-مطبعة مصطفى البابي الحلبي- ط2-1365هـ،1946م- ص:90ج:1.

[51] ينظر: اللّهجات العربية في القراءات القرآنية -لعبده الرّاجحي- مصر-دار المعارف-دط-1969م-ص:161.

[52] ينظر: إعراب القرآن-للنّحاس- ص:184ج:1.

[53] نفسه- ص:366ج:3.

[54] إعراب القرآن-للنّحاس- ص:366ج:3.

[55] سورة الأحزاب-الآية-50-.

[56] سورة الأحزاب-الآية-53-.

[57] ينظر: التهذيب-للدّاني-ص:38، والبدور الزّاهرة في القراءات العشر المتواترة -للنّشار- تح: علي محمّد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود-لبنان-عالم الكتب-ط1-1421هـ،2000م- ص:202ج:2.

[58] ينظر: الجنى الدّاني-لعبد الحكيم أحمد بوزيان-ص:127.

[59] معجم القراءات-لعبد اللّطيف الخطيب-مصر-دار سعد الدّين-ط1-1422هـ،2002م- ص:300ج:7.

[60] نفسه والصّفحة.

[61] سورة النّجم-الآية-50-.

[62] ينظر: السبعة-لابن مجاهد-ص:615، والتيسير-للدّاني- ص:204.

[63] ينظر: التيسير-للدّاني-ص:205.

[64] هذا صدر بيت لجرير وعجزه: وَجَعْدَة إِذَا أَضَاءَهُمَا الوُقُودُ.

[65] ينظر: معاني القرآن-للفرّاء-لبنان-عالم الكتب-ط3- 1403هـ،1983م- ص:102ج:3، والحجّة للقرّاء السبعة- لأبي علي الفارسي- تح: بدر الدين قهوجي وبشير جويجاني- سوريا-دار المأمون للتّراث-ط1-1411هـ،1991م- ص:207ج:7.

[66] ينظر: حجّة القراءات-لابن زنجلة-تح: سعيد الأفغاني- لبنان-مؤسسة الرّسالة-ط5-1418هـ،1997م-ص:361، وإعراب القرآن-للنّحاس- ص:276ج:3.

[67] ينظر: حجّة القراءات-لابن زنجلة-تح: سعيد الأفغاني- لبنان-مؤسسة الرّسالة-ط5-1418هـ،1997م-ص:361، وإعراب القرآن-للنّحاس- ص:276ج:3.

ظاهرة التشكيل البصري في الشعر الجزائري المعاصر
ديوان "ما لم يقله المهلهل" للشاعر امحمد زبور أنموذجا

طيبي بوعزة
طالب دكتوراه- تخصص: اتجاهات النقد المعاصر في الجزائر
اشراف: د كبريت علي
جامعة ابن خلدون تيارت

الملخص:

يُعتبر موضوع هندسة الكتابة من أهم القضايا التي يشتغلُ عليها النَّقد المعاصر، نظرا للمعطيات الجديدة التي يطرحُها والقراءات المتعددة التي يُثيرها، فهو حقل خصب، خاض فيه الكثير من النُّقاد أمثال "محمد بنيس" في "بيان الكتابة" و"محمد صفراوي" في "التشكيل البصري في الشعر العربي الحديث" و"محمد عبد الرحيم" في "السر والسكوت والصمت في الشعر العربي"... فالشاعر المعاصر ابتكر لنفسه أسلوبا جديدا للتَّعبير عن رؤاه وأفكاره، بعدما تبيَّن له أنَّ الصورة السمعية لم تعد قادرة على تبليغ رسالته، فلجأ إلى الصورة البصرية في محاولة منه لمغازلة المتلقي واقحامه في النص الشعري. والشاعر الجزائري المعاصر أصبح ينزع إلى إثارة مواطن الجمال لدى القارئ والعزف على أوتارها، باعتماده على تشكيل صور بصرية مكثَّفة مليئة بالإيحاءات غنيَّة بالدلالات، فالنص الشعري المعاصر تستمدّ جماليته من سمات فنيّة بصرية بالدرجة الأولى.

الكلمات المفتاحية: الشعر الجزائري المعاصر، البياض، التشكيل البصري، المسكوت عنه، الصورة البصرية.

المقدمة:

سنحاول في هذه الورقة البحثية المصغَّرة التطرُّق إلى ظاهرة التشكيل البصري في الشعر الجزائري المعاصر وجمالياتها محاولين الكشف عن الدلالات المضمرة التي تُضْفيها هندسة الكتابة على النص الشعري. هذه الظاهرة التي برزت إلى الساحة الأدبية الابداعية في الجزائر كنتيجة حتمية لثورة التَّجديد الشعرية العالمية، واستجابة لما نادت به موجة الحداثة من ضرورة تداخل الأجناس الأدبية وكسر الحدود الفاصلة بينها، وكذا الانفتاح على الفنون التشكيلية والبصرية، وقد وقع اختيارنا على الشاعر الجزائري "امحمد زبور" في ديوانه "ما لم يقله المهلهل"، الحائز على المرتبة الثانية في مهرجان الشارقة للإبداع العربي سنة 2005م عن مخطوط شعري يحمل عنوان "أسئلة الماء والتراب". سينصبُّ جهدنا على تتبُّع المظاهر البَصَرَية بمختلف أشكالها مع تَتبُّع العلاقة بين الدلالة البصرية والدلالة العميقة في النص الشعري. ولتحقيق الهدف المرجو من البحث سنقفُ على أهمِّ مظاهر التشكيل البصري الواردة في الديوان موضعَ البحث، وهي: تقسيم الصفحة، تشكيل البياض، تشكيل السطر الشعري، علامات الترقيم.

1– **تقسيم الصفحة:**

والمقصود بها تلك الطريقة التي يَعمدُ فيها الشاعر إلى "توظيف مساحة الصفحة في انتاج دلالة النص الشعري"[1] فالصفحة البيضاء مفتوحة على كل الاحتمالات، تُشعر المتلقي بالارتباك والحيرة بفعل الغموض الذي يكتنف تأويل بياضها وما تُمليه الذات الشاعرة من رؤى وتصورات وتُترجمه اللغة إلى ألفاظ وعبارات، يُزيل غموض البياض. بالإضافة إلى كون الصفحة في بنية الخطاب الشعري عبارة عن حيّز مكاني، ومن هنا حازت أهميتين استراتيجيتين، فالأولى أثناء كتابة النص الشعري وتتمثَّل في كيفية استثمار الشاعر لمساحتها، والثانية أثناء تلقِّي النص الشعري وتأويل المتلقي لبياضه وسوداه، فالشكل الحقيقي للنَّص الشعري المعاصر يظهر في تشكله على الصفحة التي تتشكل باللغة وبها تُستنطق [2].

تخضع الصفحة في الشعر العربي المعاصر إلى عدَّة تشكيلات، ومن الأشكال التي نجدُها ماثلة في ديوان "مالم يقله المهلهل":

– التفريع في العنونة:

وهو أنْ يكون هناك عنوانا رئيسا للنص الشعري تتفرَّع عنه عناوين فرعية، وهو ما نجده في قصيدة "حالات لصوت واحد" يقول الشاعر:

– حالة أولى:[3]

سقطتْ وردة من رفوف الجنوب
تهامس رمل الأحبَّة...
لم ننتبه...
سقطت وردتان...ثلاث...
ومضى الليل يطوي صباباتنا...
كل هذا الخراب ولم ننتبه.

– حالة ثانية:

لم تكن غير نهد...
زوايا يؤرقها اللهب
كل من قال: أنَّ (النساء حبيباتنا)
رحيق الحضور...
غواية هذا المدى...
قال ما تدَّعيه الخرافة...
ما يتناهبه الكذب.

– حالة ثالثة:

حاصر أسماءك
كيما لا ترث الأسماء سواك
وتوحَّد فيك ومنك.
فخِّخْ أحجارك.. بَحرَك..
واخرج منك إليهم،
من نمل الطرقات،
ومن شجر الشهداء إلى زمن الأحباب...
(أبا ذر) لا أخبار سوى قتلاك.

لجأ الشاعر في هذه النص إلى تقسيم القصيدة إلى ثلاث وحدات شعرية، جاعلا على رأس كل وِحدة منها عنوانًا فرعيًا، كما خصَّص لكل وِحدة صفحة مستقلة في إشارة منه إلى انفصال الوحدات في جُزئيتها واتفاقها في كليتها، فالشاعر هنا لجأ إلى الفن الروائي واستعار منه إحدى تقنياته، وهي تقسيم الرواية إلى مقاطع وفصول، فمن عناصر "أو استراتيجيات السرد الروائي بوصفه نصًا مكتوبًا، تقسيم المادة المسرودة (القصة) أو (الحكاية) إلى وحدات متفاوتة الحجم تسمى: الأجزاء والأقسام داخل الرواية المفردة، والفصول، والمقاطع داخل الفصل الواحد..."[4] فالشاعر يفصلُ بين ثلاث حالات هي في الأصل مرايا تعكسُ حالة واحدة، يبدو في الحالة الأولى ساخط على المجتمع وما آلتْ إليه الأوضاع، وهو يرمز بالجنوب إلى فئة تعاني الكثير من التهميش والاهمال واللامبالاة، فئة لا يلتفت إليها أحد، فئة تمثل الجزء الأكبر من الشعب، وفي الجنوب أيضا تتلاشى وتسقط

الكثير من الأحلام ويموت الأمل في الانسان، وفي الحالة الثانية ينتقل من العام إلى الخاص في أدقِّ خصوصيته، ينقلُ حالة شعورية عاطفية تتملَّكُه فتُسبِّب له الأرق، فيكفرُ بالحب ولا يعترف به، وكل أحاديث الحب عنده مجرَّد كذبٍ وأقاويل وتزييفٌ للواقع، وهو بذلك لا يتحدَّث عن ذاته بل يُشخِّص علاقة الانسان العربي بالمرأة، فهو صورة مناقضة لما يَكتبُ ويَتغنَّى به، فهو لا يحمل في أعماقه إلاَّ صورة الجسد وشهوة لا تخمدُ، أمَّا الحالة الثالثة فهو يرسم لنا صورة للإنسان العربي المكافح عن أرضه وشرفه، في ظل وحدته فلا اخوة ولا أصدقاء ينصرونه، وحدة أشبه بوحدة أبي ذر، وهي حالة تعبِّر عن تحدٍ لكل من تسبَّب في ألامه وأحزانه وخذله. إذن هي ثلاث حالات في ظاهرها، حالة واحدة في باطنها، وما على المتلقي إلاَّ أنْ يستنفر معارفه ويستحضر رؤاه ويجمع الحالات الثلاث ويوائم بينها ليدرك مقاصد الشاعر.

2– تشكيل البياض:

سبق وأن أشرنا إلى أنَّ الصفحة البيضاء لا أهمية لها مالم تمتزج مساحتها بالسواد، وهو ما لا يتأتى إلاَّ بِتشكُلِ النص الشعري عليها، وهذا لا ينفي أهمية البياض، بل على العكس فلكل منهما أهمية في تأويل الأثر الأدبي "...فمن تمازج بياض الصفحة وسواد النص تتجلى أهمية كل مِنهما"[5] ، والشاعر الجزائري المعاصر يوظِّف الكتابة بالبياض أو بالحبر السري – في عُرف بعض النقاد والدَّارسين – ويمزج بين البياض والسواد بشكل مُلفتٍ للانتباه، فالبياض في الأصل ليس إلاَّ "توقف ضروري للمتكلم لأخذ نفسه. وهو بالتَّالي ليس إلَّا ظاهرة فيزيولوجية خارجة عن النص، ولكنَّها بطبيعة الحال محمَّلة بدلالة لغوية."[6]

ومن النصوص التي اعتمد فيها الشاعر "امحمد زبور" على تشكيل البياض قصيدة "ترحال"، يقول:

وحدي في هذا الوهم العاتي، سأزوِّجه قدم التِّرحال[7]

وأسأله عن أحبابي، عن أقمار البدو وعن سفر لا أُدرك وجهته، وأنام على الخُبز الحافي.

وحدي أتسلَّق فلسفة الأشياء، أُشكِّل من طين النَّهر

الأسماء، ومن حِكم الطير الهامات، ومن وجهي مدن الحب الصافي.

وحدي أتذكَّرُ ليلى، يا أعراسي الأولى، يا مائي المهدور على سفح العشاق، تركتُ بهائي، حضن الطين الدافئ.

وحدي يا الله أُهاجر فيك فيفضحُني ذنبي، أتمنَّاك وأدنو ... أدنو، كم وَسِعَ الكرسي الأشياء، وكم وسعتْ يَدُك الرمل الجافي.

وزَّع الشاعر نصَّه على أربعة صفحات، بمعدل ثلاثة أسطر في كل صفحة، ممَّا يعني أنَّ مساحة السواد تساوي خُمْسَ (5/1) مساحة البياض، باعتبار أنَّ بعض النصوص الواردة في الديوان تضمُّ خمسة عشرة سطرًا، وكأنَّ الشاعر يمنح المتلقي مساحة كافية من البياض ليملأها بما يُوحي به النص من دلالات وإيحاءات، وهذا ما "يُعدُّ في التجربة الشعرية المعاصرة وسيلة من وسائل توفير الإيحاء وتوصيل الدلالة للقارئ."[8] كما أنَّ الشاعر يتوقَّف في كل صفحة عند الجملة المِفتاح للمسكوت عنه (الخبز الحافي/الحب الصافي/الطين الدافئ/الرمل الجافي) ويترك الحرية الكاملة للمتلقي لتأويلها والكشف عن دلالاتها، ويجعل منه شريك في إنتاج النص الشعري وذلك بمواصلة الكتابة انطلاقا من النقطة التي توقَّف عندها.

إنَّ توقف الشاعر عند هذه الجمل مدَّة زمنية معينة تعادل في الحقيقة حجم بياض الصفحة، ثم استئنافه في الصفحة الموالية لم يكن عشوائيًا، إنَّما خاضع لتجربة

الشاعر الشاعرية والشعورية، فالشاعر وصل إلى درجة ضاقت فيها العبارة واتَّسعتْ الرؤية "وعند الوصول إلى هذا الحدِّ يأتي الغموض والغياب والبياض في القصيدة جناحًا يُحلق به الشاعر إلى ما وراء اللغة إلى لغة اللغة، هكذا يُجابه الشاعر شيطان اللغة ويغالب سلطته وهيمنته بتعاويذ يكتبها في بُقع البياض بحبرٍ مفرغ من اللون، وتمائم تحملها كل العناصر الغائبة عن النص."[9]

وفي نص آخر يحمل عنوان "الفجيعة" نجد الشاعر يترك سطرا أبيضًا، وهو بذلك يوسع المسافة بين الأسطر، يقول:

المعابرُ شاخت [10]

فأيُّ متاه يكون دليلا

أنهكتني مواويل أهلي

وأنخاب أهلي وفرسان أهلي.

تطير الشعوب إلى مُنتهى الفكرة

والعروبة ترجع يوما فيوما منازلها والصهيل.

فالشاعر هنا لا يوظف نقاطًا ليعبر عن المسكوت عنه، بل يذهب إلى أبعد من ذلك ليترك سطرًا كاملا من البياض، وهو في الأصل (السطر الأبيض) حذف دلالي وجمالي له أثر عميق في المتلقي. وللسطر الأبيض دلالته الخاصة عند "امحمد زبور" فهو يستحي من أن يعترفَ بانتمائه لهذه الأمة التي تبكي مجدًا مُضاعًا وتكتفي بالوقوف على مشارف الحضارة والتطور بينما تطير الشعوب إلى منتهى الفكرة على حدِّ تعبيره، وهو بذلك يُشرك القارئ في ملأ الفراغ وإعادة كتابة النص عبر هذا الفراغ الذي خلَّفه وراءه، وذلك بتِعداد المفاخر والبطولات والانتصارات التي مازال العرب يفتخرون بها إلى اليوم، رافضين مواجهة الواقع المعيش.

3- تشكيل السطر الشعري:

السطر الشعري هو "كمية القول الشعري المكتوبة في سطرٍ واحد سواء أكان القول تامًا من النَّاحية التركيبية أو الدلالية أم غير تام."[11] فالسطر الشعري مجموعة من التراكيب والتفاعيل تحملُ مضمونًا شعريا قد يكتمل معناه في سطر واحد أو سطرين أو أكثر... وهو يتَّخذ عدَّة أشكال: كالتفاوت الموجي والأطوال السطرية المتساوية... ومن التشكيلات التي استعان بها "امحمد زبور":

أ- التفاوت الموجي: يظهر في النص الشعري عبر "تنوع امتدادات سطوره بين الطول والقصر على غير تسلسل مطرد، فلا تجيء مسافات امتداداتها مجموعة في القصيدة على صورة واحدة متساوية"[12] ومن النصوص التي تشكَّلت وفق هذه التقنية نص "ربَّما" يقول:

ربَّما يعتريك التفرد والاشتباه [13]

يا ابن هذا الخريف الغزيرْ

قد تؤجِّجك الأسئلة

مبهم كل ما ستراه

خلفك الرَّمل...

عير القبيلة...

وجه أبيك...

طفولة أشيائكَ الحافية.

ذا وضوحك.

يعترفُ الشاعر منذ البداية بحجم الحيرة التي تجتاحه وهو ما يُفصح عنه العنوان، فـ"ربَّما" تحتمل أكثر من تأويل وتذهب بتفكير المتلقي في اتجاهات شتَّى، والشاعر يحاول مع كل سطرٍ شعريٍ أن يُبدِّد هذه الحيرة ويجعل منها يقينًا، غير أنَّ محاولاته تبوء بالفشل، وهي حيرة تنمو وتكبر في منحنى تصاعدي، فكلَّما كَبُر حجمها قلَّ طول السطر الشعري، لذلك نجده يتوقَّف دون أن يُتمَّ المعنى وينتقل إلى سطرٍ آخر، وهو بذلك ينقل للمتلقي حالته الشعورية لفظيًا ويسجِّلها في ثنايا النص تسجيلا بصرياً فربّما " كان قول الصمت أشدَّ مضاعفة وكثافة لأنَّه في تحليقه فيما وراء اللغة يطمح إلى

أن يلتقط حركة الروح، وعندئذ نرى أنَّ توزيع الكلمات على السطور في القصيدة ليس مجرَّد أداة للتوافق الإيقاعي في الأوزان، بقدر ما هي طريقة في تشعير اللغة، إذْ تكفُ عن نثريتها وهي تسعى إلى اقتناص فائض دلالتها."[14] فتفاوت أسطر القصيدة يرجع في المقام الأول للدفقة الشعورية عند "امحمد زبور".

ب– الأطوال السطرية المتساوية: وهي أن يتساوى طول سطرين شعريين متواليين أو أكثر تساويًا تركيبيًا وايقاعيًا [15]، وهو نوعان: تساو افتتاحي وتساو ضمني، فالتساو الافتتاحي هو "التساوي السطري الذي يفتتح مقاطع النص معتمدا على تكرار البنيتين التركيبية والايقاعية للأسطر المكرَّرة"[16] ومن أمثلة ذلك في ديوان "امحمد زبور" ما افتتح به نصه "حزن ونشريسي" يقول:

في (الونشريس) سادتي [17]
مرَّ النهار عابرا فقيرْ
والماء لاذ نازفا أعشابهُ
والحزن كلها الخيام.
كانت لنا أعراسنا
نصفف الأشجار فيها تارة
وتارة ندعو الغمامْ
كنَّا نعدُّ قمحنا وظلَّنا واسمنا

تبدو أسطر القصيدة متساوية إلى حدٍ ما، وهو ما يتناسب والحالة النَّفسية والشعورية للشاعر، فقد افتتح قصيدته بشبه جملة (في الونشريس) حدَّد من خلالها الحيِّز المكاني لآلامه وأحزانه، واستعمل مفردات تدل على ذلك (فقيرْ، نازفا، الحزن) كما وظَّف أفعالاً ماضيةً في بداية كل سطرٍ (مرَّ، كانتْ، نصفِّفُ، كنَّا) دلالة على أنَّه في موقف السَّارد لهذه الآلام والأحزان فجميعها كانت في الماضي، الأمر الذي يجعلها أخفُّ وطأةً عليه، وهو ما يُشعره ببعض الهدوء والسكينة، لذلك جاءتْ الأسطر متساوية من حيث التركيب اللغوي والإيقاع.

أمَّا التساو الضمني فهو "التساوي السطري الوارد ضمن النص الشعري من غير أن تكون له وظيفة تكرارية"[18] ومن أمثلته نص "طائر خرافي" يقول:

طائرٌ كان يأتي إلى الحيِّ [19]
كل مساء ...
عندما يُطلق الليل قطعانه..
عندما ينتحى الضوء زاوية في الملاذ..
عندما يسقط النَّهر من دفتر الوقت..
تخلو الشوارع من نمنمات الأحبَّة
والذكريات تحطُّ بعيدا عن الغرباء

فالأسطر الأربعة الأخيرة متساوية من حيث التركيب والإيقاع، وتنطوي على نفس المعنى والدلالة، وهو تساو ضمني، فالشاعر يحدِّثنا عن الوقت الذي كان يأتي فيه الطائر الخرافي إلى الحي.

4– علامات الترقيم:

تُعرف علامات الترقيم أو الوقف على أنَّها "وضع رموز مخصوصة، في أثناء الكتابة، لتعيين مواقع الفصل والوقف والابتداء وأنواع النبرات الصوتية والأغراض الكلامية في أثناء القراءة" [20]، فعلامات الترقيم تُيسِّر عملية الفهم على مستويين على مستوى الكاتب أثناء الكتابة وعلى مستوى المتلقي أثناء القراءة. ويمكن أن نقف على بعضها في ديوان "امحمد زبور":

أ– نقطتي التوتر (..): وهما "نقطتين أفقيتين بين مفردتين أو عبارتين أو أكثر من مفردات أو عبارات النص الشعري"[21] وهي ذات صلة وثيقة بالتلقِّي البصري في الشعر المعاصر من خلال دلالتها البصرية على توقف صوت الشاعر مؤقتا بسبب التوتر والاضطراب اللَّذان تشهده حالته النَّفسية، ومن

النصوص التي اعتمدت بكثرة على نقطتي التوتر نص "نشيد آخر للشنفرى" يقول:

هو ذا (الشنفرى) يطلع من شقوق الزَّمان [22]

من فراغ الصحاري البعيدة ...

من زمر الكادحين ...

من حبَّة خردل ...

هو ذا والكراسي التي شرَّدته تفرُّ

المدى ضيِّقٌ..

تبرزُ نقطتي التوتر في السطر الثاني والثالث والسادس من القصيدة، ويبدو أنَّ الشاعر يستدرك بعض أشعار الشاعر الجاهلي الشنفرى، الذي عُرف بانتمائه إلى الصعاليك، وتوظيف الشاعر له هنا كان توظيفا رمزيا له أبعاد اجتماعية وسياسية فـ"الشنفرى" موجود في كل زمان ومكان بكل تجلياته وصُوَرِه، وشنفرى اليوم موجود في الجنوب حيث تنعدم التنمية والحضارة موجود في الطبقة الكادحة... ونقطتي التوتر في الأسطر الثلاثة تُظهر احجام الشاعر عن الكلام لكي يَقِيسَ المتلقي ما يتلاءم وحالته الاجتماعية والنفسية. كما يسعى من خلالها إلى الحفاظ على تدفق الإيقاع الشعري عبر تجسيد اليأس الذي يسكنه ونقطتي التوتر تخلق بدورها صراعًا بين البياض والسواد، هذا الصراع هو بمثابة معادل موضوعي للصراع النفسي العميق الذي يُحسُّه. وتكتسي نقطتي التوتر دلالة أخرى تتمثَّل في عجز الشاعر عن تحديد المكان الذي يأتي منه "الشنفرى" فهو مكان مُبهمٌ لا يتبيَّنه أحد، وما يُصرح به ليس إلاَّ تخمينات فقط، وعلى المتلقي أن يجتهد بدوره في تحديده وكشف معالمه.

ب- نقاط الحذف (...): وهي "ثلاث نقط لا أقلَّ ولا أكثر، تُوضع على السطور متتالية أفقياً لتشير إلى أنَّ هناك بتر أو اختصار في طول الجملة" [23]، وفي الكثير من الأحيان تنصرف دلالتها إلى المسكوت عنه.

وظَّف الشاعر نقاط الحذف بكثرةٍ في نصوصه، كنص "حالة جنون"، يقول:

للبحر مُتَّسع من الأذكار [24]

والسَّفر العبابْ

ولها القناديل التي...

لي شهوة النَّمل الذي...

لي وسوسات هذا الانبهار

ولي الكلامِ.

سأطوق الأشجار بالوهم الكثيفْ...

أَبْني القبيلة بالقِبابْ...

إنَّ نقاط الحذف في آخر كل سطرٍ تمنح المتلقي ما لا نهاية من المعاني والدلالات، وبها يستعينُ النَّاقد في استنطاق النص والكشف عن المسكوت عنه، فالتنقيط "كناية بصرية عن دال (كلمة أو جملة) مُغيَّب بنحو مقصودٍ من قِبَل الشاعر تجنبًا للحساسية الدلالية التي يمكن أن يُثيرها ذلك الدال لو ظهر علنيًا في القصيدة"[25] وتوظيف "امحمد زبور" لنقاط الحذف دليل على الامتداد البصري الذي يساهم في منح النص مساحات شاسعة للتأويل، وتوظيفه لها في سطور متتالية ينمُّ عن قلق واضطراب نفسي كبير، الأمر الذي يمنعه من البوح والافصاح، فيلجأ إلى الإيحاء ويترك الباقي للمتلقي ليُفكك هذه النقاط بغية الوصول للمسكوت عنه، فالمتلقي يمكن له أن يُضيف أي صفة للقناديل أو النمل أو الوهم، لأنَّ أي صفة سيأتي بها ستخدم المعنى العام للنص وتضيف إليه دلالة أخرى.

ج- الفاصلة (،): وهي "الوقوف على القليل في الجملة الواحدة."[26] ومن نصوص "امحمد زبور" التي وظَّف فيها الفاصلة نص "ما لم يقله المهلهل"، يقول:

كل شيءٍ على ما يُرام [27]

تقول جرائد هذا الصباحْ

يُشعل الصمت بهو الطفولة، بيض الخطى،

يافتات الحب والثلج، نهد سعاد الخجول،
أراجيز أمي، متون أبي،
وقرى البدو والبرتقال.

جاءت الفاصلة في نهاية كل سطر دلالة على اختلاف الدلالة بين السطور (الثالث والرابع والخامس) واتفاقها في السطر الواحد، فالطفولة تتوافق واللَّون الأبيض والبراءة الصادرة عنهم، كما أنَّ الحب والخجل والثلج من حقل دلالي واحد فكلها تتَّسم بالنقاوة والصفاء، والأم والأب يمثلان العائلة، أمَّا الفاصلة في آخر السطر فتكتسي دلالة مهمَّة، تتمثل في كون دلالة السطر تتوقف عند آخر مفردة فيه، فهي غير قابلة للزيادة كما هو الحال مع نقطتي التوتر ونقاط الحذف.

– خاتمة:

استنادا إلى ما تمَّ التطرق إليه من مظاهر التشكيل البصري في الشعر الجزائري المعاصر، وتحديدًا في ديوان "ما لم يقله المهلهل" للشاعر "امحمد زبور" نذكر أهم النتائج المتوصل إليها:

– الشاعر المعاصر لا يكتفي بلغته الشعرية لإيصال رسالته بل يدعمها بتشكيلات بصرية لها دلالة مباشرة بحالته النفسية والشعورية.

– قدرة الشعر الجزائري المعاصر على مواكبة ثورات التَّجديد الحاصلة في عالم الشعر، وتجاوز المقولات التقليدية.

– اتجاه الشعر المعاصر إلى توظيف الصور البصرية، وإبراز حضوره من خلال ثنائية البياض/السواد.

– تكتسي ظاهرة التشكيل البصري أهمية بالغة في الإفصاح عن مقصدية الشاعر وفتح دلالات النص أمام المتلقي.

– الشاعر "امحمد زبور" يرسم لنا صورة واضحة المعالم للاضطراب المتنامي بداخله، وهو لا يتحدَّث عن نفسه وأحلامه بقدر ما يتحدَّث عن مجتمع بأكمله، فهو يشعر بنوع من الغربة في ونشريسه.

– وظَّف الشاعر علامات الترقيم بعناية شديدة، ولم يُسرف كثيرا في استعمالها إلاَّ ما استدعته الحاجة منها، فهو يُوظفها كي يُنبِّه المتلقي لما لا يقله وهو قادر على قوله.

– اظهار الشاعر "امحمد زبور" خصوصية شعرية جزائرية واعية من خلال توظيفه لبعض مظاهر التشكيل البصري في نصوصه كتقسيم الصفحة وتشكيل البياض وعلامات الترقيم.

– احالات البحث وهوامشه:

([1]) محمد الصفراني، التشكيل البصري في الشعر العربي الحديث (1950 - 2004) بحث في سمات الأداء الشفهي "علم تجويد الشعر" المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 2008م، ص134.

([2]) ينظر: م ن، ص 151.

([3]) امحمد زبور، ما لم يقله المهلهل، دار أسامة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط01، د ت، ص50.

([4]) محمد بن سليمان القويفلي، البياض السردي: الأعراف ودلالات العدول، مجلة جامعة الملك سعود، المجلد 15، العدد2، 1423هـ/2003م ص ص317 – 318.

([5]) محمد الصفراني، التشكيل البصري في الشعر العربي الحديث، ص 151.

([6]) محمد بنيس، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب – مقاربة بنيوية تكوينية –المركز الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، ط02، 1985م، ص54.

([7]) امحمد زبور، ما لم يقله المهلهل، ص 39.

([8]) عبد القادر جبار، طائر الوجد دراسة تطبيقية في بنية النص الشعري العربي الحديث – سعدي يوسف انموذجاً –دار الشؤون الثقافية – بغداد ط01، 2011م، ص 63.

([9]) محمد بنيس، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، ص ص 207-208.

([10]) احمد زبور، ما لم يقله المهلهل، ص64.

([11]) محمد الصفراني، التشكيل البصري في الشعر العربي الحديث، ص 171.

([12]) أحمد جار الله ياسين، شعرية القصيدة القصيرة عند منصف المزغني، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، الملجلد2، العدد4، بغداد، جامعة الموصل، 2005م، ص171.

([13]) احمد زبور، ما لم يقله المهلهل، ص06.

([14]) صلاح فضل، أساليب الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط01، 1995م، ص223.

([15]) ينظر: محمد الصفراني، التشكيل البصري في الشعر العربي الحديث، ص 176.

([16]) م ن، ص176.

([17]) احمد زبور، ما لم يقله المهلهل، ص32.

([18]) محمد الصفراني، التشكيل البصري في الشعر العربي الحديث، ص 177.

([19]) احمد زبور، ما لم يقله المهلهل، ص85.

([20]) أحمد زكي، الترقيم وعلاماته في اللغة العربية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، د ط، 2012م، ص 12.

([21]) محمد الصفراني، التشكيل البصري في الشعر العربي الحديث، ص 204.

([22]) احمد زبور، ما لم يقله المهلهل، ص ص97-98.

([23]) عمر أوكان، دلائل الاملاء واسرار الترقيم، أفريقيا الشرق طرابلس، ط01، 2002م، ص 119.

([24]) احمد زبور، ما لم يقله المهلهل، ص77.

([25]) أحمد جار الله ياسين، شعرية القصيدة القصيرة عند منصف المزغني، ص172.

([26]) عبد الستَّار عوني، مقاربة تاريخية لعلامات الترقيم، مجلة عالم الفكر، مج 26، ع 02، الكويت، 1997م. ص281.

([27]) احمد زبور، ما لم يقله المهلهل، ص24.

– المصادر والمراجع:

–المصادر:

– احمد زبور، ما لم يقله المهلهل، دار أسامة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط01، د ت.

– المراجع:

(01) أحمد جار الله ياسين، شعرية القصيدة القصيرة عند منصف المزغني، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، الملجلد2، العدد4 بغداد، جامعة الموصل، 2005م.

(02) أحمد زكي، الترقيم وعلاماته في اللغة العربية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، د ط، 2012م.

(03) صلاح فضل، أساليب الشعرية المعاصرة، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط01، 1995م.

(04) عبد الستَّار العوني، مقاربة تاريخية لعلامات الترقيم، مجلة عالم الفكر، مج 26، ع 02، الكويت، 1997م.

(05) عبد القادر جبار، طائر الوجد دراسة تطبيقية في بنية النص الشعري العربي الحديث – سعدي يوسف أنموذجاً – دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط01، 2011م.

(06) عمر أوكان، دلائل الإملاء وأسرار الترقيم، أفريقيا الشرق، طرابلس، ط01، 2002م.

(07) محمد الصفراني، التشكيل البصري في الشعر العربي الحديث (1950 – 2004)، بحث في سمات الأداء الشفهي "علم تجويد الشعر"، المركز الثقافي العربي – بيروت الدار البيضاء ط1 2008م.

(08) محمد بن سليمان القويفلي، البياض السردي: الأعراف ودلالات العدول، مجلة جامعة الملك سعود، مج15، العدد 02 1423هـ/2003م.

التفكير التداولي في التراث اللغوي العربي القديم

محمد عبد الرحمن حسوني
باحث دكتوراه: قسم اللغة والأدب العربي
المشرف: أ.د هواري بلقندوز .جامعة سعيدة
جامعة د. الطاهر مولاي، سعيدة

الملخص: يهدف البحث إلى إبراز حضور التداولية – كمفهوم لساني غربي– في التراث اللغوي العربي القديم بمختلف محطاته ومجالاته وتوجهاته، من خلال الوقوف على الجانب المفاهيمي للتداولية، تعريفا وتاريخا ونشأة، ثم محاولة رصد لبعض المفاهيم التداولية الحاضرة في تراثنا اللغوي العربي القديم، على غرار: القصدية، المقام، مطابقة الكلام لمقتضى الحال، المتكلم، السامع، سواء كان ذلك الحضور صريحا أو إشارة وتلميحا.

الكلمات المفتاحية: التداولية– التراث اللغوي– المقام– الخطاب– القصدية– المتكلم.

Astract:

The purpose of the research is to highlight the presence of deliberation - a Western linguistic concept - in the ancient Arabic linguistic heritage in its different stations, fields and orientations, by standing on the conceptual side of the circulation, in terms of definition, history and origin, and then trying to monitor some of the deliberative concepts present in our ancient Arabic linguistic heritage, the denominator, the matching of speech as appropriate, the speaker, the hearer, whether that presence is explicit or a reference and a hint.

Mots clés : Pragmatic, the ancient Arabic linguistic, context, Discourse

توطئة:

تعد التداوليات أحد أحدث الاتجاهات اللسانية اللغوية التي تربعت على ساحة الدرس اللساني في هذا العصر، فبعدما كان الدرس اللساني قاصراً على اتجاهين اثنين، – الاتجاه البنيوي الذي يهتم بدراسة اللغة وإجراءاتها الداخلية، والاتجاه التوليدي الذي يهتم بوصف وتفسير النظام اللغوي ودراسة الملكة اللسانية– جاءت التداوليات لتعالج في مقابل ذلك ما يسمى بـ"لسانيات الاستعمال"، أو "دراسة اللغة أثناء استعمالها في المقامات المختلفة"، وهذا ما جعلها أكثر دقة وضبطاً من الاتجاهات اللسانية السابقة، وجعلها تتبوأ هذه المكانة، وتسترجع ثقتها بين الباحثين والدارسين بعد أن كانت في وقت ما توسم بـ"سلة مهملات".

ويأتي هذا البحث لتسليط الضوء على جانب من هذا الاتجاه اللساني، من خلال الكشف عن ملامح ومعالم حضور هذا المنحى التداولي في التراث العلمي اللغوي

لعلمائنا العرب، بمختلف توجهاته ومجالاته المتنوعة، انطلاقاً من جملة من إشكالية مطروحة، مفادها: هل هناك حضور للمنحى التداولي في تراثنا العربي القديم عموماً؟، وإذا فرضنا حضوره، فأين وكيف تم تناول وبحث ذلك؟ نتناول الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال خطة بحثية، تضم مجموعة من العناصر، وفق الآتي:

1- مفهوم التداولية

تشير المصادر إلى أن كلمة "التداولية" تعود في أصلها الأجنبي pragmatique إلى الكلمة اللاتينية pragmaticus، والتي يعود استعمالها إلى سنة 1440م، ومبناها على الجذر pragma، ومعناه الفعل Action، ثم صارت الكلمة بفعل اللاحقة تطلق على كل ما له نسبة إلى الفعل أو التحقيق العملي[1].

وفي **معاجم اللغة العربية**، وردت مادة "دول" في عدة معاجم لغوية، مثل لسان العرب، والقاموس المحيط، وأصل هذه المادة من "دول": فالدولة في الحرب: أن تدال إحدى الفئتين على الأخرى. يقال: كانت لنا عليهم الدولة. والجمع الدول. والدُّولة بالضم، في المال ويقال: صار الفيء دولة بينهم، يتداولونه، يكون مرة لهذا، ومرة لهذا، والجمع دولات، ودول، ... ودالت الأيام، أي: دارت. والله يداولها بين الناس. وتداولته الأيدي، أي: أخذته هذه مرة، وهذه مرة. وقولهم: دواليك، أي تداول بعد تداول[2]. هذا من الناحية اللغوية للكلمة

أما التداولية في **الاصطلاح اللساني**، فمن الصعب تحديد تعريف دقيق لكلمة التداولية، نتيجة لتداخل التداولية مع علوم أخرى[3]، وكذا اتساع مجالات هذا المصطلح، وتنوعها، فأصبح من العسير وضع تعريف جامع مانع لها، ورغم كثرة التعريفات المقدمة للتداولية إلا أنها لم تسلم من الاعتراض والنقاش، بل قد يناقض بعضها بعضا.

ولعل أوجز تعريف للتداولية وأقربه للقبول هو أنها: "دراسة اللغة في الاستعمال in use أو في التواصل interaction"؛ لأنه يشير إلى أن المعنى ليس شيئا متأصلا في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا السامع وحده، فصناعة المعنى تتمثل في تداول اللغة بين المتكلم والسامع في سياق محدد (مادي، واجتماعي، ولغوي) وصولا إلى المعنى الكامن في كلام ما[4].

فهي إذن "تخصص لساني يدرس كيفية استخدام الناس للأدلة اللغوية في صلب أحاديثهم وخطاباتهم، كما يعنى من جهة أخرى بكيفية تأويلهم لتلك الخطابات والأحاديث"، فلا بد "من معرفة مقاصد المتكلم، وأغراض كلامه؛ لأن المعنى لا يستقى من البنية وحدها، وهي الجانب اللغوي منه، بل من الجانب السياقي أيضاً؛ فقد يكون بعيداً جداً عن الجانب الأول، وعلى السامع أو اللساني إدراك ذلك، نحو قول أحدهم لمن ما زال يحادثه في غرفة – مثلا– في وقت متأخر من الليل: **(إني متعب)**، فمعنى المتكلم هنا، هو أوقف الحديث، أو دعني أنم، وليس الإخبار بالتعب، وذلك بتوفر شروط معينة طبعاً. أو أن يذكر المتكلم أمراً و هو يعني أمرا آخر، نحو قوله لمن يدخل عليه المكتب ويترك الباب مفتوحاً: "ألا ترى أن الجو بارد"، وقصده في ذلك: أن أغلق الباب، وعلى السامع أن يدرك ذلك القصد لنجاح التواصل، وإحداث التفاعل[5].

ولذلك، عمد الباحثون إلى الاهتمام بالمنهج التداولي نتيجة لقصور الدراسات الشكلية، وإهمالها لمقاربة اللغة في تجليها الحقيقي– أي في الاستعمال

التواصلي بين الناس- وقد رأى "ليفنسون" أن الأساس الأول في نشوء المنهج التداولي كان بمثابة ردة فعل على معالجة "تشومسكي" للغة بوصفها شيئا تجريدياً أو قصرها على كونها ذهنية بحتة، غفلا من اعتبار استعمالها، ومستعملها، ووظائفها[6]

فالتداولية إذن في عمومها، تهتم بجميع شروط الخطاب، وتعتمد أسلوباً ما في فهمه وإدراكه، بدراسة كيفية استخدام اللغة، وبيان الأشكال اللسانية التي لا يتحدد معناها إلا بالاستعمال، وشرح سياق الحال والمقام الذي يؤدي فيه المتكلمون خطاباتهم، فاهتمامها ينصب أساساً على المتكلم، انطلاقاً من سياق الملفوظات التي يؤديها، إلى جانب تحليل الأفعال الكلامية، ووظائف المنطوقات اللغوية، وسماتها في عمليات الاتصال، ولذا سماها البعض: "لسانيات الاستعمال اللغوي"[7].

فنتبين مما سبق أن التداولية في مفهومها العام هي: "دراسة الاتصال اللغوي في السياق"[8]. أو نقول: هي"علم استعمال اللغة في المقام"[9].

2. نشأة التداولية ومميزاتها

يعود مصطلح التداولية[10] pragmatics بمفهومه الحديث إلى الفيلسوف الأمريكي تشارلز موريس Charles Morris الذي استخدمه سنة 1938 دالا على فرع من فروع ثلاثة يشتمل عليها علم العلامات أو السيمية semiotics، وهذه الفروع هي:

أ. علم التراكيب syntactics أو syntax : وهو يعنى بدراسة العلاقات الشكلية بين العلامات يعضها مع بعض.

ب. علم الدلالة semantics : وهو يدرس علاقة العلامات بالأشياء التي تدل عليها، أو تحيل عليها.

ج. التداولية: وتهتم بدراسة علاقة العلامات بمفسريها[11].

على أن التداولية لم تصبح مجالا يعتد به في الدرس اللغوي المعاصر إلا في العقد السابع من القرن العشرين بعد أن قام على تطويرها ثلاثة من فلاسفة اللغة المنتمين إلى التراث الفلسفي لجامعة أكسفورد هم: أوستن J.L. Austin وسيرل J.R. Searle وجرايس H.P. Grice، وقد كان هؤلاء الثلاثة ينتمون إلى مدرسة فلسفة اللغة الطبيعية natural language أو العادية ordinary في مقابل مدرسة اللغة الشكلية أو الصورية formal language، وكانوا جميعاً مهتمين بطريقة توصيل معنى اللغة الإنسانية الطبيعية من خلال إبلاغ مرسل رسالة إلى مستقبل يفسرها، وهذا ما تهتم به التداولية أيضاً ، لكن من الغريب أن أحداً منهم لم يستعمل مصطلح التداولية فيما كتب من أبحاث[12].

وقد كانت التداولية في نشأتها الأولى مرادفة للأفعال الكلامية، ولذلك يعد الفيلسوف **جون أوستين** (Jhon Austin) أباً للتداولية، والمؤسس الأول لهذه النظرية، وذلك سنة 1955 عندما ألقى محاضرات وليام جايمس Wiliam james lectures ، ولم يكن هدف **أوستين** عند دراسته لتلك المحاضرات تأسيس اختصاص فرعي في اللسانيات، إنما كان هدفه تأسيس اختصاص جديد هو "فلسفة اللغة"، وبذلك يمكننا اعتبار "محاضرات وليام جايمس" بوتقة التداولية اللسانية[13].

وكان هدف "أوستين" في محاضراته التصدي، والرد على فلاسفة اللغة الوضعية والمنطقية Logical

positivisme الذين يرون في اللغة وسيلة لوصف الواقع، أو الوقائع الموجودة في العالم الخارجي بعبارات إخبارية، يتم الحكم عليها بالصدق أو الكذب.

بالصدق إن طابقت الواقع، وبالكذب إن لم تطابقه، فإن لم تطابق العبارة الواقع، لا يمكننا الحكم عليها بالصدق والكذب، وبالتالي فالعبارة لا معنى لها، وهذا ما يطلق عليه أوستين "المغالطة الوضعية descriptive fallacy"[14]

وأنكر "أوستين" فكرة أن تقتصر وظيفة اللغة على وصف وقائع العالم وصفاً يكون إما صادقاً وإما كاذبا؛ لأنهم بهذه النظرة والفكرة يخرجون من اللغة معظم أنواع الخطاب الأدبي والديني والأخلاقي؛ لأنها بمعيارهم لا معنى لها[15].

ورأى "أوستين" أن هناك نوع آخر من العبارات يشبه العبارات الوظيفية في تركيبها، لكنه لا يصف وقائع العالم state of affairs، ولا يوصف بصدق ولا كذب، كأن يقول رجل مسلم لامرأته: **أنت طالق**، أو يقول: **أوصي بنصف مالي لمرضى السرطان**، أو يقول وقد بشر بمولود: **سميته يحيى**، فهذه العبارات وأمثالها لا تصف شيئاً من وقائع العالم الخارجي، ولا توصف بصدق أو كذب، بل إنك إذا نطقت بواحدة منها أو مثلها لا تنشئ قولا(to make statement) بل تؤدي فعلا (perform action)، فهي أفعال كلام، أو هي أفعال كلامية[16].

فالأقوال التي ننتجها في حياتنا اليومية لها جانبان: جانب لغوي، وجانب فعلي إنجازي، إنها أقوال وأفعال، أو هي أقوال يمتزج فيها القول بالفعل، ومن هنا جاء كتاب أوستين: How to do things with words" "كيف ننجز الأشياء بالكلمات"[17].

وكان أهم ما قدمه "أوستين" لنظرية الأفعال الكلامية تمييزه بين نوعين من الأفعال: "**أفعال إخبارية constative**": وهي أفعال تصف وقائع العالم الخارجي، وتكون صادقة أو كاذبة. و"**أفعال أدائية performative**": وهي أفعال تنجز بها في ظروف ملائمة أفعال أو تؤدى، ولا توصف بصدق، ولا كذب، بل تكون موفقة happy كما أطلق عليها أو غير موفقة un happy، ويدخل فيها التسمية، والوصية، والاعتذار، والرهان، والنصح والوعد[18].

ثم تبين لـ "أوستين" أن تمييزه بين الأفعال الإخبارية والأدائية غير حاسم، وأن كثيراً مما تنطبق عليه شروط الأفعال الأدائية ليس منها، وأن كثيراً من الأفعال الإخبارية تقوم بوظيفة الأدائية، رجع عوداً على بدء إلى السؤال: كيف ننجز فعلا حين ننطق قولا؟

ومحاولة منه للإجابة عن هذا السؤال رأى أن الفعل الكلامي مركب من ثلاثة أفعال، تعد جوانب مختلفة لفعل كلامي واحد، ولا يفصل أحدهما عن الآخر إلا لغرض الدرس، وهي: **الفعل اللفظي(القولي) locutionary acte**، **والفعل الإنجازي (الفعل المتضمن في القول)illocutionary acte**، **والفعل التأثيري perlocutionary act**

وقدم "أوستين" أيضاً تصنيفاً للأفعال الكلامية على أساس قوتها الإنجازية illocutionary force، يشتمل على خمسة أصناف، ولم يتردد في القول بأنه غير راض عن هذا التصنيف، وهي: **الحكميات (verdictifs)**، **والتنفيذيات (exerctifs)**، **والوعديات (promissifs)**، **والسلوكيات (comportementaux)**، **والعرضيات (expositifs)**[19]

على أن ما قدمه "أوستين" لم يكن كافياً لوضع نظرية متكاملة للأفعال الكلامية، لكنه كان كافياً ليكون نقطة انطلاق إليها بتحديده لعدد من المفاهيم الأساسية فيها، وبخاصة مفهوم الفعل الإنجازي الذي أصبح مفهوماً محورياً في هذه النظرية، حتى جاء "جون سيرل" فأحكم وضع الأسس المنهجية التي تقوم عليها، وكان ما قدمه عن الفعل الإنجازي والقوة الإنجازية كافياً لجعل الباحثين يتحدثون عن نظرية "سيرل" في الأفعال الكلامية، بوصفها مرحلة أساسية تالية لمرحلة الانطلاق عند "أوستين"[20].

وتتميز التداولية عن غيرها من اتجاهات البحث اللغوي بما يأتي:

1. التداولية تقوم على دراسة الاستعمال اللغوي أو هي لسانيات الاستعمال اللغوي، وموضوع البحث فيها هو توظيف المعنى اللغوي في الاستعمال الفعلي من حيث هو صيغة مركبة من السلوك الذي يولد المعنى.
2. ليس للتداولية وحدات تحليل (units of analysis) خاصة بها، ولا موضوعات مترابطة (correlational topics).
3. التداولية تدرس اللغة من وجهة وظيفية عامة (معرفية cognitive، واجتماعية social، وثقافية cultural)
4. تعد التداولية نقطة التقاء point of convergence مجالات العلوم ذات الصلة باللغة بوصفها وصلة بينها وبين لسانيات الثروة اللغوية Linguistics of language resources[21]

ولما كان مجال البحث في التداولية شديد الاتساع، فقد أخذت تظهر لها فروع يتميز كل منها عن الآخر، فهناك التداولية الاجتماعية sociopragmatics التي تهتم بدراسة شرائط الاستعمال اللغوي المستنبطة من السياق الاجتماعي.

وهناك التداولية اللغوية linguistic pragmatics التي تدرس الاستعمال اللغوي من وجهة نظر تركيبية structural،

وهناك أيضا التداولية التطبيقية applied pragmatics، وهي تعنى بمشكلات التواصل في المواقف المختلفة، وبخاصة حين يكون للاتصال في موقف بعينه نتائج خطيرة كالاستشارة الطبية، وجلسات المحاكمة.

ثم هناك التداولية العامة general pragmatics، وهي التي تعنى بدراسة الأسس التي يقوم عليها استعمال اللغة استعمالا اتصالياً[22].

هذه أهم المراحل والمفاهيم التي عرفتها التداولية، والتي تهتم بدراسة اللغة في الاستعمال، وذلك من لدن "أوستين" إلى "سيرل"، ولا زال البحث والتطوير لهذه النظرية مستمراً من طرف الباحثين والدارسين من مختلف التخصصات، وتعتبر الدراسات البلاغية في التراث العربي من بين الدراسات التي أولت اهتماماً كبيراً بدراسة اللغة في الاستعمال ضمن سياقات ومقامات متعددة، وسنحاول فيما يلي الكشف عن أبعاد التداولية في التراث البلاغي العربي القديم.

3. معالم التداولية في التراث اللغوي العربي القديم

إن ما جاءت به التداولية ليس بالأمر الهين باعتبارها مبحثاً لسانيا جديداً، وهي كمفهوم للممارسة الكلامية، تقوم بتحويل اللغة إلى كلام أو بما يسمى عملية التلفظ.

والهدف من ذلك إيصال رسالة ما إلى المخاطب بأسلوب حجاجي تأثيري. وهناك شروط لا بدّ أن تتوفر في صاحب الرسالة، وفي الرسالة نفسها،

وكذا في المخاطب، حتى يحدث نوع من التفاعل بين الأطراف جميعها، وهذا ما وجدناه عند بعض العلماء العرب، أمثال الجاحظ(255هـ).

ونحن إذ نقف أمام التداولية، فإننا نسجل من باب الإنصاف ما قدمه روادها على تعدد توجهاتهم وأهدافهم، إلا أننا – ومن قبيل عدم التنكر للذات–، نشير إلى أن جل مبادئ التداولية الحديثة حاضر في تراثنا العربي، ولو بمصطلحات مغايرة، وذلك منذ بداية طلائع الدرس اللغوي مع سيبويه(180هـ) وصولاً إلى البلاغيين، والنقاد المتأخرين[23].

وهنا إذ نلتفت هذه الالتفاتة، ونعود هذه العودة إلى التراث اللغوي العربي القديم، فإن ذلك "لا يعني أن النص العربي، يسلك في اتساقه، وانسجامه سبيلا مخالفاً تماما للنص الغربي، بحيث تعجز الأدوات التي اقترحها الغربيون عن مقاربته من هذه الزاوية، وإنما تعني إعادة الحياة إلى هذه الإسهامات باعتبار أن فيها نظرات، لا تقل أهمية، وخصوبة عما قدمه الغربيون"[24].

وقد تعددت أشكال الاهتمام بدراسة الخطاب والإقناع عند العرب، فتناولوا نص الخطاب في ذاته، ودرسوا ما يرتبط بالمخاطِب وطريقة أدائه، والمخاطَب وطريقة تلقيه، ومطابقة الخطاب لمقتضى الظاهر ومخالفته، إلى غير ذلك من المسائل التي يمكن أن يجمعها موضوع التداولية اللسانية، والتي يمكن أن تمثل مبادئ رائدة للتفكير التداولي اللغوي عند العرب[25].

وعن أسبقية العرب لمعرفة أصول هذا الاتجاه، يقول(سويرتي): "إن النحاة والفلاسفة المسلمين، والبلاغين، والمفكرين مارسوا المنهج التداولي قبل أن يَذيع صيتُه بصفته فلسفة وعلماً، رؤية واتجاهاً أمريكياً وأوربياً، فقد وُظف المنهج التداولي بوعي في تحليل الظواهر، والعلاقات المتنوعة"[26]

3-1. مبدأ القصدية

3-1-1. قصدية المتكلم

لو انطلقنا من مبدأ **القصدية**، الذي يعد الكشف عنه غاية الأدوات الإجرائية في التداولية، لوجدنا له أثراً بيناً عند **سيبويه**، وسنكتفي بمجرد الإشارة إلى بعض المواضع؛ لأنّ تقصي ذلك يحتاج إلى مبحث منفرد.

ففي معرض حديث سيبويه عن الأفعال التي تقتضي مفعولين، نحو: ظننت الجو صحواً، يكشف عن أن التأليف النحوي، – أو ما يعرف في المنظور الغربي التداولي تحت مسمى تداولية الدرجة الثانية، أو مستوى التعبير–[27]، يخضع في المقام الأول لمراد المتكلم، حيث يقول سيبويه: "وإنما منعك أن تقتصر على أحد المفعولين هاهنا، أنك **إنما أردت أن تبين ما استقر عندك من حال المفعول الأول**، يقيناً كان أو شكاً، وذكرت الأول؛ لتعلم الذي تضيف إليه ما استقر له عندك من هو. فإنما ذكرت ظننت ونحوه؛ لتجعل خبر المفعول الأول يقيناً أو شكاً، ولم ترد أن تجعل الأول فيه الشك، أو تقيم عليه في اليقين."[28]

وهذا يعني أن الدلالة اللغوية –كما يقول عبد السلام المسدي– "فعل **إرادي مقصود** بصاحبه، وهو ما ينتفي به ومعه في نفس الوقت أن تكون دلالة اللغة فعلا ذاتيا لها... معنى ذلك أن الدلالة ليست حقاً لصيقاً باللغة في أصل تصورها"[29].

وتأخذ هذه الفكرة بعدًا نظريًا ضمن **نظرية النظم للجرجاني**(471هـ) في إلحاقه الألفاظ للمعاني، وربطهما بمقاصد المستعملين عند حديثه عن ذكر المفعول به وحذفه، العائدين رأساً إلى مراد المتكلم، حيث يقول: "... فاعلم أن **أغراض الناس** تختلف في

ذكر الأفعال المتعدية، فهم يذكرونها تارة ومرادهم أن يقتصروا على إثبات المعاني التي اشتقت منها لفاعلين، من غير أن يتعرضوا لذكر المفعولين... ومثال ذلك، قول الناس: فلان يحل ويعقد، ويأمر وينهى، ويضر وينفع"[30].

وقد يذكر الجرجاني **القصدية** عند المتكلم تحت تسمية "**معاني النفس**"، ويربطها بغرض المتكلم الذي له الدور الحاسم في التنضيد والرصف، فقد يوجب تقديماً أو تأخيراً، أو حذفاً أو ذكراً، أو وصلا أو فصلا، حيث يقول في هذا: "وأما نظم الكلم، فليس الأمر فيه كذلك؛ لأنك تقتضي في نظمها آثار المعاني، وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس"[31]. ويؤكد هذا المعنى في موضع آخر بقوله: "أن العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق"[32].

3-1-2. قصدية المخاطب

من جهة أخرى، فإن القصدية ترتبط بالمخاطب، أو المستمع، لا بوصفه طرفاً منتجاً أساسياً، بل لكونه معتبراً في العملية التواصلية، فعندما نتكلم، فإننا لا ننظر إلى الآخرين، باعتبارهم طرفاً مستهلكاً سلبياً، بل باعتبارهم طرفاً فاعلا في العملية التواصلية؛ لذلك يجب مراعاة هذا الطرف في ارتباطه بالقصد دائماً، وهو ما أشار إليه **سيبويه** في باب الإخبار بالنكرة عن النكرة، باعتبار حال المخاطب، فقال: "وإنما حَسُنَ الإخبارُ ههنا- أي في عبارة: **ما كان أحد مثلك**- عن النكرة حيث أردت أن تَنْفِي أن يكون في مثل حاله شيءٌ أو فوقَه؛ لأن المخاطب قد يحتاج إلى أن تُعلِمه مثل هذا، وإذا قلت: كان رجلٌ ذاهباً، فليس في هذا شيءٌ تُعلِمه كان جهِله"[33].

3-2. شروط التواصل الناجح

في إطار التقعيد لآلة البلاغة نجد عند الجاحظ (255هـ) رؤية متقدمة في وضع شروط للتواصل الناجح؛ وذلك بأن يراعي المتكلم أحوال، ومستويات مخاطبه، فلا "يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة"[34]. وقد نهل الجاحظ في هذا السياق من وثيقة مشهورة في البلاغة، هي صحيفة بشر بن المعتمر(220هـ) التي حث فيها على ضرورة الموازنة في الكلام بين أقدار المعاني والسامعين والحالات، قال فيما ينقله عنه في "البيان والتبيين": "وقال: ينبغي **للمتكلم** أن يعرف **أقدار المعاني**، ويوازن بينها وبين **أقدار المستمعين** وبين **أقدار الحالات**، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك **مقاماً**، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على **أقدار المقامات**، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات.." [35].

فهذه نظرة بلاغية ثاقبة فاحصة متقدمة، ترسم الخطوط والضوابط التي تقوم عليها البلاغة بشكل عام، فليس البليغ من يلقي كلاما هكذا فقط، دون انتقاء للألفاظ، ومراعاة للمخاطب، حسب ما يقتضيه المقام والحال، إنما البليغ حقيقة (حسب رؤية بشر بن المعتمر)، هو من له قدرة على الموازنة والتقسيم بين:

- أقدار الكلام= على اقدار المعاني
- أقدار المعاني= على اقدار المقامات
- أقدار المستمعين= على أقدار الحالات.

وكذلك، نجد إشارات إلى عنصر (**المقام**)، **وضرورة مطابقة الكلام لمقتضى الحال**، فيما نقل من كلام بشر بن المعتمر في صحيفته، وقد أشار الجاحظ إلى هذه الفكرة، ومما ساقه في ذلك قوله: "قال أبو الحسن: خطب مصعب بن حيان، أخو مقاتل بن حيان خطبة نكاح، فحصر، فقال: لقنوا موتاكم قول لا إله إلا الله،

فقالت أم الجارية: عجل الله موتك، ألهذا دعوناك؟"[36].

فالمقام هنا مقام فرح وسرور وحبور وابتهاج، يناسبه من الكلام ما فيه تهنئة وتبريك وشكر، ودعاء مناسب للمقام، والخطيب –كما في المثال السابق– لم يراع هذا الشرط في الخطاب، فخالف مقتضى الحال، وجاء بما يناسب مقام الحزن والمأتم، لذلك مجّ خطابه مجّاً من أهل العرس المخاطبين.

3–3. التأثير في المخاطب معيار للتواصل

قد يغدو السامع معيار الكلام أحياناً، فتتحدد درجته، بناء على ردة فعله أحياناً، مثلما يفهم من كلام أبي هلال العسكري(395هـ) الذي نص على أنه: "إذا كان الكلام قد جمع العذوبة... وورد على الفهم الثاقب قبله، ولم يرده، وعلى السمع المصيب استوعبه، ولم يمجه، والنفس تقبل اللطيف، وتنبو عن الغليظ، وتقلق من الجاسي البشع.."[37].

فمتى اجتمعت في النظم الذي يحركه القصد بلاغةُ اللفظ، وشرف المعنى، والبعد عن الشذوذ، كان له التأثير المرغوب في السامع، ويحفظ لنا التاريخ ضروباً لمثل هذا التأثير، كقصة ربعي بن عامر مع ملك الفرس*، وجعفر بن أبي طالب مع النجاشي*، وهما مبسوطتان في كتب الأخبار والسير.

إن هذه النتيجة الحاصلة من عقد التواصل بين طرفي التداول – وهي **التأثير**– تعد الغاية في كل موقف، حتى أنه– كما يرى حازم القرطاجني(684هـ)– قد تنتهك بعض خصوصيات الخطاب، بقدر ما تحقق الغاية المرجوة من ذلك الانتهاك المقصود[38]، وقد ذكر لذلك الإجراء نموذجين:

أما الأول، فاستعمال **الإقناع**، وهي خاصية ملازمة للحجاج في فن الخطابة والشعر، وأما الثاني، فاستعمال **التخييل** الذي هو قوام الشعر في مقولات الخطابة. وغاية هذين الاستعمالين متحدة، وهي: "إعمال الحيلة في إلقاء الكلام من النفوس بمحل القبول، لتتأثر لمقتضاه، فكانت الصناعتان متؤاخيتين؛ لأجل اتفاق المقصد والغرض فيهما"[39].

3–4. مراعاة الأدوات غير اللغوية في الخطاب

إذا رجعنا إلى بعض أهم الجوانب الواجب مراعاتها في التحليل التداولي، وهو الجانب غير اللغوي في التخاطب، فإننا نجد الجاحظ، يكاد يحوز قصب السبق في الإشارة إليه، حينما انتبه إلى مختلف الوسائط التعبيرية غير اللغوية، حيث أرجع بيان الدلالة إلى خمسة أنماط، يهمنا منها في هذا المقام: الإشارة والنصبة[40].

وقد ذكر الجاحظ أضرباً عديدة للإشارة، حيث قال: "فأما **الإشارة** فباليد، وبالرأس، وبالعين، والحاجب، والمنكب إذا تباعد الشخصان، وبالثوب، وبالسيف، وقد يتهدد رافع السوط والسيف، فيكون ذلك زاجراً رادعاً، ويكون وعيداً وتحذيراً.." [41].

فالإشارة إذاً من أدوات البيان التي يستعين بها المتكلم لزيادة الدلالة على معنى قد يقصر عنه الكلام، أو تغني هي عنه، حيث يقول الجاحظ: "فالإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط...، وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير، ومعونة حاضرة في أمور، يسترها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس، ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص...، هذا ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت، ... وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان"[42].

أما النوع الثاني، وهو ما أسماه الجاحظ بالنصبة، "فهي الحال الناطقة بغير اللفظ، والمشيرة بغير اليد"[43]، ويوضح هذا المعنى بعد ذلك بقوله: "ومتى دل الشيء على معنى، فقد أخبر عنه، وإن كان صامتا، وأشار إليه، وإن كان ساكتاً، وهذا القول شائع في جميع اللغات، ومتفق عليه مع إفراط الاختلافات"[44].

وهذا المفهوم ألصق بواحد من أقسام العلامة في السيميوليجا الغربية، والمسمى: "الرمز"، الموصل لكل ما له قابلية لأن يعرفه الإنسان، ويدركه العقل البشري[45]

وبناءًا على كلام الجاحظ ندرك بأنه كان عالما بشتى جوانب العملية التخاطبية.

وعلى ذكر بعض أبعاد التخاطب، فإننا نسجل حضورها أيضاً عند لغوي عربي آخر هو ابن جني(392هـ) عندما أشار إلى أنه قد تحذف الصفة؛ لدلالة الحال عليها، فتحس في كلام القائل من المدح أو الذم ما يقوم مقام التصريح بالصفة،

- مثال ذلك، قولنا: **"كان والله رجلا"**، فالصفة المحذوفة غامضة، وغموضها الدلالي نابع من انفتاح البنية على احتمالين متضادين: المدح أو الذم، لكن ابن جني يرى أن أداء لفظ الجلالة (الله) بزيادة مدّه أكثر مما يستحق، وتتمكن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها، تؤدي دور الإفصاح عن معنى المدح، فكأنك قلت: كان والله رجلا كريمًا[46].
- مثال آخر، تقول: "سألناه فوجدناه إنسانًا"، وتمكّن الصوت بإنسان وتفخّمه، فتستغني بذلك عن وصفه بقولك: إنسانًا سمحًا، أو جوادًا، أو نحو ذلك.
- مثال آخر، تقول: "سألناه وكان إنسانًا"، وتزوي وجهك وتقطبه، فيغني ذلك عن قولك: إنسانًا لئيمًاً، أو بخيلا[47].

وفي هذا إشارة متقدمة من ابن جني على أن تقاسيم الوجه أو "لغة الجسد" -كما تعرف اليوم- تقوم مقام الإدلاء أو التعبير، بل أنها في أحايين أخرى تكون هذه القناة اللغوية أبلغ في التعبير من الكلام نفسه بالنسبة للمخاطب.

3-5. البعد التداولي عند الأصوليين

لا يمكن أن نغفل عن جهود الأصوليين والفقهاء في العناية بأطراف العملية التواصلية، وأبعاد الكلام المختلفة، فقد اهتموا بها اهتماماً فاق – لا محالة – اهتمام اللغويين؛ ذلك لأن الأصوليين وجدوا في الحديث عن أطراف العملية التواصلية خدمة لمقاصدهم؛ ولأن في ذلك تعلق شديد بالأحكام الشرعية التي تسوس حياة الناس، وتوجههم لخيرهم في العاجل والآجل؛ ونظراً لعظم هذه المصلحة التي لا مصلحة فوقها، انصب انشغال الأصوليين بأطراف الحكم الشرعي[48] وهي أربعة:

أولا: الحاكم أو الشارع وهو الله تعالى.

ثانيا: الحكم وهو مضمون خطاب الله تعالى للمكلفين من عباده.

ثالثا: المحكوم فيه أو الشأن المتعلق به الحكم.

رابعا: المحكوم عليه، وهم المكلفون المتعلق الحكم بفعلهم. [49]

وفي قضية القصد كونها من الأهمية بمكان في تبيان دلالة الكلام يميز أبو حامد الغزالي(505هـ) بين ضربين من الكلام: الكلام المنجز فعلا، وحديث النفس، متخذاً من القصد معياراً للتمييز بينهما، فبعد أن يدرج جنس الخبر ضمن أقسام الكلام القائم بالنفس يلاحظ أن العبارة ليست إلا أصواتاً مقطعة تحكي صيغتها صيغة ما هو قائم في النفس[50]، لينتهي إلى تقرير أن "هذا ليس خبرا لذاته، بل يصير خبرا بقصد القاصد إلى

التعبير به عما في النفس"[51]، وبنفس المقياس عرف **ابن حزم** الكلام جملة فجعل القصد المؤشر المبدئي في كل نظام إبلاغي تواصلي، حيث قال: "وأما الصوت الذي يدل بالقصد، فهو الكلام الذي يتخاطب الناس به فيما بينهم، ويتراسلون بالخطوط المعبرة عنه في كتبهم؛ لإيصال ما استقر في نفوسهم من عند بعضهم إلى بعض"[52].

وهذا القاضي عبد الجبار(415هـ) في كتابه"المغني" يزرع الدعامات الأساسية للكلام، فيجعل القصد شرطًا أساسيًا ينبغي توافره في عملية الكلام بالعودة إلى مسألة المواضعة اللغوية، وفي ذلك يقول: "أن أهل اللغة متى علموا وقوع الكلام بحسب **قصد زيد، وإرادته، ودواعيه**، وصفوه بأنه متكلم، ومتى لم يعلموا ذلك من حاله، لم يصفوه به"[53]. وبهذا يصبح القصد قانوناً داخلياً في صلب المواضعة، يحدد نوعية أجناس الخطاب من خبر أو أمر، أو استخبار، فيتحول بالصياغة اللسانية من الوظيفة الإبلاغية إلى الوظيفة الاقتضائية كما في الأمر والنهي، والطلب[54].

خاتمة

لعلّ هذه الإشارات، ليست كافية في عرض البعد التداولي عند العلماء العرب في تعاملهم مع النصوص، ولكنها ترشد إلى حقيقة الاهتمام الموسّع لديهم، كما أنها تمثل نواة لمن يريد أن يوسّع آفاق البحث التداولي بشيء من التحليل والمقارنة بين نصوص التراث العربي وبين المقاربات التداولية الراهنة، وكذا الوقوف عند محطات هذا التراث، محطة محطة، خاصة المحطات التي كانت منعطفا حاسماً ونموذجاً من النماذج المتميزة في جبين هذا التراث، بما طرحته من أفكار، ورؤى منهجية متميزة.

المصادر والمراجع العربية

1. **أوشان** علي آيت: السياق والنص الشعري من البنية غلى القراءة، ط1، 2000/1421، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.
2. **البغدادي**: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط4، 1418هـ/ 1997م، مكتبة الخانجي، القاهرة،
3. **بوجادي** خليفة: في اللسانيات التداولية، ط1، 2009، بيت الحكمة، الجزائر.
4. **بوقرة** نعمان: الخطاب الأدبي ورهانات التأويل قراءات نصية تداولية حجاجية، ط1، 2012، عالم الكتب الحديث، إربد، شارع الجامعة.
5. **الجاحظ**: البيان والتبيين، تحقيق: فوزي عطوي، ط1، 1968، دار صعب، بيروت.
6. **الجرجاني** عبد القاهر: دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد التنجي، ط1، 1995، دار الكتاب العربي، بيروت.
7. **ابن جني**: الخصائص تحقيق: محمد علي النجار، ط، عالم الكتب، بيروت.
8. **الجوهري** إسماعيل بن حماد: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط4، 1407هـ/1987 م، دار العلم للملايين، بيروت.
9. **حباشة** صابر: التداولية والحجاج (مداخل ونصوص) ط1، 2008، دار صفحات، دمشق.
10. **ابن حزم**: التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية، تحقيق: إحسان عباس، ط1، 1900، دار مكتبة الحياة، بيروت.
11. **خطابي** محمد: لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب)، ط2، 2006، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.

12. **سيبويه**: الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، ط3، 1988/1408، مكتبة الخانجي، القاهرة.

13. الشهيري عبد الهادي بن ظافر: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ط1، 2004، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان.

14. **طه** عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط2، 2000، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.

15. عبد الجبار القاضي: المغني في أبواب التوحيد والعدل، خلق القرآن، قوم نصه إبراهيم الأبياري، ج 7

16. **العسكري** أبو هلال: كتاب الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط 1406هـ، 1986م، المكتبة العصرية، بيروت.

17. **عمران** قدور: البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني، ط1، 2012، عالم الكتب الحديث، الأردن.

18. **الغزالي** أبو حامد: المستصفى في علم الأصول، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، ط1، 1413، دار الكتب العلمية، بيروت.

19. **القرطاجني**: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، ط3، 1986، دار الغرب الإسلامي.

20. **المسدي** عبد السلام: التفكير اللساني في الحضارة العربية، ط2، 1986م، الدار العربية للكتاب.

21. **ابن منظور**: لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت.

22. **نحلة** محمود أحمد: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ط 2002م، دار المعرفة الجامعية.

23. نواري سعودي أبو زيد: في تداولية الخطاب الأدبي (المبادئ والإجراءات) ط1، 2009، بيت الحكمة، الجزائر.

24. **النويري**: نهاية الأرب في فنون الأدب تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، ط1، 1424 هـ، 2004 م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

المراجع الأجنبية المترجمة

25. **آن روبول**، جاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، ط1، 2003، دار الطليعة، بيروت.

26. **فليب** بلانشيه: التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة صابر حباشة، ط1، 2007، دار الحوار، سورية.

المجلات والدوريات

27. مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة سطيف 2، العدد16

28. مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت، مج28، ع3،يناير/مارس2000،

مواقع الأنترنيت

http://takhatub.ahlamontada.com

هوامش البحث:

(1) ينظر: نواري سعودي أبو زيد: في تداولية الخطاب الأدبي (المبادئ والإجراءات) ط1، 2009، بيت الحكمة، الجزائر، ص18.

(2) ينظر: إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط4، 1407هـ/1987 م، دار العلم للملايين، بيروت، 1700/4، ابن منظور: لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت، 252/11. مادة "دول".

(3) ومن هذه العلوم: علم الدلالة semantics، علم اللغة الاجتماعي sociolinguistics، علم اللغة النفسي psycholinguistics، تحليل الخطاب Discourse analysis، فعلم الدلالة يشارك التداولية في دراسة المعنى، وعلم اللغة الاجتماعي يشارك التداولية في تبيين أثر العلاقات الاجتماعية بين المشاركين في الحديث وأثر السياق غير اللغوي في اختيار السمات اللغوية وتنوعها، وأما علم اللغة النفسي فيشترك مع التداولية في الاهتمام بقدرات المشاركين التي لها أثر كبير في أدائهم مثل الانتباه، والذاكرة والشخصية،. وأما تحليل الخطاب فيشركها في الاهتمام أساساً بتحليل الحوار. ينظر: محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ط 2002م، دار المعرفة الجامعية. ص10، 11.

(4) ينظر: محمود أحمد نحلة، المرجع السابق، ص14.

(5) ينظر: خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية، ط1، 2009، بيت الحكمة، الجزائر، ص71

(6) ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهيري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ط1، 2004، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ص21

(7) ينظر: خليفة بوجادي: المرجع السابق، ص69

(8) عبد الهادي بن ظافر الشهيري: المرجع السابق، ص22

(9) صابر حباشة: التداولية والحجاج (مداخل ونصوص) ط1، 2008، دار صفحات، دمشق، ص11

(10) يعود الفضل إلى الفيلسوف طه عبد الرحمن في وضعه لهذا المصطلح مقابلا للمصطلح الأجنبي براغماتية سنة 1970 دالا به على البراكسيس (praxis) ولهذا المصطلح ترجمات عربية أخرى أقل شهرة مثل: الذرائعية، والنفعية، والتخاطبية والمقاماتية، والوظائفية.

ينظر: طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط2، 2000، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ص28. ونعمان بوقرة: الخطاب الأدبي ورهانات التأويل قراءات نصية تداولية حجاجية، ط1، 2012، عالم الكتب الحديث، إربد، شارع الجامعة، ص68.

(11) ينظر: آن روبول، جاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، ط1، 2003، دار الطليعة، بيروت.ص 29

(12) ينظر: محمود أحمد نحلة: مرجع السابق، ص9.

(13) ينظر: آن روبول وجاك موشلار: مرجع سابق، ص29.

(14) ينظر: محمود نحلة: مرجع سابق، ص42، 43.

(15) ينظر: نحلة، نفسه، ص42، 43.

(16) نفسه، ص43.

(17) قدور عمران: البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني، ط1، 2012، عالم الكتب الحديث، الأردن، ص49.

(18) محمود نحلة: مرجع سابق، ص43، 44.

(19) ينظر: فليب بلانشيه: التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة صابر حباشة، ط1، 2007، دار الحوار، سورية، ص62

(20) محمود نحلة: مرجع سابق، ص47.

(21) ينظر: محمود أحمد نحلة: (مرجع سابق)، ص14، 15.

(22) ينظر: محمود نحلة: نفسه، ص15.

(23) ينظر: الجذور العربية للتداولية http://takhatub.ahlamontada.com

(24) محمد خطابي: لسانيات النص(مدخل إلى انسجام الخطاب)، ط2، 2006، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ص95.

(25) خليفة بوجادي: التفكير اللغوي التداولي عند العرب مصادره ومجالاته، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة سطيف 2، العدد16، ص32.

(26) محمد سويرتي: اللغة ودلالاتها، تقريب تداولي للمصطلح البلاغي (مقال)، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت،مج28، ع3،يناير/مارس2000، ص30-31.

(27) صنف هانسن Hansson 1974 مختلف الاتجاهات التداولية اعتماداً على تشغيلها لمصطلح السياق إلى ثلاث درجات: 1. الدرجة الأولى: وتتمثل في دراسة الرموز الإشاريةLes symboles indexaux، وذلك مثل: (أنا، هنا، الآن..).2. الدرجة الثانية: وتهتم بكيفية التعبير(معرفة كيفية انتقال الدلالة من المستوى الصريح إلى المستوى

التلميحي).3.الدرجة الثالثة: و"تتمثل في نظرية أفعال الكلام". ينظر: علي آيت أوشان: السياق و النص الشعري من البنية إلى القراءة، ط1، 2000/1421، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص59. و نواري سعودي أبو زيد: في تداولية الخطاب الأدبي (المبادئ و الإجراءات) هامش ص27.

(28) سيبويه: الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، ط3، 1988/1408، مكتبة الخانجي، القاهرة، 40/1.

(29) عبد السلام المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربية، ط2، 1986م، الدار العربية للكتاب، ص110، 111.

(30)الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق : محمد التنجي، ط1، 1995، دار الكتاب العربي، بيروت، ص127.

(31)الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص56.

(32) نفسه، ص59.

(33) سيبويه: الكتاب، 54/1.

(34)الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق: فوزي عطوي، ط1، 1968، دار صعب، بيروت، ص64.

(35)الجاحظ: المرجع نفسه، ص87، 88.

(36) الجاحظ: المرجع السابق، ص337.

(37) أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط 1406هـ، 1986م، المكتبة العصرية، بيروت، ص57.

* وملخص القصة: أن رستم قائد جيش الفرس أرسل إلى سعد بن أبي وقاص أن ابعث إلينا رجلا نكلمه ويكلمنا، فبعث إليه ربعي بن عامر، فلما انتهى إليه، قال له الترجمان، واسمه عبود من أهل الحيرة: ما جاء بكم، قال: الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عباد الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه، ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه = = أبدا حتى نفضي إلى موعود الله". ينظر: النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب تحقيق : مفيد قمحية وجماعة، ط1، 1424 هـ، 2004 م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 126/19.

* ومما جاء في كلام جعفر: "أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة..". ينظر: النويري: المرجع السابق، 175/16.

(38) ينظر: نواري سعود أبو زيد: المرجع السابق، ص36.

(39) القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، ط3، 1986، دار الغرب الإسلامي، ص361.

(40) ينظر: نواري سعود أبو زيد: المرجع السابق، ص39.

(41) الجاحظ، البيان والتبيين، ص55.

(42) الجاحظ: المرجع نفسه ص55، 56.

(43)الجاحظ، المرجع نفسه، ص86.

(44)الجاحظ، المرجع نفسه، ص86.

(45)ينظر: نواري سعود أبو زيد: المرجع السابق، ص39.

(46) ينظر: ابن جني: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، ط، عالم الكتب – بيروت، 371/2.

(47)ينظر: ابن جني: المرجع السابق، 371/2.

(48)ينظر: نواري سعود أبو زيد: المرجع السابق، ص41، 42.

(49) ينظر: أبو حامد الغزالي: المستصفى في علم الأصول، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، ط1، 1413، دار الكتب العلمية، بيروت، ص66.

(50) عبد السلام المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص146.

(51) أبو حامد الغزالي: المرجع السابق، ص106.

(52) ابن حزم: التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية، تحقيق: إحسان عباس، ط1، 1900، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص12.

(53) القاضي عبد الجبار: المغني في أبواب التوحيد والعدل، خلق القرآن، قوم نصه إبراهيم الأبياري، ج 7، ص48

(54) عبد السلام المسدي: المرجع السابق، ص146.

دواعي الغموض في الشعر العربي المعاصر

ضامري مصطفى
بإشراف: أ.د العرابي لخضر
جامعة أبي بكر بلقايد . تلمسان

الملخص :

يتناول هذا المقال ظاهرة الغموض ودواعيه في الشعر العربي المعاصر باعتبارها تمثل أحد الخصائص المميزة للتجربة الشعرية المعاصرة، ولأنها أصبحت تشكل عضوا فنيا له صفاته وأسبابه، وتعبر عن الإنسان المعاصر بكل ما يعيشه من حالات شعورية وتناقضات انعكست بالضرورة على تجربته الشعرية. فالغموض يمكن أن يغطي كل شيء ذي أهمية أدبية، وللاطلاع على دواعي الغموض في الشعر العربي لابد من دراستها عند الشاعر والقارئ وفي النص، يمكن أن ينتج عن معنيين أو أكثر في معنى واحد يكون الشاعر قد قصده، ويمكن أن يتولد من اتحاد عدة معان بغرض توضيح حالة ذهنية خفية أو معقدة، ويمكن أن يكون الغموض في قراءة القارئ فيذهب إلى عدة دلالات في تفسيراته لما يقرأ، كما يمكن أن ينتج عن موضوع النص في حد ذاته.

الكلمات المفتاحية :الغموض; الغموض والإبهام; الغموض في الشعر; الشعر العربي المعاصر.

مقدمة:

يتناول هذا المقال ظاهرة الغموض ودواعيه في الشعر العربي المعاصر باعتبارها تمثل أحد الخصائص المميزة للتجربة الشعرية المعاصرة، وتعبر عن الإنسان المعاصر بكل ما يعيشه من حالات شعورية وتناقضات انعكست بالضرورة على تجربته الشعرية، ولذلك كان لابد أن نتطرق إلى هذا الموضوع الذي أصبح يثير الكثير من التساؤلات ويشغل بال المفكرين والنقاد، بداية بعلاقة ظاهرة الغموض بالشعر العربي القديم عامة وبالشعر العربي المعاصر على وجه الخصوص، ثم إلى دواعي الغموض التي باتت تقف أمام النص الشعري المعاصر وأمام الشاعر والمتلقي.

إذن فما هو الغموض؟ وما هي دواعيه في الشعر العربي المعاصر؟

. الشعر والغموض:

. إن ظاهرة الغموض قديمة قدم الشعر العربي، بل هي في الشعر بعامة فقد نشأت مع الشعر وأصبحت تشكل عنصرا فنيا له صفاته وأسبابه، وقد استفحل الغموض في الشعر العربي المعاصر، لأسباب متنوعة من نص إلى آخر، ومن شاعر إلى آخر، فقد يكون هذا الغموض ناشئا عن قصد، والمعنى الغامض لطيف وهذا يثبت أن الغموض لا يعود إلى صاحب النص، وإنما يعود أيضا إلى النص والمتلقي.1

والفرق بين النثر والشعر هو في الوضوح والغموض، كما يشير البعض إلى أن طبيعة النثر الوضوح أما طبيعة الشعر الغموض، وهو صبغة نميز بها الشعر العادي من الشعر الرفيع.

الغموض ليس خاصية ينفرد بها الشعر العربي المعاصر، وإنما هو خاصية مشتركة بين الشعر العربي القديم والجديد على السواء، وكل ما في الأمر هو أن الغموض قد صار ظاهرة واضحة في الشعر الجديد تدعونا إلى

التأمل. فلا يمكن أن تكون المسألة في هذا الشعر عدولاً معتمداً عن الوضوح إلى الغموض، ولا يمكن أن تكون كذلك مجرد رغبة من الشعراء في إرضاء ذواتهم عن طريق إغاظة متلقي الشعر بوضعه في إطار من الطلاسم التي تعيي على الفهم كما لا يمكن أن يكون النص وما يحمله من مواضيع السبب الرئيس في الإبهام المباشر.1

وكأن أبا تمام قد وعى وظيفة الغموض في الشعر حين أجاب رجلا سأله "يا أبا تمام، لم لا تقول من الشعر ما يعرف؟ فقال: "وأنت لما لا تعرف من الشعر ما يقال؟". 3

لقد استطاع الشاعر العربي المعاصر من خلال تجربته الجديدة في الشعر الجديد عبر ما يقرب عقدين من الزمن، أن يصنع للشعر العربي مصطلحا جديدا يعايش العصر وينبض بروحه، وإن كانت اللغة المركبة منه جديدة وغريبة على الأسماع، إلا أنه يحمل طاقة تعبيرية تعبر عن مكانة هذا الشعر، والشيء الذي لا يمكن إنكاره هنا هو أن ظهور المصطلح الشعري الجديد الذي يسمى بشعر الحداثة قد صحبه لدى المتلقين إحساس بغموض هذا الشعر وخاصة الذي ألف قراءة الشعر العربي القديم قد يواجه صعوبة كبيرة في التجاوب مع الشعر الجديد، وربما رفضه من أجل هذه الصعوبة، فالمؤكد أن هذا الشعر الجديد يمثل اتجاها جماليا يختلف عن اتجاه الشعر القديم، وربما حاول البعض التغلب على تلك الصعوبة بأن يكيفوا أنفسهم وهذا الاتجاه الجديد، ولكن كثيرا ما يقف حائلا دونهم، وهذا التكيف خاصة في الشعر الجديد هي في الحقيقة مقوم من مقومات وجوده، وهي ظاهرة الغموض في هذا الشعر الجديد. 4

لقد اعتمد الشاعر العربي المعاصر الخيال الشعري للكشف عن عالم يقوم على الحرية الإبداعية المطلقة، وأصر هذا الخيال الخلاق على أن يخلق صورة بنفسه لا أن يستمدها من الواقع حوله، وهكذا تحولت الصورة الشعرية في ظل تجارب الشعر الجديد إلى صور انفعالية تموج بالألوان والأصوات والرموز المتداخلة.

واستطاعت الصورة الشعرية المعاصرة أن تكون تركيبة وجدانية تنتمي إلى عالم الشعر الجديد، وبرزت من خلالها أهمية الوجود الذاتي واللاشعور وأهمية الأساطير كعالم جوهري في حياة الإنسان المعاصر وبسبب هذه الصور الذاتية والأسطورية طغى الغموض على القصيدة العربية المعاصرة، ذلك الغموض الذي جاء نتيجة طبيعية لطرح الواقع الخارجي وعدم الاعتماد عليه كمصدر أساسي للصورة الشعرية، والاعتماد في ذلك على الواقع الذاتي والواقع الأسطوري وهما واقعان عالمهما الرمز والإيحاء والغموض. 5

ونجد وليام أمبسون يشير إلى الغموض بقوله: " الغموض يعني في الكلام شيئا ملفوظا تماما، وعادة ما يكون هذا الشيء ذكيا وخادعا". فالغموض كما يراه أمبسون هو تلك العبارات التي تكون غامضة المعنى غير مفهومة في النص الشعري.

حاول بعض الدارسين في العصر الحديث أن يتعرفوا على الأسباب التي أدت بالقصيدة المعاصرة إلى الغموض، ومنهم وليام أمبسون في كتابه "سبعة أنماط من الغموض" وهو يحدد معنى الغموض بقوله:" إنك لا تحسم حسما فيما تعنيه، أو أن تقصد إلى أن تعني أشياء عديدة وفيه احتمال أنك تعني أنك تعني واحدا أو آخرا من شيئين، أو تعني كلاهما معا، أن الحقيقة الواحدة ذات معان عدة".6

يصنف أمبسون الغموض في سبعة أنماط، ويبدأها بأهمها، وهو الغموض الذي يكاد في نظره أن يغطي كل شيء وله أهمية أدبية وفنية، ويركز فيه على الغموض الناتج عن المجاز والاستعارة والنعوت والإيقاع، ثم يتوقف

بعد ذلك عند أنماطه السبعة وهو الذي يتضمن اجتماع معنيين أو أكثر في معنى واحد يكون الشاعر قد قصده في قوله: "والغموض نفسه يمكن أن يعني التردد وعدم اتخاذ قرار بشأن ما تعنيه أنت، بمعنى أن الغموض قد يعني القصد إلى العديد من الأشياء، أو بمعنى آخر الغموض هو احتمالية أن يعني الإنسان أمرا أو آخر أو الأمرين معا، كما قد يعني أيضا أن تكون العبارة معان عدة". 7

ومن هنا يمكن أن نقول إن أمبسون استطاع أن يفرق بين الغموض الفني والإبهام، وذهب إلى أن الإبهام ضار بالعملية الشعرية، في حين أن تعدد الإشارات فهو يضيف غنى وتعقيدا لبنية المعنى ولا يبهمها. 8

إن بناء القصيدة الحديثة يدعو إلى الغموض، لأن الشعراء في هذا العصر لا يبنون فكرهم على تحديد اتجاه يدعون إليه، ولا يحددون الموضوع والغرض من القصيدة الواحدة، حتى تستطيع أن تربط عناصر التركيب ومدلولاته بهذا الغرض، فهو أيضا لا وجود له، بل يعمدون إلى إخفائه، ثم أن المعاني الجزئية والمضمون من منطوق ومفهوم للتركيب لا ضابط لها.

وهم يرون أن من دواعي الغموض للقصيدة الحديثة ما تتسم به من البعد المعرفي، حيث تنصهر الثقافات في صميم التكوين البنائي للشعر، لكن ذلك يعارض فلسفتهم التي تقوم على تحطيم اللغة ومدلولاتها، وتفريغ اللفظة والتراكيب مما تحمله من دلالات، ومعنى ذلك أنهم يرفضون البنيوية والأسلوبية ودلالتهما. 9

يجمع كثير من الباحثين على أن الغموض إذا كان مصدره الشاعر فهو يعود إلى عجز في التعبير عن التجربة الشعرية أو عدم نضجها واكتمالها، أو القصدية في التعقيد والإبهام.

لكن الشاعر قد تدفعه ظروف خارجة عن إرادته إلى الغموض بسبب ظروف عصره أو مجتمعه الذي يعيش فيه، يقول أدونيس:" إن الشعر صورة عن حياتنا المعاصرة في عبثها وخللها إنه صورة من التشققات في الكينونة المعاصرة"10، كما يشير إلى ذلك بتعريف آخر " الشعر نقيض الوضوح الذي يجعل من القصيدة سطحا بلا عمق، الشعر كذلك نقيض الإبهام الذي يجعل من القصيدة كهفا مغلقا"11. ولذا وجب على الشاعر العربي المعاصر تخطي الحدود وتجاوز القيود المفروضة عليه ليعالج قضايا عصره ومجتمعه بتعقيداتها ولذا تبدوا قصيدته غامضة.

أما الغموض الفني الناجم عن النص الشعري فهو يتجلى في أشكال مختلفة يجمع بينها تعدد الدلالة واختلاف لغة العصر، وكثرة المعارف متعددة المنابع ومتلونة الروافد التي يختلط فيها العلمي والخرافي والتاريخي والأسطوري والديني والفلسفي وكل ألوان معارف العصر، ولذلك وجد الشاعر العربي نفسه في مواجهة العديد من المعارف التي ترفض أن تتلقاها الواحدة تلوى الأخرى بل يجب تناولها دفعة واحدة، وهذا ما ولد ازدحاما دلاليا فيه من الغموض والتعدد ما يصيب المتلقي بالحيرة أمام النص الشعري.12

ولذلك فإن ظاهرة الغموض لا تقتصر على القصيدة وحدها، وإنما تشمل الفنون والعلاقات الاجتماعية نفسها، ولذلك فإن من حق النص الشعري أن يعبر عن علاقات الإنسان الاجتماعية والنفسية والمصيرية، وأن يطور من مكوناته وتقنياته وبنيته الفنية لمواكبة العصر وتجاربه.

إذا تتبعنا الشعر العربي المعاصر ندرك قدر القلق والتشتت الذي يعاني منه العربي من خلال لغته التي تراوحت بين التناقض أحيانا والرفض أحيانا أخرى

والغموض في كل الأحايين، واللغة التي تكتب بها القصيدة هي وصف لصورة يرسمها الشاعر انطلاقا من ذاته، ولأن ذات الشاعر ومشاعره تسيرها أمور باطنية مقرها اللاشعور تأتي قصائده غامضة مبهمة.13

وبذلك اختلفت رسالة الشعر حيث استبدل الشاعر المعاصر العالم الداخلي بالعالم الخارجي، فاتجه إلى داخله لاستنطاقه واكتشافه، وصار هذا العالم مصدرا أساسيا للطاقة الشعرية، وهكذا اتجه النص الشعري من المعلوم إلى المجهول، وصار الشاعر المعاصر يطرح أسئلة ويثير اختلافات، ولذلك اتجه الشعراء المعاصرين صراحة إلى الغموض. 14

يطوف الشاعر المعاصر أحيانا في آفاق ميتافيزيقية وسريالية مستمدة من الحلم، وهي تنم عن مناخ شعري سريالي من الصعوبة القبض على دلالته وعلى هذا الأساس يصبح انفتاح الشعر للفهم صعب المنال، لأن مهمة الشاعر الأولى هي إخراج اللفظة من الحيز العقلي، حتى تصبح الكلمة قادرة على أن تعبر عن فعالية الروح وحاجتها، وتصبح ثورة من الإيحاءات الصوتية أكثر من قيمتها الدلالية، ولهذا يتسم جانب كبير من الشعر الحديث بالغموض، لأن الشعر لا يخضع للمواصفات العقلية، أي لا يقصد فيه التوصيل المباشر بين الشاعر والقارئ، ولذلك وجب على هذا القارئ أن يبحث عن علاقة أخفاها الشاعر، وعن معنى ضمني لم يقله صراحة. 15

كما أن ظاهرة الغموض هي حتمية لفقدان اللغة المشتركة بين الشاعر والقارئ يقول أدونيس "هكذا تتضح لنا بشكل أكثر تعقيدا إشكالية الحداثة اليوم، على مستوى اللغة، لقد فقد حسن اللغة وبذلك يبدوا كأنه يجهل ما أعطاه هويته أو يجهل ما هو..." 16

وهذا ما ولد التنافر الكبير بين الشاعر والقارئ، لأن الشاعر في حد ذاته قد فقد لغته الشعرية، وهذا ما يؤدي إلى الإبهام والغموض.

فالقصيدة المعاصرة ابتعدت عن النموذجية في الشعر وراحت تبحث عن شكل يناسبها ضمن التجربة الجديدة، وما تحمله من تغيرات معاناة الإنسان وتجربته، فالبحث عن الجديد والابتعاد عن القديم هو ما قد يولد القطيعة بين القارئ والشاعر، ففي حين يرى الشاعر في نفسه قمة الإبداع يرى فيه القارئ قمة الألغاز والغموض.

على القارئ أثناء عملية القراءة أن ينفعل مع الشاعر لأن القصيدة ما هي إلا شحنة عاطفية لا تخلو من الروعة، صبغها الشاعر بهذا الغموض ليس عجزا منه التوصيل وإنما ليمنح القارئ فرصة للتفاعل مع النص الأدبي. 17

كذلك يجب على القارئ أن يكون في مستوى هذا النص الأدبي، لأن الشعر المعاصر لا يستخدم اللفظ المعتاد بدلالته المحدودة التي نعلمها ولا يستخدم كذلك اللفظ بدلالته التي نقصدها حين نستخدمه في حياتنا اليومية، ثم أنه لا يفسر لنا الأشياء تفسيرا منطقيا يقبله العقل، ومن ثم نصف الشاعر بأنه غامض في نصه، لأننا اعتدنا أن نتعامل باللغة في وضوح، أما الشاعر فيدرك الأشياء إدراكا أبعد مدى مما نتصور. 18

إن الشاعر لا يطلب من القارئ فهما فوريا للمعنى في شعره فهو يريد خلق نوع من الإيحاء لدى القارئ لينقله إلى تجربته الشعرية ويشاركه فيها ووسيلته في ذلك إعادة صياغة الأشياء على غير ما هي عليه في الواقع وذلك من خلال اللغة التي يحاول تحطيمها ليصنع منها لغة جديدة تخدمه في نقل عالمه الداخلي الخاص إلى الآخرين.

ومن دواعي الغموض عدم مراعاة نظم الربط بين أجزاء القصيدة بإهمال حروف العطف وغيرها من وسائل الربط في اللغة وهذا بالطبع خروج على قوانين اللغة المتعارف عليها مما يوقع القارئ في حيرة هي الغموض عينه، ولعل أحدا يقول إن الشاعر يستبدل تلك الحروف والوسائل بطرق ربط أخرى وذلك ليحقق الانسيابية في النص ومن هذه الطرق، التكرار والفاصلة والنقطة أو النقط المتوالية أو وضع كلمات في غير مكانها لترتبط مع بقية الجملة كأن يضع الفعل في آخر السطر الشعري، والفاعل في بداية السطر الشعري اللاحق له، أو يضع المضاف في السطر الشعري، والمضاف إليه في بداية السطر الذي يليه.

ولعل أهم ما يميز الشعر العربي المعاصر هو اعتماده على المجاز بشكل كبير، واستخدام المجاز في اللغة يفتح الباب أمام التأويل وتعدد القراءات، حيث تستخدم اللفظة في غير ما وضعت له، وبالتالي ينقلها من مدلول واحد إلى عدد لا نهائي من المدلولات وهو ما يجعل الشعر يبدوا غامضا. 19

لكن إذا توقفنا عند القارئ في ظاهرة الغموض وجدناها نسبية، فما هو غامض عند قارئ ربما كان واضحا عند آخر، فإن القارئ الذي اعتاد أصواتا محددة لا يألف غيرها، ومن هنا ينشأ الغموض إذا حاول قراءة أصوات يجهل أسرارها، فقارئ الشعر المعاصر ينبغي أن يلم بالسياق الأكبر والأصغر لهذا الشعر، ولذلك لا يواجه غموضا مثل القارئ الذي يجهل أحد هذين السياقين أو كلاهما معا. 20

أن الغموض في الشعر العربي المعاصر تسببت فيه روافد كثيرة منها:

1ـ غموض الفكرة:

وهي عدم القدرة على بلورة الفكرة، وإلباسها حللا لفظية تعبيرا عنها وهذا يكون عيبا إذا عاد إلى ضعف الشاعر اللغوي والأسلوبي ويرجع أحيانا إلى عدم اقتناع الشاعر بالفكرة أو عدم وضوح رؤيتها أمامه، كما أن طبيعة التلاقح بين عوامل التجربة الخارجية والأعماق الشعورية والفكرية وقدرة اللغة الشعرية يؤدي إلى كثافة في التجربة الشعرية وبالتالي يطغى عليها الغموض.

والقصيدة الحديثة تعتمد على الرؤيا والحلم ومن ثم تتسم بالضبابية وعدم التجلي والوضوح، وتكون الرؤيا التي تمثل الصيرورة الشعرية يكسوها الظلام والغموض، ومن هنا يتسرب الغموض إلى الشعر. 21

فالشاعر المعاصر انطلق من فضاء الرؤيا والأحلام وتصوير ما يختلج في الداخل الإنساني من غرائبه وعجائبه، ولذلك خلف الشاعر القارئ وراءه يبحث عن الحقيقة وعن الاتجاه الذي ذهب فيه المعنى، وصار الشاعر يتلذذ بهذه الألعوبة ويخفي معاني نصه ضمن ألغازه ورموزه. 22

2 ـ جدية القصيدة وخروجها عن المألوف:

إن القصيدة الحديثة تصدر لها نفر من الشعراء الذين ساروا على نهج المدرسة السريالية والمدرسة الرمزية واعتمدوا الرمز ومن ثم استلهموا المذهب الغامض، وأعرضوا عن الرمز الذي يصحبه ما يدل عليه، إذن فالقصيدة الجديدة لم تنمو نموا طبيعيا، بل ولدت متكاملة وهذه الولادة ناجمة عن سياقات خارجية جعلها تبتعد عن الذوق والنموذج العربي الأصيل والمعاصر معا.

3 ـ المفارقة بين السياق القديم والجديد:

ومنها فقدان الأفكار المشتركة بين الشاعر والقارئ نظرا لهيمنة الفكر الغربي على الفكر العربي بتياراته المتعارضة والذين تصدروا لتنظيم الحداثة والإبداع، في حين كان العالم العربي في عزلة عن مفاهيمها.

وحتى الثقافة المكونة للجميع وثقافة أولئك كانت متعارضة ومتباينة في كثير من مناحيها، لذا غلب على القصيدة الجديدة ظاهرة الغموض من داخلها وخارجها.

4 ـ ندرة النماذج المتكاملة البناء:

ومنها عدم توفير النصوص وتكاثرها حتى تفرض وجودها وتثبت فنيتها، وبالتالي أصبح عمل الشعراء عبارة عن تجارب متعددة، لأن الحداثة التي ثبتت الغموض واحتضنته قوضت الضوابط الفنية من حيث الصور البلاغية، واللغة المعيارية والجرس الموسيقي وحتى المضامين العليا أرادت تحطيمها وأصبح الشعر كالنثر الفني. 23

إن الشعر في حد ذاته نشاط شعوري إنساني داخلي يصل إلى درجة التعقيد، أي أنه في طبيعته فن غامض، ففي لحظات الإبداع الشعري يكون الشاعر أمام حالة تدفق شعوري ضاغط، وما يستوحيه أو يتكون عنده من معان وأفكار، إنما يتكون في قبضة هذا الشعور المتفق الذي ينبع من أشد المراكز غموضا عند الإنسان، أي أن هناك من يتسبب في غموض الشعر وهو منبع الشعور الغامض عند الشاعر والشعور الغامض عند المتلقي.

فالشاعر يحاول أن يصوغ شعورا غامرا فياضا لا يخلو من الاختلاط وعدم وضوح الرؤية، لكن هذا الشعور النوعي لا يمكن أن يصاغ إلا في نسق أسلوبي متناسق معه، وهذا مما دفع وليام أمبسون إلى القول إن: "مكائد الغموض توجد في الشعر نفسه.."24 إذن من خلال هذا فإن الغموض طبيعة الشعر أو أن من طبيعته أن يكون غامضا، بل ليس الشعر نفسه يكون غامضا، وإنما ينتج الغموض عن الشاعر وعن المتلقي للنص الشعري.

وبالتالي فهو عمل فني مشترك يسهم فيه صاحب النص بخلاصة التجربة التي عايشها، وتسهم فيه اللغة بدلالتها الموحية، كما يسهم فيه المتلقي بخبرته الفنية وذوقه الجمالي، فالعلاقة بين هذه المحاور تشبه بناء هرميا قمته النص في لغته ومعطياته، وقاعدته الأديب والمتلقي.

إن قراءة القارئ للنص المعاصر أضحت بلا فائدة، يقرأ ولا يفهم ما يقرأ، الأمر الذي أحدث قطيعة بين الشاعر والمتلقي شلت العملية الإبداعية، وسبب ذلك غياب المرجعية الثقافية لدى المتلقي، فالنص الشعري الجديد لا يلقى للقارئ جاهزا يعرفه كل الناس، وإنما يقتصر على فئة من القراء أصحاب القدرة على التأويل. 25

وكثيرا ما يقع القارئ في حيرة من أمره ويقف عاجزا أمام حل شفرات هذا النص الشعري الجديد، وربما لا يأتي له ذلك إلا بالرجوع إلى القواميس، ولذلك يرجع البعض أن أزمة التواصل بين الشاعر والقارئ ترجع إلى إساءة بعض الشعراء في استخدام اللغة الشعرية فيصبح كلامهم غامضا غير مفهوم.

كما يتلقى القارئ النص الشعري الغامض، فيشرع في تحوير صوره وتفسيرها، إذ تتداخل المعاني مع بعضها البعض للتعبير عن معنى آخر لم يعهده القارئ في طبعه العادي، نتيجة لتبادل الكلمات والمعاني لأدوارها في السياق الذي أصبح يقدم للقارئ معاني متعددة، أي إمكانية متنوعة لأكثر من معنى، ومن هنا ينشأ الغموض.

والمشكلة التي يعانيها القارئ العادي في هذه النصوص الشعرية ظاهرة للعيان وربما كان أهم أسبابها أنه يتلقى هذا النوع من النصوص المعاصرة بأدوات قديمة الأمر الذي يصعب عليه فهم النص وتحليله. ولكن على القارئ في هذا العصر أن يحسن من أدواته وآلياته قبل مواجهة هذه النصوص التي قد تصدمه من خلال ما تخفيه وترمز إليه. 26

إن الغموض المعاصر تطور حسب التكوين الفلسفي الذي انبثق منه، فهناك الرمز التشبيهي الذي يرمز للحرية بالمرأة أو يرمز للوطن بالفتاة، وهناك الرمز التراثي، وهذا النوع هو الذي وظف الرمز من أجل الغموض ولذلك يدعوا للتأمل والتدبر لفك شفرات النصوص، فالشاعر المعاصر استخدم الرمز القديم وحاول إسقاطه على أحداثه التي يعيشها، ليقع ذلك وبدون شعور في ظاهرة الغموض.

كما أن غياب الموضوع في النص الشعري المعاصر، هو من أسباب الغموض فقد لا يفهم المتلقي عم يتحدث الشاعر ولا حتى فكرته التي يعالجها، وبذلك يكون غياب الموضوع أو الفكرة الرئيسة من النص هو غياب أبعاده الدلالية، والمتلقي في هذه الحالة يجهل ما تحيل إليه لغة النص وتصبح لغة النص معزولة عن السياق الموضوعي، وبالتالي يبقى على القارئ سوى الاجتهاد في تأويل المعاني وفق آلياته، بعد أن غاب عليه الموضوع الشعري وذلك يعني غياب حقله الدلالي. 27

وربما يغمض الموضوع في ذهن الشاعر نفسه، إما لعمقه أو لمعالجته له بالصياغة والتعبير قبل نضجه وتبلوره في ذهنه، فيكون هذا سببا في غموضه إلى درجة الغياب، يقول الشاعر محمد الفيتوري:" إذا كنت صاحب رسالة فيجب أن أوصل هذه الرسالة إلى أصحابها، ولن تصل هذه الرسالة إذا لم تكن واضحة في ذهن أو روح شاعرها، ومن هنا يحدث اللبس أو الغموض في معطيات كثير من الشعراء المعاصرين" 28. إذن هذه شهادة أحد مبدعي الشعر العربي المعاصر، التي يمكن أن تبرهن أن غياب الموضوع يعني غياب الحقل الدلالي للنص مما يؤدي إلى التباسه في ذهن صاحبه.

إن هناك شيئا آخر يقف خلف الغموض أو الإبهام في الشعر وهو التأثير على أثر الشعر بدلا من التركيز على ما يقوله ويبلغه وفكرة التركيز على التأثير تأتي واحدا من عدة اتجاهات في إطار الفكرة بين النص والمتلقي، منها اتجاه يربط بين النص وما يحدثه في المتلقي من تأثيرات جمالية، وأصحاب هذا الاتجاه يفضلون المتعة الموجودة في النص أحسن من مجرد الوصول إلى المعنى، ومنها الاتجاه الذي يربط بين النص ومضمونه وعلى هذا يكون الربط بين النص والمتلقي من خلال ما يثبته له من دلالات، وليس من خلال تأثيره الجمالي فيه، وهذا يستلزم الحضور الدلالي في النص، في حين أن الآخر يتسبب بشكل ما في الإبهام الدلالي.

ويبدو أن فكرة التأثير قد بدأت مع الرمزية التي تسعى إلى إثارة الأحاسيس الذاتية المبهمة لدى القارئ دون استهداف الفكرة الواضحة، إذ لا حاجة لفهم معنى الشعر في نظرهم، إلا الشعر المنبعث عن موسيقى الأبيات التي تؤثر في النفس تأثيرا مباشرا.

فالغموض في الشعر ليس نقيضا للبساطة، وأن الشعر المعاصر يظهر بسيطا لكنه في الوقت نفسه يتميز بالعمق، لأن البساطة الساذجة في الشعر لا يمكن أن تهزنا من أعماقنا، وهذه البساطة العميقة التي نصادفها لدى بعض الشعراء لا تجعلنا نرفض الشعر الغامض بل تجعلنا نميل إليه بطريقة أو بأخرى. لأن البساطة العميقة والغموض كلاهما شديد المماس بجوهر الشعر الأصيل، الذي يغلب عليه طابع الوضوح والسهولة، لأنه يستخدم لغة محددة الأبعاد ومنطقية، أما الشعر الجديد يغلب عليه طابع الغموض، لأن الشاعر عاد يدرك بوعي كاف طبيعة عمل، وهي أن يقول الشعر أولا، ثم يبتكر له صوره وألفاظه فيكسبه بذلك غموضا. 29

خاتمة:

إن الغموض يمكن أن يغطي كل شيء ذي أهمية أدبية، وللاطلاع على دواعي الغموض في الشعر العربي لابد من دراستها عند الشاعر والقارئ وفي النص، يمكن أن ينتج عن معنيين أو أكثر في معنى واحد يكون الشاعر قد قصده، ويمكن أن يتولد من اتحاد عدة معان بغرض توضيح حالة ذهنية خفية أو معقدة، ويمكن أن يكون الغموض في قراءة القارئ فيذهب إلى عدة دلالات في تفسيراته لما يقرأ.

وما يمكن استنتاجه أن الغموض هو ما يميز القصيدة العربية المعاصرة، التي تعبر هي الأخرى عن الإنسان المعاصر بكل ما يعيشه من أزمات وتناقضات انعكست على تجربته الشعرية، لكن لا يمكن لهذا الغموض أن يصل إلى حد غياب المعنى أو الدلالة لأنه يتسبب من جهة أخرى في غياب موضوع القصيدة وتجريدها من واقعها وخيالها، ويفقدها لذتها الفنية والأدبية التي خلقت من أجلها.

الهوامش والمراجع

1. ينظر، آليات القراءة في الشعر العربي المعاصر، خليل موسى، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق،2010، ص130.129.

2 . ينظر، الغموض والإبهام في شعر أبو تمام، سعيد شيباني، مجلة العلوم الإنسانية، العدد الحادي عشر، السنة 2004، ص 37. 38.

3. آليات القراءة في الشعر العربي المعاصر، خليل موسى، ص133.

4. ينظر، الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، ط3، ص 187.

5. ينظر، لغة الشعر العربي الحديث مقوماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية، السعيد الورقى، دار المعارف، 1983م، ط2، ص181. 182.

6. ينظر، سبعة أنماط من الغموض، وليام أمبسون، ترجمة صبري محمد حسن عبد النبي، المجلس الأعلى للثقافة، 2000م، ص 23 .

7. المرجع نفسه، ص 24.

8. آليات القراءة في الشعر العربي المعاصر، خليل موسى، ص 134.

9. ينظر، الغموض في الشعر العربي، مسعد بن عيد العطوي، مكتبة الملك فهد الوطنية، تبوك، ط2، ص165.

10. مقدمة للشعر العربي، أدونيس، دار العودة، بيروت، 1979م، ط3، ص124.

11 . المرجع نفسه، ص 126.

12. ينظر، الحداثة في الشعرية العربية المعاصرة بين الشعراء والنقاد، نادية يوذراع، جامعة الحاج لخضر،باتنة، 2007م 2008م، رسالة ماجستير،ص 92 .

13. المرجع نفسه، ص93.

14. آليات القراءة في الشعر العربي المعاصر، خليل موسى، ص 141.

15. ينظر، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، إحسان عباس، عالم المعرفة، الكويت، 1978م، ص8

16. ينظر، الشعرية العربية، أدونيس، دار الآداب، بيروت، 1989م، ط2، ص89.

17. ينظر، ظاهرة الغموض في الشعر العربي المعاصر، أمال دهنون، مجلة كلية الآداب واللغات، العدد الثاني عشر، ص 236.

18. ينظر، الشعر العربي المعاصر، عز الدين إسماعيل، ص 193.

19. ينظر، ظاهرة الغموض في الشعر العربي المعاصر، أمال دهنون، ص238.

20. ينظر، آليات القراءة في الشعر العربي المعاصر، خليل موسى، ص 156.

21. ينظر، الغموض في الشعر العربي، مسعد بن عيد العطوي، ص 168.

22. ينظر، آليات القراءة في الشعر العربي المعاصر، خليل موسى، ص 156.

23. ينظر، الغموض في الشعر العربي، مسعد بن عيد العطوي، ص 169.

24 ينظر، سبعة أنماط من الغموض، وليام أمبسون، ص 34

25. ينظر، الإبهام في شعر الحداثة، عبد الرحمن محمد القعود، عالم المعرفة، الكويت، 2002م، ص223.

26. ينظر، قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي، محمود عباس عبد الواحد، دار الفكر العربي، 1996م، ط1، ص 95.

27. ينظر، ظاهرة الغموض في الشعر العربي المعاصر، آمال دهنون، ص 235.

28. ينظر، الغموض في الشعر العربي، مسعد بن عيد العطوي، ص 217.

29. ينظر، الإبهام في شعر الحداثة، عبد الرحمن محمد القعود، مرجع سابق، ص 76.

30. ينظر، الشعر العربي المعاصر، عز الدين إسماعيل، ص193.

مظـــاهر الغمـــوض المعجـمي في التّرجمـــة الاقتصـــــادية

(الجناس اللّفظي) أنمـــوذجا

الأستاذة الباحثة: بوحفص اسمهان

-معهد الترجمة – جامعة أحمد بن بلة-1- وهران

الأستاذة المشرفة: أ.د أحلام صغور

ملخص:

لقد شغلت ظاهرة الغموض بال اللسانيين منذ القدم، حيث أرّقهم دراستها وأهمّهم الوقوف على أسبابها التي اختلفت بين غموض غير مقصود، وآخر قد تم تعمّده، ويبقى الغموض المعجمي أكثر الأنواع شيوعا. فهو يضمّ عادة غموض تعدّد المعنى، والجناس اللّفظي، ذو الاستعمال والاستغلال المختلف من نظام لغوي إلى آخر.

سوف نحاول من خلال هذا العمل، أن نتعرّف على أهمّ أنواع الغموض المعجمي والمتمثل في الجناس اللّفظي، الذي عكف على دراسته علماء اللّغة والمترجمين على حدّ سواء، والذين استعانوا في الكثير من أبحاثهم بأعمال اللّغويين الذين مهّدوا لهم الطّريق بفضل أسس نظرية متينة، التي قاموا بتوفيرها للبحث الترجمي، ممّا جعل الكفاءة اللغوية تمثّل أهمّ الكفاءات التي يحتاج إليها المترجم لدراسة هذه الظاهرة، على غرار باقي الكفاءات اللاّزمة لتحليل ظاهرة الجناس، وسوف نحاول أن نتعرّف أكثر على هذا الغموض المعجمي وآليات رفعه، فضلا عن معالجته والتعامل معه بصفة عامة، مما قد يوجب القيام بعملية بسيطة ومعقّدة في الوقت ذاته، حيث سوف نتخذ النص الاقتصادي وترجمته أنموذجا لبحثنا بغية إضفاءه صبغة تطبيقية .

الكلمات المفاتيح: الجناس اللفظي، الغموض المعجمي، الترجمة الاقتصادية، رفع الغموض، معالجة غموض الجناس اللفظي.

Abstract:

The theme of ambiguity has been addressed by many linguists since a long time, and they had a care for better to know its reasons, and its causes, which varied between what is involuntary and what is contrary premeditated.

However, the lexical ambiguity is the most common form, and it contains

generally two types, namely the polysemy and the homonymy, of which the use defers from a linguistic system to another.

In this paper, we will try to better understand the homonymy, one of the major components of lexical ambiguity, and that has been studied both by translators and linguists who offered them a solid theoretical basis, because it is certain that the study of homonymy by the translator requires as well linguists skills as translatological ones, so then, we will try to better study this lexical ambiguity, and its different mechanisms, that permit its raising, and we will tempt also, to study its treatment and the way to apprehend it generally, an exercise which can be simple and complex at a time, and our study will be applied to the model of the economic text and its translation, in order to make our approach more particle.

Key Words: homonymy- lexical ambiguity-economic translation-disambiguation-treatment of homonymic ambiguity.

مقدمـــــــة:

يتّصف الكلام عادة بالبيان والإفصاح، حتّى يتمكّن المستمع أو القارئ من التّعرّف على نيّة المتحدّث ومقصوده من دون لبس ولا إبهام. ولكنّه قد يحمل أحيانا في طيّاته عبارات توحي بغير ما أراده المتكلّم، سواء كان ذلك بقصد أم لا، بل وإن بعض المتحدّثين يتعمّدون التّلاعب بالألفاظ وحتّى الأفكار، بغية إضافات فنّية للغتهم، ويعرف هذا النّوع من التّلاعب بالحديث ب:**"الغموض"**، والذي يختلف من نظام لغوي إلى آخر، ويتّصف بتعدّد أنواعه، فهناك الغموض النّحوي والغموض الصّرفي والتّركيبي والغموض المعجمي الذي هو موضوع دراستنا.

1) مفهوم الغموض المعجمي وأنواعه:

إنّ دراسة ظاهرة الغموض من قبل المصطلحيين واللّغويين وحتّى المترجمين ليست بالدّراسة الحديثة، بل قد تناولها كلّ هؤلاء المشتغلين في حقل اللّغة الواسع منذ قرون عديدة، بالإضافة إلى غيرهم من العلماء والدّارسين الذين عكفوا على تحليلها من زوايا مختلفة. ويحدث الغموض عادة، عندما تفترض الصّيغة الواحدة عدّة تأويلات، أو كما عبّرت عنه "كاترين فوكس" «Catherine FUCHS» في أبسط تعريفاته:

« Est dite une ambigüité, une expression de la langue qui possède plusieurs significations distinctes »[1].

"يطلق الغموض على كل عبارة لغوية تحمل عدة معاني مختلفة". (ترجمتنا)

ومهما اختلفت تصنيفات ظاهرة الغموض، التي اختلفت باختلاف الأنظمة اللّغوية، وزوايا النّظر التي تُعنى بدراستها، فإنّ الغموض المعجمي يظلّ أكثر الأنواع شيوعا، وكثيرا ما يصادفه المترجم عند عمله، على غرار

اللّساني والنّاقد وجلّ المهتمين بهذه الظاهرة من غير أهل اللّغة، فيضعهم في نوع من اللّبس والحيرة.

ويمثّل تعدّد المعنى«la polysémie»، والجناس اللفظي «l'homonymie» أهم أنواع هذا النّوع من الغموض، إلى جانب باقي الأنواع التي كانت ولا تزال محلّ خلاف بين المنظّرين، مثل حالات التّرادف والتّضاد التي يرفض بعض الدّارسين ضمّها إلى المظاهر اللّغوية والجمالية أو الفنّيّة، أو على الأقلّ عدّها من بين حالات الغموض، والتي نرجو أن تكون موضوع دراسات لاحقة.

1.1- تعدد المعنى La polysémie:

يشير حلمي خليل في كتابه: "العربية والغموض"، إلى أنّ تعدّد المعنى يمثّل أهمّ أسباب الوقوع في الغموض حيث أنّ:"السّبب الأساسي لغموض الدّلالة فيما يتصل بالمفردات يرجع عنده* إلى تعدّد المعنى أو مخالفة ظاهر اللّفظ لمعناه، أو لاستخدام اللفظ الخاص في معنى العموم أو العكس أو استخدام اللّفظ الواحد للمعاني المختلفة".[2]

وقد أخذت هذه الظاهرة، حظّا وافرا عند علماء اللّغة المحدثين، حيث يربط معظمهم تعدّد المعنى بنيّة المؤلّف وقصده الذي سواء تعمد ذلك أم لا:

« L'énonciateur procède à la nomination en fonction d'un sens d'intention lequel inhibe toutes les autres valeurs possibles du polysème ».[3]

(يتفق مع القارئ أو المترجم الذي يقوم بتفضيل معنى واحد دون غيره من المعاني، ويفسّرون ذلك بحدوث نشاط ذهني وفكري يستنتج معنى معّين واحد ومنفرد عند أول وهلة على حساب باقي الاحتمالات) (ترجمتنا باقتباس الفكرة).

2.1- الجناس اللفظي L'homonymie:

أما الجناس اللّفظي فإنّه يمثّل ثاني أنواع الغموض المعجمي أهمّية وشيوعا، فيعرّفه "جورج مونان"« George MOUNIN » بأنه:

« **Homonymie Lexic**.:relation existant entre deux (ou plusieurs formes linguistiques ayant le même signifiant, mais des signifiés radicalement différents. Les formes présentant cette relation sont dites homonymes. Ex. coq, coke. L'homonymie peut dépasser le niveau du mot : elle est alors utilisé pour les jeux de mots ou calembours et les rimes : bohémien/ beau et mien, d'aout/doux (Aragon). Plus précisément, on distingue les homophones, formes ayant le même son et des sens différents (bon, bond) et les homographes, formes ayant la même graphie et des sens différents,

que le son soit semblable (cor de chasse, cor au pied) ou différent : « les poules du couvent couvent» »[4] .

"الجناس معجميا: العلاقة الموجودة بين بنيتين لغويتين فأكثر، واللّتان تعبّران عن الدّال نفسه، مع اختلاف المدلولين تماما، وتعرف مثل هذه البنيات، بالمشتركة أو المتجانسة لفظيا،مثل cocوcoke، ويمكن للجناس اللفظي أن يتجاوز مستوى الكلمة ليتم استعماله في تلاعب الكلمات وجناس التورية(calembours) مثل: bohémien/beau et mien, d'aout/doux(aragon).كما يمكن أن نميّز بين جناس الوحدات اللفظية الصوتية(homophones) حيث تعبّر الصيغ الصوتية نفسها عن معاني مختلفة، مثل (bon/bond) وجناس الوحدات اللفظية الكتابية(homographes) حيث تعبّر الصيغ المكتوبة نفسها عن معاني مختلفة، سواء كان الصوت نفسه، (cor de chasse, cor au pied)

أو مختلفا مثل « les poules du couvent couvent »"(ترجمتنا).

أما في لسان العرب، فيمكننا مصادفة القول الآتي: "كان الأَصمعي يدفع قول العامة هذا مُجانِسٌ لهذا إِذا كان من شكله، ويقول: ليس بعربي صحيح، ويقول: إِنه مولَّد. وقول المتكلمين: الأَنواع مَجْنُوسَةٌ للأَجْناسِ كلام مولَّد لأَن مثل هذا ليس من كلام العرب .وقول المتكلمين :تَجانَس الشيئان ليس بعربي أَيضاً إِنما هو توسع"[5].

ولكن لفظ التجانس الذي يبدو دخيلا على اللغة العربية، لا ينفي وجود ظاهرة "الجناس" بل إن اللّغة العربية غنية بالجناس وتعدّه من المحسّنات البديعية التي تمّ استغلالها وتوظيفها لأغراض فنية وجمالية في أكثر من موضع، خاصة في نظم الشعر باختلاف أنماطه، مثل قول الإمام الشافعي:

رأيت الناس قد مالوا إلى من عنده مالُ

ومن لا عنده مال، فعنه الناس قد مالوا.

ولعلّ كون القرآن الكريم الذي يزخر بالجناس اللفظي، قد كان سببا لاقتفاء العرب لهذا الأثر، سواء قاموا بتأليف كتب وروايات أو نظم قصائد وأشعار. وتميّز اللغة العربية بين نوعين بارزين من أنواع الجناس، أما باقي الأنواع فهي قليلة التواجد والاستعمال مثل:

"**الجناسُ التامُّ**: وهوَ مَا اتفقَ فيهِ اللَّفظانِ المتجانسانِ في أربعةِ أشياءَ، نوعِ الحروف، وعددِها، وهيئاتِها الحاصلةِ منَ الحركاتِ والسكناتِ، وترتيبِها مع اختلافِ المعنَى، كقولِهِ – تَعَالَى –: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾.

الجناسُ غيرُ التامّ: هُوَ مَا اختلفَ فيه اللفظانِ فِي واحدٍ مِنَ الأمور الأربعةِ السَّابقةِ الَّتي يَجبُ توافرُها فِي الجناسِ التامِّ وهِيَ: نوعُ الحروفِ، وعددُها، وهيئاتُها الحاصلةُ من الحركاتِ والسكناتِ، وترتيبُها مع اختلافِ المعنَى، كقولِ اللهِ – تَعَالَى –: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾[6]

أمّا بالنسبة للّغة الفرنسية، فيبدو أن ظاهرة الجناس اللفظي تشكّل إحدى خصائص اللّغة نفسها، كما أشارت إلى ذلك "جاكيموفسكا سفلتانا" « Jakimovska SVETLANA »:

« Il est à noter que le français est plus incliné à ce phénomène que les langues slaves et c'est une des raisons pour lesquelles le français est difficile pour les étudiants. La langue dispose de certains instruments pour éviter l'homonymie et l'ambiguïté. En français ce sont parfois le genre le poste/la poste, puis la différente prononciation il fait/le fait de même que l'utilisation de certains accents dû/du ; la/là etc.»[7].

"يبدو بأن اللغة الفرنسية تميل إلى هذه الظاهرة أكثر من غيرها، مثل اللّغات السّلافية*، ممّا قد يمثّل أهمّ أسباب تعذّر تعلّم اللغة الفرنسية عند الطّلبة. ومن بين الأدوات التي تساعد على تفادي الجناس اللفظي وحالات الغموض، نجد ضمائر تحديد النوع مثل le/la poste، والنطق المختلفil fait/le fait، وأيضا استعمال بعض النبرات (accent) مثل dû/duو là/ la.." (ترجمتنا). وعلى الرغم من تفاوت اللّغات فيما بينها في استغلال الجناس وفي طبيعة تواجده، فإنه يبقى سببا لحدوث الغموض، وقد يحدث أيضا، من دون قصد المتحدّث أو الكاتب، على غرار باقي حالات الغموض والإبهام التي لا تخلو أي لغة منها. فاللّغة الفرنسية كما سبق ذكر ذلك، غنيّة جدّا بهذه الظاهرة، مع أن بعض علماء اللغة، يرون بأنها ليست سوى "حادثة الخطاب"، un accident* du discours ، كما أكّدت "فوكس" ذلك:

«L'ambigüiité est due à la collision accidentelle entre les formes de deux signes linguistiques distincts. C'est ce qui se passe, par exemple, avec so/bière, on dit alors qu'il s'agit d'expressions homonymes, qui peuvent être soit simplement homophones (comme le sont sot, saut, seau) soit homophones et homographes (comme le **sont bière** « **boisson** » **et la bière** « **cercueil** »[8].

"يمكننا الحديث عن الغموض إثر وقوع تصادم عرضي ما بين وحدتين لغويتين مختلفتين. فهذا ما حدث على سبيل المثال بالنسبة ل so/bière ، حيث تمثل كل تلك العبارات وحدات معجمية تشكا جناسا، والتي قد تكون عبارة عن وحدات معجمية قد مثّلت جناسا صوتيا فقط مثل (sot, saut, seau)، أو وحدات معجمية أخرى قد شكلت جناسا صوتيا و كتابيا في الوقت ذاته مثل، (bière التي تدل على المشروب أو bière التي تدل على تابوت الميت" (ترجمتنا) .

في حين، يبقى توظيف هذا "**الحدث العارض**" لأغراض فنّية وارد بكثرة، وفي مجالات عديدة، مثل عالم الإعلانات والإشهار الذي يزخر به، و يستخدمه كأداة إقناع، وإستراتيجية تسويقية: نذكر على سبيل المثال جناسا كتابيا في العبارة: **Demandez MON€O**[9] حيث تم استبدال الحرف **E** بصفة مقصودة برمز عملة "اليورو"، وهو عبارة عن خطاب لاواعي يحثّ المستهلكين على الشراء وإنفاق المال، بصفة ملتوية وإستراتيجية تسويقية "مقصودة" ، حيث أنّ **MONEO** عبارة عن علامة تجارية لبطاقة بنكية.أو العبارة: " **Do mi si la do ré sur de nombreux pavillons de banlieue**"[10].

أين تمّ تغيير الكتابة الأصلية للعلامة التجارية " **domicile adoré**"التي تعني "السكن المفضّل"، إلى كتابة أخرى باستعمال فراغات بين المقاطع اللفظية(**syllabe**) لتتغير القراءة إلى أحرف الموسيقى: **Do**, **ré**, **mi**, **fa** , **sol**.. فينتج عن ذلك خطابا اشهاريا فريدا وشيّقا، وبالتالي فعّالا، وسببه ليس سوى استعمالا ذكيا ل"جناس كتابي".

2)التعرف على الغموض المعجمي وتأكيد وجوده:

1.2- التعرف على الغموض المعجمي:

لقد قام عديد من اللّسانيين المعاصرين بدراسة ظاهرة الجناس وفق مناهج ومقاربات مختلفة، فتذكر "فوكس" في كتابها "غموض اللغة الفرنسية"، بأن إقرار وجود غموض ما، يقتضي القيام بعملية تحليل مسبقا، فيتمّ التعرف إذن على الغموض المعجمي من خلال القيام بعملية التفكيك والتقطيع التي يتم من خلالها تحديد نوع الغموض، سواء كان ذلك بسبب تعدد المعنى أو الجناس اللفظي، ويبدو أيضا، بأن لعملية التحليل على المستوى المعجمي والدلالي أهمية قصوى، حيث يكون ذلك التحليل مرحلة تمهيدية لعملية معالجة الغموض، أي أنه يكون معجميا في حال وجود غموض معجمي، أو تحليلا أو تركيبيا أو صوتيا أو نحويا..

1.1.2- التحليل المعجمي:

يبدو إذن في ضوء ما تمّ ذكره، بأنّ عملية التحليل ضرورية للتمكّن من معالجة أي غموض يعترض القارئ أو المترجم، أو على الأقل التمكن من تحديد نوعه وماهيته، حتّى يتسنى التعامل معه، فإذا كانت هذه الخطوة مهمّة بالنسبة لنصوص اللّغة العادية، فهي من دون أدنى شك تحمل أبعادا أوسع بالنسبة للنّصوص المتخصّصة التي تضمّ مصطلحات تتغيّر دلالتها من ميدان إلى آخر، فالتحليل المعجمي على سبيل المثال للفظ "**جدول**" يساعد على تحديد انتمائه إلى ميادين متعددة، و تعبيره على دلالات مختلفة، بين ميدان عام وآخر اقتصادي وآخر رياضي، على غرار المصطلحات: "كشف" و"حساب" و"الطاقة" و"المحصول" ...

وتذكر "فوكس" في السياق ذاته، بأن عملية التحليل المعجمي على غرار باقي عمليات التحليل بالنسبة لباقي المستويات (التركيبي، النحوي، الصوتي...)، كفيلة بتأكيد وجود غموض معجمي أم لا، حيث تقول:

« On retrouve donc, au niveau de l'analyse lexicale d'une part, des problèmes de segmentation : pour comprendre le message, il faut savoir distinguer les unités lexicales, complexes, et d'autres parts des problèmes de caractérisation en cas d'unités lexicales homonymes, il faut pouvoir reconnaitre à quelle unité on a affaire, et en cas de polysémie, il faut être en mesure de déterminer quel est le sens de l'unité dans le contexte particulier ou elle se trouve employée».[11]

" يمكننا إذن أن نصادف صعوبات عند القيام بالتحليل المعجمي، وذلك عند القيام بالتقطيع حيث أن عملية الفهم تقتضي التمييز بين الوحدات المعجمية المعقّدة من جهة، وبين صعوبات التمييز بين الوحدات معجمية التي تدل على الجناس حيث يتم تحديد الوحدة بصفة دقيقة، أما عند مصادفة حالات تعدد المعنى فإن الصعوبة تكمن في تحديد المعنى الذي يعبر عن وحدة معجمية ما، ضمن سياق معين." (ترجمتنا).

وتواصل "فوكس" حديثها عن التحليل المعجمي بأنه مرتبط أيضا بالقناة التواصلية التي تحدّد الخطاب، ففي حالات الخطاب الشفهي تكون النّبرات عبارة عن المؤشّر(indice) الذي يساعد في عملية التقطيع إلى وحدات معجمية منفصلة، مثل:

Devant la faire/l'affaire- Passe moi la fiche/l'affiche ,[12] -

أما في حالات الكتابة فتشير فوكس إلى أن غموض "الجناس بين الوحدات /المقاطع"* المعجمية، يحتمل تأويلات عديدة، وعادة ما يكون الاحتمال الأرجح هو أولى الاحتمالات التي تتبادر إلى الأذهان في حين تنفي العودة إلى السياق وجودها تماما.

2.1.2– السيـــاق:

يرى "حلمي خليل" أيضا، بأنّ العودة إلى السياق قد تنفي تماما وجود الغموض، لاسيما في حالة الغموض المعجمي: "وقد يحدث اللبس أو الغموض في بعض الكلمات فيظن أنها من المشترك اللفظي أو تعدّد المعنى، وهي ليست كذلك، والحكم في مثل هذه الحالات للسياق. وبذلك نستطيع أن نحدد الفرق بين تعدد المعنى والمشترك اللفظي بالنظر إلى الصيغة أو السياق أو الاشتقاق أحيانا، وذلك قبل القول بأن هذه الكلمة أو تلك من قبيل الاشتراك اللفظي أو تعدد المعنى"[13].

ومن بين العلماء المعاصرين الذين اهتموا بدراسة الغموض بصفة عامة والغموض المعجمي بصفة خاصة نجد أيضا، العالم الهولندي "رونالد لانديير" « Ronald LANDHEER » الذي كرّس معظم أبحاثه لدراسة ظاهرة الغموض، و قد اقترح ثلاث تصنيفات يفصل بينها بوجود السياق أيضا، حيث يقول:

« Contrairement à Catherine FUCHS (1996 :13), qui parle seulement d'ambigüité s'il est question d'une « alternative entre plusieurs significations mutuellement exclusives associées à une même forme », nous considérons aussi comme ambigus des énoncés qui présentent un cumul de deux ou plusieurs significations »[14].

"على عكس ما تراه فوكس (1996:13) عندما حصرت الغموض في "ضرورة الاختيار بين دلالات مختلفة تعبّر عن البنية نفسها، والتي تنفي كل منها الأخرى بصفة قطعية، فإننا نرى بأن الغموض يقع أيضا عندما يحدث تراكم لدلالتين أو أكثر ضمن خطاب ما" (ترجمتنا)

ويضيف قائلا:

« Nous proposons ainsi de faire une distinction entre l'ambigüité sélective (où il faut effectivement faire un choix entre deux ou plusieurs lectures incompatibles : i.e. L'ambigüité au sens strict de Fuchs, il est alors question d'une bifurcation de sens), et l'ambigüité cumulative (où il est question d'un dédoublement de sens : deux ou plusieurs sens s'imposent à la fois, Il y'a encore un troisième type d'ambigüité, que nous appellerons allusive : il ya une lecture dominante, intellectuellement 'correcte', et une autre lecture qui ne s'ajoute qu'allusivement. ».[15]

"بالتالي فإننا ندعو إلى التمييز من جهة بين الغموض الانتقائي (حيث يكون من الضروري القيام بخيار واحد من بين تأويلين متناقضين فأكثر، وهو ما يعبّر عن التعريف الصارم الذي تقترحه فوكس أي وجود ازدواجية للمعنى) وبين الغموض التراكمي من جهة أخرى، حيث يكون المعنى مزدوجا على الرغم من أن المعاني المختلفة واردة في آن واحد، وهناك نوع ثالث من الغموض والذي سوف نطلق عليه اسم "الغموض غير المصرح به"، والذي يتجلى من خلال تأويل سليم يسيطر على تأويل آخر والذي لا يرد إلا بصفة ضمنية"" (ترجمتنا)

كما تشير"سوزانا راكوفا" «Zuzana RAKOVA

»في مؤلفها:"النظريات الترجمية" بخصوص السياق:

« La distinction entre le texte, le cotexte et le contexte : le premier désigne les signes verbaux à traduire ; le deuxième, l'environnement immédiat de ces signes ; le troisième,

l´arrière-plan socioculturel dans lequel s´inscrit l´ensemble »[16]

"يجب التمييز بين النص والمناص (ترجمة cotexte) والسياق: حيث يدل الأول على الرموز المراد ترجمتها، والثاني على المحيط الحالي لتلك الرموز، في حين يمثل الثالث الخلفية الاجتماعية–الثقافية التي تدل على الكل" (ترجمتنا).

أي أن عملية الترجمة في وجود غموض ما، تحتاج إلى التمكن على صعيد أول من النص الذي يضمّ وحدات معجمية ودلالية قد تبدو غامضة، ثم فكّ ذلك الغموض بمجرد العودة إلى المناص على مستوى ثان الذي يشبه السياق الداخلي. أي إذا تعذر فك الغموض في مثل هذه الحالة فيمكن للمترجم العودة إلى السياق الخارجي أو العام أو العالم المحيط بالنص كما عبّر عنه"أومبرتو إيكو" « Umberto ECO »:

« Une traduction ne dépend pas du seul contexte linguistique, mais aussi de quelque chose qui est en dehors du texte, et que nous appellerons information sur le monde, ou information encyclopédique »[17]

"لا تتعلق الترجمة بالسياق اللغوي فحسب، بل بأمور خارجة عن النص وهي "المعلومات حول العالم"، "المعلومات الموسوعاتية" (ترجمتنا). والذي قد يكون موسوعة، أو مجلة أو رجل قانون أو اقتصاد؛ أي في معظم الحالات الاستعانة بعملية بحث توثيقي. كما يعرّف البعض الآخر هذا العالم، ب"السياق الخارجي".

1.2.1.2– السياق الخارجي:

يشير "المهدي ابراهيم الغويل" في دراسته الأسلوبية للسياق وأثره في المعنى إلى: "أن السياق يمثل خلفية للقول تجعله يفهم بمقتضاها، فكل كلمة، أو جملة توضع في إطار أو نسق معين يعتبر هذا الإطار أو النسق سياقا لها، فالكلمة المفردة لها سياقها، والتركيب له سياقه، والنص له سياقه، وكل هذه السياقات تتشابك لتنضوي تحت السياق العام للنص فالجنس الأدبي يشكل سياقا للنص الأدبي المتفرع عنه النص بطبيعته يخضع للسياق الثقافي الذي يحتويه بكل ما فيه من أعراف و تقاليد، ولهذا فإن عالم النص الأدبي، وما يحيط به يشكل سياقا جديدا يجعل المعاني تختلف عن المعاني الموجودة في المعجم"[18]. ويمثل إذن هذا السياق العام للنص أو ما يعرف بالسياق الخارجي كل تلك العوامل التي تحد النص، وتجعله ينتمي إلى نوع ما من النصوص، أو ما عبّر عنه الكاتب في هذا الموضع بجنس النص، ويمكننا أن نقيس هذا الكلام على باقي النصوص مثل المتخصصة منها عامة والنصوص الاقتصادية على وجه أخص. ويبدو بأن السياق، يمثل تلك المساحة التي تمنح للمفردة مجالا تتحرك فيه بحرية أكثر، بعد أن كانت حبيسة المعجم أو القاموس، وكلما اتسعت تلك المساحة، اتسع السياق وأصبح للّفظ إطار يتجسد من خلاله. وإذا كان السياق كمفهوم قد عرف منذ القدم، فإنه قد أخذ من دون شك أبعادا أوسع في الدراسات الحديثة، خاصة بعد تفرّع الاختصاصات

وظهور اللّغات المتخصصة، حيث يتم توظيف اللفظ الواحد في مجالات متعددة ما بين اللغة العادية أو المتداولة والمجالات المجاورة لذلك، ولا يمكن لهذا الانتقال أن يتمّ إلاّ ضمن سياق محدد، ويقول أيضا "د. المهدي إبراهيم الغويل" في هذا الصدد: "قد أولت الدراسات الحديثة وبخاصة عند علماء اللغة الغربيين اهتماما خاصا بالسياق. فقد عرفت مدرسة لندن ما يسمى المنهج السياقي أو المنهج العملي وكان زعيم هذا الاتجاه فيرت (FIRTH) ت1960ف الذي تبلور اتجاهه فيما عرف باسم النظرية السياقية، ومن ضمن ما أكّد عليه فيرت في هذه النظرية قوله:" بأن المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية، أي وضعها في سياقات مختلفة، فالمعنى عنده باعتباره وظيفة في سياق"[19].

وإذا كان السياق يمثل الحيز الاجتماعي أو التاريخي أو الثقافي للنص، و الذي يشكل عنصرا أساسيا بالنسبة للفهم والتحليل لدى المتلقي أو اللساني، فإن هذا السياق عبارة عن عنصر جوهري بالنسبة لعمل المترجم إذ أن معرفة طبيعة النص ونوعه وحيّزه، تعدّ المفتاح الذي يتوفّر لدى المترجم قبل ولوج خبايا النص وطلاسمه، حيث يقوم بفتح باب معين ودخول عالم محدد دون باقي العوالم، فلا يسعى إلى فهم المصطلحات ضمن ما تقتضيه قوانين الخطاب السياسي أو القانوني، بل الاقتصادي أو الاشهاري على سبيل المثال، فيتمكّن بذلك من تقليص مجال بحثه، وكسب وقت ثمين، فيتجنب شتات الأفكار الذي يعرقل العملية الترجمية على غرار أي جهد فكري أو إنجاز علمي تضبطه آجال والتزامات محددة. كما يضمّ السياق الخارجي أو غير اللساني كل تلك المعلومات غير اللّسانية المحيطة بالنص والتي تساعد على الفهم حتى تتيسّر عملية النقل.

2.2.1.2– السياق الداخلي:

أما بالنسبة للسياق الدّاخلي، فمن المؤكد أنه يدل في مفهومه الواسع على نفس ما تدلّ عليه لغة التخصص من مصطلحات متخصصة وعبارات جاهزة واستخدامات معينة أيضا للّغة المتداولة، مثل ما هو الشأن بالنسبة للّغة الاقتصادية التي تعرف باتصافها ب"الحيوية" في عباراتها مثل عبارات: الدولار يتعافى، تدهور القيمة، حدوث شراكة زوجية، فك الرابطة الزوجية بين الشركتين، المعاناة والانزعاج من السمعة التي آلت إليها، رد الاعتبار، فقدان الثقة، حدوث طلاق بالتراض، العودة بعد فترة النقاهة. وعن دور السياق الداخلي أو المناص بالنسبة لعمل مترجم النصوص الاقتصادية، فقد تحدّثت "جاكلين برسوبوا" « Jacqueline PERCEBOIS » عن المصطلح الانجليزي policy فتقول:

« Le terme policy présente des difficultés de traduction récurrentes en contexte économique, difficultés qui trouveront diverses solutions, telles que l'adjonction d'un adjectif en français après identification du contexte précis ; ainsi, en fonction de son insertion dans la phrase, policy decision pourra se traduire

par « décision de politique économique / environnementale / financière », etc., mais aussi par « décision stratégique » (entreprises, management) ou encore « décision de principe » (administration publique), tandis que policy instrument pourra se rendre par « instrument d'intervention » ou « instrument stratégique ».[20]

"بأنه يشكّل صعوبات بالنسبة للمترجم، خاصة بالنسبة لميدان الاقتصاد، وبأنه يمكن تجاوز تلك الصعوبات بإتباع حلول مختلفة، مثل ضم اسم منعوت باللغة الفرنسية بعد التعرف على السياق الدقيق، وبالتالي يمكن ترجمة

policy decision ب décision de politique économique (قرار سياسة اقتصادية/بيئية/مالية) أو

ويتم اقتراح المكافئ "أداة تدخل" أو "أداة إستراتيجية" بالنسبة ل

policy instrument « instrument d'intervention » ou « instrument stratégique » "(ترجمتنا)

وعليه، يمثل السياق "الركيزة" التي يلجأ إليها المترجم لتجاوز حالات الغموض التي قد تعترضه، ويبدو بأن "حسن استغلال" تلك الأداة، يكمن في "الاستغلال الديناميكي" لها، حيث لن تكون نظرة المترجم وفق أبعاد سطحية لغوية فحسب، بل وفق نظرة أخرى متسعة الآفاق أيضا، فيكون تحليل المترجم عميقا، حتى يتمكّن من تقديم عمل ترجمي بدرجة العمق نفسها.

وقد أولت الدراسة اللغوية والأسلوبية لظاهرة الغموض، عنصر السياق الأهمية القصوى سواء في رفع هذا الغموض أو نفي وجوده، وأصبح يمثل الفيصل الذي يستعين به الباحث والدارس، سواء كان حقل اشتغاله اللغة أم الترجمة، بل وقد شكّل **العلّة** التي فسّر من خلالها علماء اللغة النفسانيين والاجتماعيين وجود ظاهرة الغموض، واستغلالها فنيا لأغراض شتّى.

وبالتالي، فإن الغموض المعجمي قد اقترن عند عديد من اللّغويين بطبيعة السياق الذي يحدّه، ويعدّه أغلبهم، العنصر الجوهري الذي يصنّف على أساسه الغموض عامة، والغموض المعجمي على وجه أخص، ومن بين هؤلاء المنظرين اقترحت "كاترين فوكس" التصنيفين التاليين، واللذين تبنّاهما عديد من المنظّرين، على الرغم من انتقادهم لوجهة نظرها اللّسانية البحتة، التي أهملت أحيانا طبيعة الخطاب "المصفيّة"(réducteur)لبعض حالات الغموض، ومن بينهم"مارك بونوم" Marc BONHOMME »الذي يقول:

« Les zones du langage porteuses d'ambigüité et nullement envisagées comme figurales par les analystes sont en effet légion. Par exemple l'ouvrage de C.FUCHS consacré

aux ambigüités du français (1996) n'aborde pratiquement pas la question de l'équivocité des figures du discours »[21].

"يزخر الكلام بالمقاطع الخطابية التي تحمل في طيّاتها غموضا، والتي يغفل عنها عادة الدارسين، فمؤلَف فووكس على سبيل المثال،"غموض اللغة الفرنسية"، يكاد يخلو من أي اهتمام بقضية التباس الخطاب" (ترجمتنا).

2.2- تصنيف الغموض:

تميز "كاترين فوكس" بين نوعين من الغموض، يمثل "السياق" النقطة التي تفصل بينهما، حيث يدلّ الغموض المفترض على غموض يمكن تجاوزه بالعودة إلى السياق، إذ تقول:

« L'ambigüité ne peut se définir qu'à contexte explicite : il est bien connu en effet qu'une ambigüité que l'on épingle comme effective dans un contexte donné, de taille limitée, est susceptible de disparaitre si l'on augmente la taille du contexte »[22]

"لا يمكن تحديد الغموض إلا ضمن سياق واضح: حيث أنه من المعروف بأن ما قد يبدو غموضا نافذا وفق سياق ما، ذو بعد محدّد، يمكنه أن يختفي إذا ما قمنا بتوسيع مساحة السياق "(ترجمتنا)

1.2.2- الغموض المفترض:

في ضوء التصنيف الذي اقترحته "فوكس" للغموض يمكننا أن نقترح المثال الآتي:" تمّت عملية الإنقاذ بفضل الحصان الأبيض"، فقد تبدو العبارة غامضة، فما الوضع الذي أنقذه هذا الحصان؟ وكيف أمكنه ذلك؟ أمّا عند توسيع"دائرة السياق" فنجد عبارة أخرى: " تمت عملية الإنقاذ بفضل الحصان الأبيض، الذي شارك في عملية المزاد العلني، حيث قام بتمثيل شركة ENSBTP"، فمن خلال عملية توسيع السياق، يتضح بأن "الحصان الأبيض" عبارة عن شركة تدلّ ضمن السياق الاقتصادي على شركة تقوم بدور إغاثة شركة أخرى، بعد أن كانت عرضة للبيع التعسفي، حيث يقوم الحصان الأبيض بإفشال العملية بعرض شراء آخر" [23]. وبعملية توسيع السياق تلك، يصبح الغموض مفترضا وخياليا واردا ضمن عبارة منعزلة، ويختفي بمجرد العودة إلى السياق السليم وضمن الخطاب "المتخصص".

2.2.2- الغموض النافذ:

بعكس حالات الغموض المفترض والخيالي*، فإن الغموض النافذ، يحدث عادة عندما لا تكفي عملية توسيع دائرة السياق، ويظلّ الغموض واردا، على الرغم من ذلك التوسيع:" تمت عملية الإنقاذ بفضل الحصان الأبيض الذي تم تسجيله لآخر لحظة". في هذه الحالة تمّ توسيع السياق بإضافة العبارة: "الذي تم تسجيله لآخر لحظة "، ولكن ذلك لم يساعد في اختيار"المعنى الملائم"، ويبقى احتمال وجود المعنيين المختلفين بين الحصان الأبيض الذي قد يشارك ضمن مسابقة الفروسية، والمعنى

الاقتصادي واردا، وبالتالي يتأكد الغموض المعجمي، ويصبح نافذا ومؤكدا غير محتملا ولا خياليا.

ويتضح إذن، من خلال التعرّف على أهمية السياق في التعامل مع حالات الجناس، بأن التمييز بين تلك الحالات المتعددة وبين تعدد المعنى ليس بالأمر الهين، خاصة بين الجناس التام وتعدد المعنى.

3) بين تعدد المعنى والجناس اللفظي:

يمكن إذن لعملية التحليل الأولية، أن تكون حريَّة بتحديد نوع الغموض المعجمي وماهيته، ولكن الاستعمالات اليومية للّغة تؤكد غير ذلك، و غالبا ما تظهر للعيان بعض الأمثلة للغة العادية والمتخصصة على حد سواء "تعقيدات" تخصّ الغموض المعجمي بنوعيه "تعدد المعنى والجناس اللفظي"، وتعرف عادة بـ"غموض الغموض" التي تتجلّى من خلال "الخلط" الذي قد يقع بين الظاهرتين، حيث نجد أن العرب على سبيل المثال، قد استعملوا لفظا آخر منذ القدم وهو "الاشتراك اللفظي" الذي عبّر في بعض الحالات عن تعدد المعنى، وتارة عن الجناس بمختلف أنواعه، وتارة أخرى تمّ استعماله للتعبير عن الظاهرتين معا.

وعن الخلاف بين العرب القدامى والمحدثين في تحقيق الفرق بين "المشترك اللفظي" يقول حلمي خليل: "يبدو أن الخلاف بين القدماء والمحدثين في تحقيق الفرق بين المشترك اللفظي Homonymy وتعدد المعنى Polysemy يتّصل بمفهوم الكلمة عندهم لأن المصطلحيين يشيران إلى دلالة كلمة واحدة على مدلولين، وعلى ذلك فإن المشترك اللفظي ليس اختلاف الدلالة في إطار الكلمة نفسها، بل هو وجود دلالتين أو أكثر لكلمتين أو عدة كلمات، لأن لكل كلمة صيغة دالة على معنى، فإذا تنوعت الصيغ و اختلفت تعددت الكلمات و بالمثل، لو تنوعت الدلالات وتعددت الصيغ فإن هذا يعني أن صيغة لغوية واحدة لها أكثر من دلالتين، إحداهما تتمثل في المعنى المباشر والأخرى التي حدثت عن طريق التطور الدلالي أو المجاز"[24]

وللتمييز بين الظاهرتين، ولتفادي ما عرف بـ"غموض الغموض" فقد تم وضع بعض المعايير من قبل العلماء كما أشارت إلى ذلك "فوكس" حيث اقترحت ثلاثة معايير تساعد على التمييز بين الظاهرتين، فتقول:

« On invoque classiquement trois ordres de critères pour distinguer l'homonymie de la polysémie : des critères diachroniques, des critères synchroniques, d'ordre théorique et des critères synchroniques d'ordre « épi-linguistique » (c'est-à-dire ayant trait à la façon non théorisée dont les locuteurs réagissent spontanément à la langue ».[25]

"يمكن عادة، التمييز بين الجناس اللفظي وتعدد المعنى وفق ثلاثة معايير: معايير تعاقبية، ومعايير تزامنية، ذات بعد نظري، ومعايير آنية ذات بعد "فوق-لساني" (أي أنها تركز على البعد غير النظري، وتهتم بالسلوك العفوي للمتحدثين) (ترجمتنا).

1.3- الفرق بين الجناس اللفظي وتعدد المعنى من وجهة نظر تعاقبية:

تشير كاترين فوكس إلى أنه يمكن التمييز بين وحدتين معجميتين تحملان معنيين مختلفين، وبين وجود جناس بين وحدتين معجميتين، من خلال القيام بعملية مقارنة، تتمثل في دراسة التطور الدلالي عبر الزمن(التاريخ) وتقول:

« Du point de vue diachronique, les termes homonymes ont des étymologies distinctes…en revanche les différentes significations d'un polysème, si diverses soient-elles, correspondent toutes à une seule et même unité d'origine »[26].

"تحمل المصطلحات التي تشكل جناسا لفظيا، من وجهة النظر الألسنية التعاقبية أصولا اشتقاقية مختلفة، في حين تتقاطع جميع الدلالات المختلفة لـ "المعنى المتعدد الواحد" (polysème) في معنى أصلي واحدا، وذلك مهما تعددت استعمالاته عبر الزمن" (ترجمتنا). وقد ضربت مثالا لذلك باللفظ conseil في اللغة الفرنسية التي يعني النصيحة، والمعنى الآخر الذي يدل على "الاجتماع من أجل المداولة"، حيث تعود أصول الكلمتين إلى اللغة اللاتينية consilium، وذلك على الرغم من تطور الدلالتين. وبين جناس اللفظين avocat الذي يدل على المحامي والذي تعود أصول استعماله إلى اللغة اللاتينية advocatus، وبين اللفظ avocat الذي يدلّ على أحد أنواع الفواكه والذي تعود أصوله إلى اللغة الاسبانية: avocado[27]. حيث تظهر الدراسة الايتيمولوجية بأنهما مختلفين تماما، على عكس حالة تعدد المعنى.

فإذا حاولنا إسقاط وجهة النظر تلك، على المصطلح الاقتصادي "**العملة** "[28]:

فإننا سوف نجد أن المصطلح يملك معان متعددة، فقد دلّ اللفظ بضم العين: "عُملة"، وجمعه: عُملات/عُمْلات بضم الميم أو تسكينها، على "أجرة العامل" أما المعنى المتداول حاليا، فهو العملة النقدية التي ترمز إلى الدولار أو الدينار...، ويكون إذن هذا "المعنى المتقارب" للّفظين، دليلا ومؤشّرا على كونهما من قبيل "البوليسيميا" أي تعدد المعنى.

في حين تبين الدراسة الايتيمولوجية لمصطلح "الدين"[29] على وجود "فعلين مختلفين"، فالأول باستخدام الشدة "ديّن "، يدل على أقرض، أما "الدين" الذي يرتبط بالمصدر" دان"، فإنه يرمز إلى معنى مغاير تماما للمعنى الأول، وهو الملّة والانتماء الايديولوجي. ويكون ذلك دليلا على أن "الدين" يحتمل جناسا وليس تعددا للمعاني.

2.3- الفرق بين الجناس اللفظي وتعدد المعنى من وجهة نظر آنية:

أما عن الدراسة الآنية التي قد تشكل معيارا للتفرقة بين الظاهرتين فتقول "فوكس":

« Du point de vue théorique en synchronie, on parle de plusieurs unités homonymes lorsque les

représentations sémantiques que l'on construit pour rendre compte des différentes significations sont totalement disjointes…on parle en revanche d'un polysème lorsque l'on est capable de représenter la parenté des significations, en terme de sens communs ».[30]

"يمكن الحديث نظريا من خلال بعد زمني تزامني عن عدة وحدات تشكل جناسا لفظيا، عندما تكون التصورات الدلالية التي نبنيها للتعبير عن عدة دلالات مختلفة تماما، في حين نتحدث عن "معنى متعدد" عندما نستطيع تحديد التقارب بين الدلالات" (ترجمتنا). يمكننا أن نضرب مثلا لذلك من خلال غياب معنى مشترك بين "الصمم"، الذي يعبر عن فقدان حاسة السمع و"صمّم" أي من "التصميم" الذي يدل على التخطيط قصد البناء. وفي المقابل بين "الحبل" الذي يساعد على عملية الشدّ و"الحبل السّري" الذي يشد الجنين إلى أمّه، وبالتالي تأكيد ما قالته فوكس، حيث يبدو أن هذين المعياران يحملان أهمية فائقة من أجل التمييز بين الظاهرتين.

3.3- الفرق بين الجناس اللفظي وتعدد المعنى وفق معايير آنية ذات بعد "فوق-لساني":

تواصل فوكس حديثها بذكر معيار ثالث وأخير:

« Du point de vue épi-linguistique en synchronie, sont traitées, de fait comme des homonymes les formes dont les sujets parlants s'accordent spontanément à considérer les significations correspondantes comme étrangères les unes aux autres : ainsi pour a plupart des locuteurs francophones, la glace « eau congelée » n'a rien à voir avec la glace « plaque de verre»[31].

"يمكن معالجة وحدات معجمية على أنها تشكل جناسا لفظيا، من وجهة نظر فوق-لسانية تعاقبية، إذا ما تم اتفاق المتحدثين بطريقة عفوية على دلالاتها المختلفة، بأنها متباينة فيما بينها، فعلى سبيل المثال glace eau "congelée, glace plaque de verre (ترجمتنا).وتصبح إذن، الاستعانة في مثل هذه الحالة بمعلومات غير لسانية كفيلة بضبط المصطلح الدقيق والاستعمال المحدّد فيتفادى المترجم الوقوع في الغموض أو اللبس، وكثيرا ما تكون الدراية الكافية بالعبارات الجاهزة والاستعانة بمعاجم متخصصة كفيلة بلمّ شتات الباحث والمترجم، وسدّ ثغرات العملية الترجمية، خاصة عندما تعترضه صعوبات ذات أبعاد معجمية، حيث يصبح البحث التوثيقي من دون شك الأداة و الركيزة الأمثل والأنسب من خلال تجلياته المتنوعة والمتشعبة.

ونلاحظ إذن من خلال الأمثلة التي أوردناها بأن المعايير التي اقترحتها "فوكس" تكتسب أهمية فائقة ليس بالنسبة للّغة الفرنسية فحسب، بل بالنسبة للغة العربية أيضا، على

الرغم من اختلاف هاذين النظامين اللغويين، ويمكننا أيضا أن نتأكد من فاعليتها بالنسبة للمصطلحات المتخصّصة، ممّا يجعلها من دون شك أداة ترجمية ثمينة.

4)ترجمة الجناس اللفظي في النصوص الاقتصادية:

يتضح إذن، من خلال ما رأيناه، بأن عملية معالجة الغموض بمختلف أنواعه أمر نسبي بالنسبة للمترجم أكثر ممّا هو بالنسبة للّساني، فبينما يستعين أهل اللغة بأدوات مختلفة لفكّ الغموض الذي يعترضهم، يبقى المترجم مقيّدا بأمور أخرى أهمّها أخلاقية مهنته وأمانة النقل التي كثيرا ما تمثّل صعوبة أخرى إلى جانب تلك الصعوبات التي يواجهها، مثل حالات الغموض، والتي تفرضها من دون شك ميادين التخصص بشكل ملحّ أكثر، فيتحتّم على المترجم التمكّن من المصطلح والمعنى الدقيق الذي تفرضه اللغة المتخصصة (قانونية كانت أم طبية أم اقتصادية...) . وإذا كانت اللغات المتخصصة تشترك في تحرّيها الدّقة والوضوح والإيجاز، فإنها تختلف أيضا في انفرادها بمصطلحات متخصصة وخصائص أخرى تتباين من لغة إلى أخرى، فلغة القانون على سبيل المثال، تتميّز باستخدامها للعبارات الجاهزة أكثر من المصطلحات المتخصّصة في حد ذاتها، في حين تتميز العلوم الرياضية بالرموز والأرقام أكثر من غيرها. أما لغة الاقتصاد فإنها تكاد تعبّر عن عالم بأكمله، متّسع باتساع مجالات الاقتصاد وتفرّعها.

خصائص النص الاقتصادي:

إن اللغة المتداولة ضمن الميدان الاقتصادي تضمّ غالبا أرقاما ورموزا وبيانات، وعلى الرّغم من أن هذا النّوع من العلوم يتميّز بتعدّد فروعه وتباينها، وهو الأمر الذي يكاد يكون أهم مميزات عالم الاقتصاد، وعلى الرغم من النقاط التي تتقاطع فيها تلك الفروع مثل اتصاف معظمها بمميزات اللغة المتخصصة(المصطلحات المتخصصة والدقة والوضوح، والموضوعية...)، إلا أنها قد تختلف في الكثير من الخصائص، مثل العبارات الجاهزة المستعملة والمصطلحات ذات درجة التخصص العالية، حيث تصبح لغة البورصة، وما تعتمده من تنبؤ لارتفاع وانخفاض الأسعار أي امتلاك براعة عالية في اتخاذ القرارات السريعة، مختلفة جدا عن عملية اختتام الميزانية ضمن ميدان المحاسبة، التي تنطلق من معطيات دقيقة جدا من أجل الحصول على نتائج بدرجة الدقة نفسها، من دون أي تكهنات أو مهارات شخصية سوى تلك التي تتعلق بقوانين المحاسبة، وقد أحصى"قيي رانبو" «Guy Raimbault » سبعة أنواع من الفروع الاقتصادية، صنّف كل منها في "عالم مختلف" وهي:

« Sept mondes différents, mais très dépendants les uns des autres : le monde économique, le monde financier, le monde boursier, le monde bancaire, le monde des sociétés, le monde fiscal, et le monde des instituions ».[32]

"سبعة عوالم مختلفة، ولكن تكمّل بعضها البعض: عالم الاقتصاد، عالم المال، عالم البورصة، عالم البنوك، عالم الشركات، العالم الضريبي، وعالم المؤسسات" (ترجمتنا).

ولعل هذا الاختلاف يجعل الحديث عن نوع واحد من النصوص الاقتصادية أمرا نسبيا، والتعامل مع هذا النوع من النصوص المتخصصة مختلفا من فرع إلى آخر. ولا يمكن استبعاد وجود أنواع عديدة في نص واحد، مما يجعل دراسة الغموض أمرا مرتبطا ارتباطا وثيقا بطبيعة هذا التداخل.

2.4– الجناس اللفظي والنص الاقتصادي:

يبدو إذن، بأن تفرع العالم الاقتصادي إلى عوالم مختلفة، يمثّل في حد ذاته أحد أسباب غموض هذا الميدان المتخصص، ولعلّ الغموض المعجمي يمثل أهم تجلياته، فمثلا لفظ publicالذي يمثل ما هو عام أو عمومي قد يعبر في الوقت نفسه عن الجمهور، وإذا ما تم توظيفه ضمن مجال التسويق فإنه يمثل الجمهور المستهدف(public visé)الذي يتوجب إقناعه. ولفظ bien الذي يتواجد في اللغة الفرنسية في مواضع عديدة، قد يعني الخير في مفهومه الواسع، كما قد يعني الملكية ضمن ميدان الاقتصاد، وإذا ما تم إضافته للفظ public فقد يعني "النفع العام" كما قد يعني "الملكية العمومية" إلى جانب التغير الذي قد يحدث بسبب إضافة لحرفs أو e أو اللاحقة que (publique)الكفيلة بالتفريق بين جناس اللفظ الفرنسي في صيغة التأنيث أو التذكير.

وعلى غرار الخطاب الاقتصادي فإن الخطاب الدبلوماسي غني أيضا بالغموض، ونذكر الغموض الشهير الذي استخدم في صياغة القرار 242 لمجلس الأمن؛ حيث استعملت العبارة الغامضة "أراض محتلة" بصيغة النكرة، مقابل الصيغة المعرّفة "الأراضي المحتلة"[33]، ويبدو أن التعريف بتلك "الأراضي" كان يحمل كل البعد العميق للألف واللام... ويصبح استعمال الغموض في مثل هذه الحالات أي ضمن نصوص تقتضي الدقة والصرامة، سلاحا في غاية الأهمية والخطورة. وقد يترتب عنه عواقب وخيمة قد تكون بسبب "جناس"، كما هو الحال بالنسبة للغة الفرنسية التي تستعمل في كثير من المواضع أشكال على الحروف (accents) كحلّ لظاهرة الجناس مثل àو a .،مثل un client à découvert و un client a découvert حيث أن العبارة تضم "جناسا للفظيين "، يتمثلان في الاكتشاف والإفلاس، في حين تشكيل الحرف a قد غير المعنيين بين: "زبون يكتشف" و "زبون آخر يواجه حالة إفلاس" ، هذا إذا اعتبرنا الجناس لفظيا فحسب، أما إذا كان الجناس صوتيا homophone،فقد يؤدي إلى احتمالات أخرى مثل le client a des couverts حينئذ يصبح المعنى مختلفا تماما، حيث يعني ذلك أن الزبون يملك أواني المائدة[34]للطعام. إلى جانب أهمية "الأفعال المساعدة" « les verbes auxiliaires ».

وبناء على ما قد قيل فإن النصوص الاقتصادية عرضة لهذا النوع من الغموض المعجمي على غرار باقي النصوص المتخصصة، حيث أن أسباب ذلك قد تختلف من خطأ مطبعي إلى إضافة للألف واللام، والذي من شأنه أن يفقد عقدا بأكمله للمصداقية أو الشّرعية.

5) آليات معالجة غموض الجناس اللفظي في الترجمة الاقتصادية:

يبدو إذن، بأن ظاهرة الجناس اللفظي تأخذ صبغة اللغة التي تمثل الوعاء الذي تصب فيه، ومهما اختلفت أسباب توظيفها، فإن عملية التحليل المعجمي ضرورية، للتعرف على طبيعة الغموض وماهيته. وقد يختلف الأمر بالنسبة للمترجم، خاصة إذا ما تعلّق الأمر بنصوص متخصصة تستدعي الفهم الدقيق قبل القيام بأي محاولة نقل إلى اللغة المستهدفة، فمترجم النص الاقتصادي على غرار نظرائه من المترجمين المتخصصين، قد يواجه الغموض المعجمي الذي يمثل عائقا مهمّا بالنسبة لعمله، وبحكم التداخل الذي يميز علم الاقتصاد مع باقي العلوم (القانون، الفقه، السياسة، الاجتماع..)، فإن التعرف على المعنى الدقيق أمر حتمي حتى يتسنى للمترجم إيصاله، إذ أن الألفاظ عبارة عن مصطلحات يتم توظيفها ضمن سياق معين، وضمن تخصص دون غيره، وتذكر الباحثة الإيطالية "أليسندرا رولو"« Alessandra ROLLO » التي اشتهرت بمقالاتها التي عُنيت بالبحث في مجال الترجمة الاقتصادية:"

« Dans plusieurs textes produits dans le domaine des affaires, le lexique économique s'entrecroise avec le langage politique ou juridico-administratif (contrats, différends, droit des sociétés, politiques économiques internationales, …), ce qui implique un effort majeur pour comprendre la terminologie utilisée et restituer le sens exact dans la langue d'arrivée »[35].

"إن المفردات الاقتصادية التي يتم استعمالها ضمن نصوص خاصة بميدان الأعمال، تتداخل مع اللغة الدبلوماسية، أو الإدارية–القانونية (العقود، النزاعات، قانون الشركات، السياسات الاقتصادية الدولية، ...)، مما يجعل المترجم يقوم بجهود معتبرة حتى يتمكن من فهم المصطلحات المستعملة، وبالتالي نقل المعنى الدقيق إلى اللغة المستهدفة" (ترجمتنا)

فيمثل الجناس إذن، بالنسبة للمترجم ظاهرة لغوية قبل أي شيء آخر، وقد يكون قد تعرّف عليها في مراحله التعليمية الأولى، أما بالنسبة لمترجم النصوص الاقتصادية فقد يتوجب عليه القيام قبل الترجمة بتصحيح العمل المقدم، حتى أن البعض يتحدّث عن نوع ترجمي قائم بذاته، وهو "الترجمة التصحيحية"، لأن أسباب الجناس قد تكون نقطة ناقصة أو زائدة، أو حروف تشكيل لا غير، أي أن هذا النوع من الغموض المعجمي الذي يصادف المترجم قد يكون أحيانا بسبب أخطاء مطبعية، أو حتى على مستوى تحرير النص المقدم للترجمة، ولا مجال لتحليله أو معالجته، بل يتوجّب على المترجم أن "يقوم برفعه"، بفضل قيامه بتعديلات و عمليات إعادة الصياغة.

1.4– التأكد من عدم كون الغموض غير مقصود:

تقول"كريستين دوربان" «Christine Durban» عن الأخطاء التي قد يصادفها مترجم النصوص الاقتصادية:

« Face à ces textes maladroits (voire incompréhensibles dans certains cas) notre travail ne consiste ni à rire ni à pester, mais plutôt à nous dire que leurs auteurs sont des spécialistes des marchés et non des écrivains. A nous, donc, de rajuster le tir, d'arranger leurs phrases, de travailler avec eux pour nous assurer que les textes qu'ils signent (en anglais et en français) correspondent bien à ce qu'ils voulaient dire (peu importe ce qu'ils ont écrit à l'origine)[36].

"في مواجهة نصوص بمثل هذه الركاكة، (أحيانا غير مفهومة تماما)، فلا يجب أن نستهزئ بما نراه أو أن نسخر منه، وذلك بحكم عملنا، بل أن نقول بأن من قاموا بتحريره عبارة عن أشخاص يشتغلون في الأسواق المالية وليسوا كتّابا، وعلينا أن نحاول تقويم الخطأ، وإعادة صياغة عباراتهم، والعمل برفقتهم بغية التأكد من أن الأعمال التي قاموا بالمصادقة عليها (باللغة الفرنسية أو الانجليزية) تتطابق مع ما يريدون قوله، وذلك (بغض النظر عما كتبوا منذ البداية)"(ترجمتنا). وتساعد هذه الخطوة إذن، على التأكد من أن الغموض الذي قد يستغرق جهدا ووقتا طويلا لمعالجته، ليس في حقيقة الأمر إلا غموضا غير مقصود. أو بسبب ضعف لغوي لدى مقدّم العمل، وتكون عملية إعادة التحرير والصياغة كفيلة برفع ما لم يكن مقصودا.

ويمكننا أن نذكر المثال الآتي الذي يمثّل جزءا من نص اقتصادي (مترجما من اللغة الروسية)

"Cet auteur "tentait de répondre à une question essentielle: De quelle manière peut-on, dans le cadre du capitalisme, liquider le retard économique des pays qui, parleurs particularités historiques et économiques se tiennent au dernier rang" de la "communauté mondiale ?".[37]

حيث يمكننا أن نلاحظ، لأول وهلة بأن بعض المفردات قد تمت ترجمتها بطريقة حرفية، مما أدّى إلى "أسلوب ركيك". مثل:

"Liquider le retard économique" حيث أن المصطلح liquider/liquidation يحمل "شحنة دلالية معينة" في عالم الاقتصاد، و الذي غالبا ما يقصد به "التصفية أو الفصل"، أي على المستوى المادي أو المعنوي فإنه يدل على "التخلص بصفة شبه نهائية"، أما إذا ما عدنا إلى السياق العام للمقطع، فيبدو أن الكاتب لم يقصد سوى "تدارك/النهوض" بالركوض الاقتصادي، و بالتالي يمكن للمترجم أن يستبدل liquider ب ..rattraper-faire face أي:

Faire face/ rattraper/ le retard économique .

في حين نلاحظ بأن الصياغة الخاطئة ل par leurs، أين لم يستخدم الكاتب سهوا (في أغلب الاحتمالات) الفراغ بين parوleursقد ترتّب عنها، وحدة معجمية تحتمل جناسا متمثلا في parleurs(المتكلمين)، إذ أن استعمالها في السياق العام يبدو غير وارد تماما. ممّا يستدعي إذن القيام ب"ترجمة تصحيحية" قبل البدء بالترجمة.

2.5– قناة التواصل (بين الخطاب الشفهي والكتابي):

كما تم ذكر ذلك من ذي قبل، فإن رفع الغموض، قد يكون مرتبطا بصفة وطيدة بقناة التواصل، أي أن حالات الجناس تعدّ من أهم حالات الغموض التي تختفي عند تدوينها سواء بإضافة s أو e أو â أو a أو ضمة أو شدة أو كسرة، وهي أدوات لغوية بسيطة لكنها كفيلة برفع الغموض.

وإذا كان الخطاب الاشهاري الشفوي غني باستعمال عديد من الصور البيانية مثل الاستعارة والتورية والغموض المعجمي (الجناس و"البوليسيميا" كما قد اقترض البعض المصطلح الأجنبي)، فقد يتم "رفع غموض الجناس" عند الانتقال إلى "الخطاب المقروء" أي كتابته وتدوينه، حيث يتم رفعه بمجرد "كتابة" علامات التنقيط أو ضمائر الصلة أو أداة التعريف، أو باستعمال بسيط للفراغات المناسبة التي تفصل الكلمة عن مجاورتها، فيصبح الخطاب بعد ذلك واضحا بيّنا، بعد أن كان غامضا محتملا لقراءات وتأويلات عديدة،فيتمّ رفع غموض قد يتبادر إلى الأذهان ضمن مجال ضيق وحيّز محدّد مثل الخطاب المنطوق. و لنذكر الأمثلة التالية من جريدة "ليبراسيون" Libération الفرنسية:

(12) Palestiniens : la mer patrie (21 décembre 1983)
(14) Boxe : un combat qui “pèze” lourd (6 avril 1987)
(15) Tyson : mise au poing (28 juin 1991)
(16) Un jour sans faim (16 octobre 2003)
(17) L’air de la crise (27 avril 2004)[38]

وكما يظهر من خلال الأمثلة التي أوردناها، فيمكن ملاحظة حالات "الجناس الصوتي" homophone، والتي تمّ استغلالها في تلاعب معيّن بالكلام، والذي يتجلى في توظيف "الغموض"، حيث لا يمكن لهذا النوع من الغموض أن يأخذ "أبعاده المرجوة" إلا في "سياق كتابي"، أين يتم التحقّق من وجود تلاعب بالكلام " un jeu de mots". ففي المثال الأخير قد يوحي استعمال l’air الذي قد يتم ربطه بوصلة موسيقية un air musical، إلى "جو عام للأزمة"، في حين يبدو جليّا بأن قصد المتحدّث، هو " l’ère de la crise économique" أي "مرحلة الأزمة الاقتصادية".

3.5– التعرف على العبارات الجاهزة:

إن النص المتخصص كما دلت على ذلك الأمثلة التي أوردناها غني بالعبارات الجاهزة التي تحمل معنى محدّدا

ضمن مجال التخصص، مثل عالم الاقتصاد الذي يزخر بفضل حيويته وطبيعة تجدّده الدائمة، عددا لا يحصى من تلك العبارات، ويكون توفّق المترجم في عديد من الحالات رهن تمكّنه الدقيق ودرايته الكافية بالمعنى الاصطلاحي.

ولنذكر على سبيل المثال بعض العبارات الجاهزة في عالم الاقتصاد، والتي لو لم يكن المترجم على إلمام بمعناها، فإنه لن يكون قادرا على تقديم ترجمة سليمة في اللغة المستهدفة.

المكافئ في اللغة العربية	العبارة الجاهزة باللغة الانجليزية (اللغة لاقتصادية)
تقديم اقتراح خلال جلسة عمل.	Make a motion[39]
يقال عن المبيعات التي تعرف رواجا كبيرا في السوق	Jump off the shelves[40]
تدقيق المحاسبات (الخاصة بعملية البيع)	Keep books[41]
الاتصال/أو زيارة زبون محتمل جديد.	Make a cold call[42]

يقوم المترجم، إذن، باختيار المعنى "الملائم" أي "المكافئ الدقيق" عند الترجمة وليس ما يمكن أن يستنتجه عند القراءة السطحية والتي قد تجعله يواجه "عدة احتمالات" بسبب الغموض الناجم عن عدم اضطلاعه من ذي قبل عن العبارات الجاهزة التي يفرضها السياق العام للنص. فيسيء الاختيار وبالتالي تصبح الترجمة ناقصة أو خاطئة إذا ما اكتفى باستعمال "المقابلات": كتب، أو القفز...على سبيل المثال والتي "تفقد معناها" عند الترجمة الحرفية، مثل ما هو الحال عند ترجمة جميع العبارات الجاهزة.

4.5- النصوص الموازية:

على غرار باقي اللّغات المتخصصة فإن استعانة المترجم الاقتصادي بنصوص موازية يساعده في التّعرف على طبيعة تلك النصوص، وقد عرّفها "جون دوليل" Jean DELISLEبأنها:

« Texte en langue d'arrivée qui appartient au même genre de texte de départ ou qui traite d'un sujet connexe et duquel le traducteur extrait les termes, expressions ou connaissances thématiques dont il a besoin pour effectuer sa traduction ». [43]

" عبارة عن نصوص في اللغة المستهدفة تنتمي إلى نوع نصوص اللغة الأصل نفسه، أو تلك التي تتناول المواضيع المجاورة، حيث تساعد المترجم في استخلاص المصطلحات والعبارات أو المعلومات الموضوعاتية التي يحتاج إليها في عمله الترجمي." (ترجمتنا)

وفي مثل هذه الحالات يتأكد المترجم بأن "خطّ التجميع" تمثّل الترجمة المتداولة ل

« Assembly line/chaîne de montage »[44]

على الرغم من وجود احتمالات عديدة لوحدات معجمية أخرى، نتيجة الجناس الذي قد يسبب غموضا بالنسبة للمترجم، والذي يزول ب"اعتياده" النصوص الموازية في اللغة المستهدفة واللغة المتخصصة التي تهمّه. وعند اعتياد المترجم لمثل هذه النصوص، ومطالعتها المستمرة لها، خاصة إذا ما أصبحت الترجمة الاقتصادية اختصاصها الأول، يصبح إذن قادرا على سبيل المثال على اختيار مصطلح "مكافئ واحد"، ل titreو obligationوeffetوbilletو bon وهو "السند" الذي يتبيّن بأنه "المكافئ الترجمي" الذي يتداول بين مستعملي اللغة الاقتصادية.

5.5- دور **المعجم المتخصص**:

على غرار الغموض المعجمي الذي يخصّ حالات تعدد المعنى، يبدو مليّا بأن المعجم المتخصص ضروري لعمل المترجم عند مصادفته حالات الجناس المتعددة، وخاصة الوحدات المعجمية التي تشكّل جناسا تاما أو مطلقا، حيث تساعد هذه الأنواع من المعاجم في ضبط المعنى الدقيق ضمن مجال التخصص.

وعليه فيمكن للمترجم أن يصادف "استعمالا عاديا للّغة المتخصّصة"، ويمر عليه مرور الكرام، في حين يقوم بعض المترجمين الذين صقلت الخبرة مراسهم بالاستعانة بالمعجم المتخصص. مثل مصادفته لتوظيف معين للفظ carte والذي قد يرتبط ب Copiage de carte، حيث يقوم بترجمته بصفة "بسيطة" ب "نسخ البطاقة"، في حين يساعده التعرف على المعنى المعجمي المتخصص على اختيار المعنى الدقيق، فيضيف على سبيل المثال " النسخ **المزوّر** للبطاقة". حتى يتسنى نقل المعنى الملائم والذي يحمل في طيّاته "معنى التحايل والتزوير".

Copiage de carte ♦ Domaine : Finances. ♦ Définition : Technique de fraude visant à obtenir les données confidentielles d'une carte de paiement en copiant sa piste magnétique et éventuellement en captant son code secret au moyen d'un copieur de carte installé sur des terminaux de paiement ou de retrait.[45]

6.5- **القيام بعملية التحليل المعجمي**:

يتضح أيضا بأن القيام بعملية التحليل المعجمي عند مصادفة الجناس والغموض الذي قد يترتب عنه، يعدّ عنصرا أساسيا بالنسبة للعملية الترجمية، وعلى الرغم من اختلاف استغلاله وتوظيفه بين المترجم واللغوي إلا أن القيام بعملية التمييز بين تعدد المعنى والجناس على سبيل المثال وفق المعايير التي تم ذكرها سابقا، تمكّن المترجم من معرفة نوع الغموض بصفة محدّدة وبالتالي توجيهه نحو الخيار الترجمي الأسلم. فلنقم على سبيل المثال بدراسة

المقطع الآتي من كتاب "كوتلر" «KOTLER»الذي يتحدث فيه عن التسويق (النسخة الانجليزية الأصلية، والنسختين الفرنسية والعربية المترجمتين):

• Volvo's case is interesting in that Volvo recognized that in every country of the world, some car buyers make safety their highest priority. In discovering this global **niche**, Volvo is able to sell its cars all over the world.[46]

• Le cas de Volvo est intéressant car le constructeur a compris que partout dans le monde, il existait des clients pour qui la sécurité primait sur tout le reste. Au de la de cette « **niche** globale », Volvo a réussi au Mexique où la durabilité est plus importante que la sécurité.[47]

• تدعو حالة فولفو إلى الانتباه لأن فولفو أدركت أنه في أي دولة في العالم، يضع مشترو السيارات الأمان على رأس الأسبقيات. ولاكتشاف هذه الرغبة المتفردة للعملاء **niche** تستطيع فولفو بيع سيارتها في كل أنحاء العالم.[48]

إذا ما قمنا بالتحليل المعجمي للمصطلح الاقتصادي، سوف يتبين لنا من أول وهلة بأنه قد يكون من من قبيل"غموض الغموض" الذي تطرقنا إليه آنفا (أي الخلط الذي قد يقع بين "الجناس اللفظي" و"تعدد المعنى"، أمّا إذا قام المترجم بالاستعانة بمعجم اقتصادي يضم المكافئات في اللغتين (العربية والفرنسية)، سوف نجد الاستعمالات التالية:

• Market niche syn. niche **créneau** ; débouché ; niche [lorsqu'il s'agit d'un petit marché spécialisé] [COM]

• Niche strategy 1. Stratégie du secteur réservé [Nota : dans le cas d'une stratégie défensive : défendre une position forte dans un segment susceptible de mieux résister en phase de déclin] – 2. Stratégie de **créneau** ; stratégie de niche [Nota : dans le cas d'une stratégie offensive] [COM]

ويظهر إذن بأن المكافئ السليم هو créneau أو التخصص في اللغة العربية[49]. وعليه فإن "الخلط" الذي كان قد يبدو واردا عند القراءة الأولية بالنسبة للمصطلح niche أي القيام بإخضاعه للمعايير التي اقترحتها "فوكس"، حتى يتسنى معرفة ماهيته (جناس/تعدد المعنى) والتي تساعد على التعرف على طبيعة الغموض الذي قد يستدعيه اللفظ، أي "هل اللفظ niche الذي يدل على "بيت الكلب « Niche de chien » يحمل نفس الجذور الدلالية ل « une niche archéologique»، و من ثمة « a global niche ، حيث تساعد هذه الدراسة الاتيمولوجية على تأكيد وجود غموض معجمي من قبيل تعدد المعنى و ليس جناسا لفظيا، إذا ما اتضح وجود "أصل مشترك للفظ" كما أشارت "فوكس" لذلك.

في حين يتبيّن بعد مواصلة التحليل والاستعانة بالمعجم المتخصص بأن المصطلح في حقيقة الأمر، من قبيل "المتصاحبات الكاذبة" بين اللغتين "الانجليزية والفرنسية"، ويعدّ هذا الاستنتاج جوهريا بالنسبة للمترجم، ويكفي أن نضطلع على الترجمتين حتى ندرك بأن النقص الذي ميّز عملية التحليل أدى إلى تأثير سلبي في العملية الترجمية بأكملها، في حين كان من الممكن الاستغناء عن "الاقتراض والمحاكاة" لniche كتقنية ترجمية (بسيطة جدا) واقتراح مكافئ ملائم تمّ استخلاصه بعد عملية تحليل مسبقة.

7.5– العودة إلى السياق (النظرية السياقية):

ويبدو أيضا بأن دور السياق يأخذ بعدا أكبر في مثل هذه المعالجة، مما قد يجعل المترجم يستعين في عمله بنظريات غير ترجمية، مثل النظرية السياقية حيث: " تعتبر نظرية السياق واحدة من نتائج البحث الدلالي، فعندما تدرس أحوال اللفظ ومادته اللغوية يكون ذلك بمثابة تمهيد لإعطاء هذا اللفظ بعده في النص، أو بعبارة أخرى يمثل السياق دراسة الوحدة اللغوية في الواقع العملي وهي خطوة تمهيدية في المنهج التحليلي للخطاب"[50].

ويكون تحليل النص ضروريا وفق منهج تحليلي للخطاب وبحث دلالي يسمح بتحديد سياق النص والقيام بعد ذلك بالتعرف على كل ما يفرضه ذلك السياق من أدوات لغوية وغيرها.

8.5- الاستعانة بأسس نظرية ترجمية مثل النظرية التأويلية:

إن عنصر الفهم الذي يمثل أولى المراحل الثلاث التي ميّزت نظرية المعنى، يشكل إلى جانب اهتمامها بعنصر السياق مرجعا رئيسا بالنسبة لعمل المترجم عند مصادفته لغموض معجمي يتجلى في جناس سواء كان ناقصا أو تاما، حيث تقول مؤسسة هذه المدرسة "دانيكا سياسكوفستش" « Danica SELESKOVITCH » بهذا الشأن:

« La compréhension du discours ne suit ni l'organisation verticale ni la stricte linéarité des structures de la langue ; elle ne procède pas d'abord à une discrimination phonémique, puis à l'identification des mots, suivie de la levée de leur ambiguïté, puis de la saisie de la signification syntaxique de la phrase, de la levée de l'ambiguïté de cette dernière ... La compréhension du discours se construit cybernétiquement en des allers et retours constants entre des perceptions partielles et des associations cognitives qui se produisent en de brusques synthèses".[51]

"إن عملية فهم الخطاب لا تخضع إلى بعد عمودي، ولا إلى البنيوية اللغوية الصارمة، ولا تبدأ بإغفال الجانب الصوتي ثم التعرف على الكلمات، الذي يليه رفع

الغموض، والتعرف بعد ذلك كله على ماهية تركيب الجملة وكيف تم رفع الغموض الذي ميزها، بل إن تحليل الخطاب يبنى أساسا بطريقة ديناميكية تتجلى من خلال القيام بعمليات ذهاب وإياب متكررة بين الإدراك الجزئي والترابط الذهني الذي يظهر من خلال استنتاجات مفاجئة". (ترجمتنا).

وعليه، فإن هذه النظرة العميقة للغموض في معظم حالاته، تمثّل أداة ثمينة بالنسبة للمترجم، حيث تحثّه إلى النظر إلى الغموض من زوايا مختلفة، فإلى جانب الاهتمام الضروري باللّغة، تؤكّد "سيليسكوفيتش" بأن ذلك ليس كافيا، فتقترح الاهتمام بالجانب الصوتي أيضا، ولعل ذلك يمثل أمرا مهما عند محاولة التفريق بين حالات الغموض الصوتي وحالات غموض الجناس (تاما أو ناقصا) خاصة بالنسبة للّغة الفرنسية.

لو قمنا بمحاولة فك الغموض الوارد ضمن ما تقترحه المدرسة التأويلية، استنادا إلى المثال الذي تم ذكره سابقا:

• Volvo's case is interesting in that Volvo recognized that in every country of the world, some car buyers make safety their highest priority. In discovering this **global niche**, Volvo is able to sell its cars all over the world. Volvo has added a second benefit positioning of their automobile, namely the claim that it is one of the most durable cars.[52]

مرحلة القراءة والفهم: بعد القيام بعملية قراءة وفهم متأني للمقطع، سوف نكتفي باختيار المقطع global niche، ولنعدّه وحدة ترجمية تحتمل إشكالا. يمكننا في هذا المقام أن نتعرف أولا على طبيعة النص، وبما أنه ينتمي إلى مؤلَف اقتصادي، فسوف نفترض بأن لغة النص اقتصادية. وبالتالي نحدّد السياق الذي يستعمل فيه اللفظين/المصطلحين، وتثمين ذلك ببحث توثيقي.

مرحلة التجريد اللغوي: فإذا ما قمنا بتجريد "وحدة المعنى" :unité de sens"global niche" من اللغة، فنتعرف على المكافئات الممكنة:

Global niche : / مفهوم العالمية/ العولمة + البيت الكوخ

Global niche : التعميم + البيت الكوخ

Global niche مفهوم العالمية/العولمة+ مفهوم الانتقاء والتوزيع المركز (بعد الاستعانة بمعجم متخصص- التسويق) :

Niche marketing or concentrated segmentation:

تسويق انتقائي، توزيع مركز هو اختيار جزء صغير متخصص من سوق والذي لا يشغل بال المنافسين[53]

Global niche مبدأ العولمة+المعنى المتخصص

مرحلة إعادة الصياغة:

في الأخير وفي ضوء ما تم التوصل إليه عند مرحلة التجريد اللغوي، يبدو بأن المعنى الأخير "مبدأ العولمة+المعنى المتخصص" يمثّل، الخيار الترجمي الذي "يعبّر عن الأثر المكافئ في اللغة المستهدفة"، من بين باقي الخيارات المتوفرة لدينا.

وبالتالي نمرّ إلى المرحلة الأخيرة من النظرية التأويلية حيث نقوم بإعادة الصياغة في اللغة المستهدفة (اللغة العربية)، وإثر ذلك نقترح ما هو آت:

- قد انفردت حالة "فولفو" عن غيرها، بعد أن كانت سبّاقة في التفطّن إلى أن البحث عن الأمان لدى مشتري السيارات، يعدّ من أولوياتهم، وقد مكّنها اكتشافها لهذا **التسويق العالمي المركّز** من بيع سياراتها عبر شتى أنحاء العالم.

6)بين رفع الغموض ونقله إلى اللغة المستهدفة:

مما لا شك فيه، بأن التعامل مع الغموض ومعالجته بالنسبة للمترجم ليس محل إجماع بين منظري الترجمة، حيث يقول" إيكو" في هذا الصدد:

« J'espère qu'on notera que j'ai toujours signalé à mes traducteurs les points critiques pouvant engendrer une ambiguïté, leur conseillant d'y être attentifs, sans essayer d'influencer leur interprétation; ou alors que je répondais à leurs requêtes, quand ils me demandaient, parmi celles qu'ils me proposaient, quelle solution j'aurais choisie si j'avais dû écrire dans leur langue et, en ce cas, ma décision était légitime, puisqu'en fin de compte c'était moi qui signais ce livre »[54].

"أذكر بأنني كنت أطلع المترجمين الذين أتعامل معهم عن النقاط الحساسة التي يمكن أن تؤدي إلى الوقوع في الغموض، وأنصحهم بتوخي الحذر، وذلك من دون محاولة التأثير على ترجمتهم، كما أنني كنت أجيب على تساؤلاتهم، وكنت أحاول أن أقترح الحل الأنجع في نظري خاصة إذا ما كنا نستخدم اللغة نفسها عند الصياغة، لأنني سوف أتخذ حينئذ قرارا ذو الشرعية المرجوة، بما أنني سأصادق على المؤلَّف" (ترجمتنا)

ويمكننا هنا أن نلاحظ، بأن المترجم يتحدث بحكم تجربته الميدانية التي غالبا ما تؤكد أن محاولة التشبث الأعمى بنقل الغموض، قد تؤدي إلى الوقوع في أخطاء وتناقضات عند إعادة الصياغة في اللغة المستهدفة، وهو الأمر الذي يعني ترجمة خاطئة عند البعض وخسارة مالية عند البعض الآخر.

بينما تحثّ "كاترين فوكس" على نقل الغموض بحذافيره، وذلك حرصا منها على عدم الوقوع في "اللامعنى"، وتشير في هذا الصدد:

« Il est bien connu dans la profession que le traducteur astucieux est celui

qui, rencontrant dans le texte d'origine une ambigüité effective qu'il ne sait pas résoudre, s'arrange pour la conserver, c'est-à-dire pour trouver un équivalent-cible qui soit lui aussi ambigu ».[55]

"من المعروف في مهنة الترجمة، بأن المترجم الحاذق هو من يحافظ على الغموض النافذ الذي يعترضه ويستعصي عليه حلّه فيقوم بنقله، أي إيجاد المكافئ الغامض بدوره في اللغة المستهدفة " (ترجمتنا)

ويبدو بأن العمل على إيجاد "المكافئ الغامض في اللغة المستهدفة" أمرا نظريا أكثر منه عمليا وتطبيقيا، لأن اللغات تختلف، باختلاف الثقافات والأنظمة النحوية والصرفية، وإبقاء هذا الغموض، قد يساعد فعلا على تجنب الوقوع في "اللامعنى" وذلك أخشى ما يخشاه أي مترجم، ولكن قد يؤدي أيضا إلى إعطاء نص جاف مجرد من المرونة والسلاسة.

وقد لاقى موقفها ذلك، بعض المعارضة، حيث يقول"أنتين فوقنر رايدنينغ" Antin FOUGNER RYDNING:

« Elle préconise donc le maintien de l'ambigüité. On voit bien que ce conseil émane d'une linguiste influencée par le traitement automatique des langues sans ancrage dans la pratique de la traduction. Dans la plupart des cas, le maintien de l'ambigüité fortuite mène à une absence de clarté et d'intelligibilité dans la lange d'arrivée ».[56]

"إنها تفضّل الحفاظ على الغموض عند النقل ونلاحظ بأنها وجهة نظر باحثة لسانية تهتم بالمعالجة الآلية للغات، مما قد يكون بعيدا عن الترجمة الاحترافية. ففي أغلب الحالات، يؤدي إبقاء الغموض غير المقصود إلى عدم الوضوح في اللغة المستهدفة" (ترجمتنا). أي أن الأمر نسبي في معظم حالاته، فبعض حالات الغموض تستلزم رفعها قبل الترجمة، في حين قد يؤدي الرفع في حالات أخرى إلى اقتراف "خيانة ترجمية"، مما يؤكد مرة أخرى ضرورة توخّي الحذر، والاستعانة بجميع الأدوات المتاحة لدى المترجم.

7) الكفاءات الترجمية اللازمة لمعالجة الغموض:

يمكننا القول إذن، بأن مترجم النصوص الاقتصادية الذي يعترض عمله، غموضا معجميا يتجلى في الجناس يحتاج إلى كفاءات عديدة من دون أي شك لكي يتمكن من تجاوزه، وقد لاحظنا من خلال الأمثلة التي تم التطرق إليها من ذي قبل، بأن ما تدعو إليه "فوكس" بإيجاد مكافئ غامض في اللغة المستهدفة، لا يبدو أمرا ممكنا بالنسبة لهذا النوع بالذات، أساسا لأن ما يشكل جناسا في لغة معينة، قد يرفع بتمرين الترجمة في حد ذاتها، خاصة عند اختلاف الأنظمة اللغوية وتباعدها، مثل اللغة العربية واللغة الفرنسية، أو اللغة العربية والإنجليزية.

ويبدو أن توفّق المترجم في معالجة هذا النوع من الغموض مرتبط بجميع كفاءات المترجم المرجوّة خاصة عند ترجمة نصوص متخصصة مثل النصوص الاقتصادية، وأبرز الكفاءات التي أجمع عليها العلماء هي كما أشارت إلى ذلك"فيديريكا سكالبا" Federica SCLAPA:

« Parmi les six composantes relevées (compétence bilingue, compétence extralinguistique, savoir sur la compétence traductionnelle, compétence stratégique et composante psychophysiologique) ».[57]

"الكفاءة اللسانية (التمكن من اللغتين-الأصل والهدف-)، الكفاءة غير اللسانية (الموسوعاتية)، الكفاءة الترجمية (كفاءة النقل)، الكفاءة الإستراتيجية، والسيكولوجية)" (ترجمتنا)

وفي ضوء ما تم التوصل إليه من ملاحظات حول تعامل المترجم الاقتصادي مع ظاهرة الجناس يمكننا أن نقترح الترتيب الآتي للكفاءات المرجوة لمعالجة هذا النوع من الغموض:

-1.7

كفاءة اللسانية:

يمكننا أن نعدّ هذه الكفاءة أهم المهارات التي يجب أن يكتسبها المترجم حتى يستطيع "فك الغموض"لأن التحليل المعجمي وتفكيك النص إلى وحدات يستلزم أن يكون المترجم متمكنا من اللغة الأصل ومحيطا بجميع خصائصها اللغوية التي تعينه على فهم النص، سواء تعلق الأمر بمصطلحات أو ألفاظ عادية، كما يبدو أن الجناس يخص "استعمالات متخصصة للّغة العادية" أو ألفاظ عادية تم توظيفها ضمن خطاب اقتصادي أكثر من المصطلحات المتخصصة، كما أن تمكنه من اللغتين يساعده مثلا في التعرف على "المتصاحبات الكاذبة" « faux amis »أي تلك الظاهرة الترجمية التي قد تكون سببا لحدوث الجناس عند ترجمة مثلا مصطلح commission الذي يدل في سياق انجليزي اقتصادي على commission house أي maison de courtage : شركة وساطة، في حين يدل اللفظ الفرنسي على هيئة أو لجنة.

-2.7

لكفاءة الإستراتيجية:

يمكننا القول بأن هذه الكفاءة ضرورية بالنسبة لعمل المترجم الذي يصادف الغموض مهما كان نوعه، لأنها تعني في مفهومها العميق، قدرة المترجم على مواجهة الصعوبات التي تعترضه، وبما أن الترجمة الاقتصادية تعنى بترجمة نصوص متخصصة، فإن الغموض يعدّ في مثل هذه النصوص "من بين الصعوبات" التي تواجه عمل المترجم المتخصص، بخلاف ترجمة الشعر على سبيل المثال والذي يستغل الجناس فنيا وجماليا. فهذه الكفاءة ضرورية، لأنها تمكن المترجم من التمييز بين ما هو جناس وما هو من تعدد المعنى، وما يعبر عن غموض من نوع آخر مثل الغموض الصوتي أو "المتصاحبات الكاذبة" ومما لا شك

فيه بأنه لن يتمكّن من "الخيار السليم" إلا مترجم محنّك صقلت التجربة عمله، وقام بترجمات عديدة مماثلة، مكّنته من اكتساب "استراتيجيات محكمة" إلى جانب رصيده اللغوي الثري..

3.7- الكفاءة الترجمية:

يمكننا القول بأنها تضم الكفاءات التي تم ذكرها.

4.7- الكفاءة غير اللسانية:

يمكن أن تلخّص هذه الكفاءة في القدرة على القيام بالبحث التوثيقي، وإن كانت تعبّر عن معلومات المترجم غير اللسانية وعن ثقافته الشخصية، فإن الأمر يبدو قد أصبح في متناول أي مترجم، خاصة وفق كل ما توفره أدوات الإعلام الآلي واللوجيسيات والمعاجم الالكترونية والموسوعات، حيث أصبح الآن من الصعب أن يحمل المترجم هذا اللقب من دون أن يكون قادرا على الاستعانة بتلك الأدوات الحديثة، وعلى الرغم من أهميتها بالنسبة للترجمة المتخصصة على غرار الترجمة الاقتصادية، إلا أنها تبدو أقل نفعا عند التعامل مع الجناس إذا ما تم مقارنتها مع الكفاءة اللسانية.

5.7- الكفاءة السيكولوجية:

كثيرا ما يكون هذا النوع من الكفاءات ضروريا لعمل المترجم عند تعامله مع الغموض، خاصة عند وجود احتمال نقله إلى اللغة المستهدفة، حيث تتجلى كفاءة المترجم السيكولوجية في قدرته على التعرف على قصد المؤلف والسبب الذي دفعه إلى استعمال الغموض، والذي يحتاج أيضا إلى دراية بعلم اللغة النفسي، و يبدو أن هذه الكفاءة مهمة عند ترجمة النصوص الاقتصادية على غرار باقي النصوص المتخصصة، خاصة عند ترجمة بعض الأساليب التي تعمّدت المراوغة والتأثير مثل بعض نصوص التسويق والخطاب التحفيزي، إلا أن ترجمة الجناس تتلخص في معظمها في ترجمة ألفاظ تساعد سياقات معينة على فكها، وتكفي في أغلب الأحيان لمعالجتها، ولا تحتاج إلى الغوص في أفكار المؤلف العميقة مثل التي يعتمدها مؤلف الروايات والقصص المثيرة أو الأشعار والخواطر التي تعتمد على الخيال الواسع.

8) مثال تطبيقي:

إذا أخذنا على سبيل المثال المقطع التالي:

- Dans le troisième chapitre, sont examinés les marchés plus récents tels que les marchés des facilités d'émission (euro-note et euro-papier commercial) qui lient les marchés des eurocrédits et des euro-obligations, et les marchés des actions internationales[58].
- En termes d'émission, les montants émis sur les marchés obligataires et des notes à moyen terme nationaux étaient de l'ordre de 4 000 milliards de dollars et ceux émis sur le marché international de 2 600 milliards de dollars. En fait, quel que soit le mode de

financement considéré, les marchés internationaux ont un poids important qui s'accentue d'année en année[59].

- Les émissions d'actions internationales, qui étaient négligeables il y a une quinzaine d'années, représentent maintenant des volumes conséquents et témoignent de la mondialisation des entreprises. Les marchés d'euro-papier commercial et d'autres instruments sur le marché monétaire ont représenté des montants importants en 1999 et 2000 ; leur baisse, et plus précisément les remboursements massifs de ce type d'emprunts en 2001 et en 2009, reflète en fait leur flexibilité et leur adaptation au contexte – en l'occurrence, des faibles taux d'intérêt à court terme et un détournement des emprunteurs de ces produits vers les financements à long terme[60].

لقد قمنا بانتقاء ثلاث مقاطع من المقال نفسه، ولنفرض بأن النص قد قدّم للترجمة، ولكن عن طريق الإلقاء، أي أن المترجم ملزم بتدوينه.

- في المثال الأول نجد بأن اللفظ émission قد يكون محل غموض معجمي بسبب احتمال وجود جناس بين الوحدتين المعجميتين d'émission و des missions، وبالتالي بين الوحدتين الترجميتين facilité d'émission و facilités des missions، خاصة إذا كان الخطاب كما سبق و أشرنا إلى ذلك، "مقروءا" حيث يجد المترجم صعوبة في الترجمة، فهل يوجد "سهولة في البث/ النشر/الإصدار" أم ، "المهام (جمع مهمة) سهلة"؟

يمكن البدء بالقيام بتوسيع دائرة السياق، لنجد qui lient، والتي قد توحي بأن أسواق البث البسيطة/السهلة مرتبطة بالأسواق الأوروبية، كما يمكن أن تكون المهام سهلة ويسيرة أيضا، مما يجعل الغموض "نافذا"

بعد ذلك يمكننا أن نمر إلى عملية التحليل المعجمي مباشرة، لنتأكد من وجود لفظين مختلفين تماما، يعود كل واحد منهما إلى أصل مغاير، فالأول ينتمي إلى الفعل émettre الذي يدل على مصدر une émission /des émissionsو التي قد تحتمل بدورها "تعدد للمعنى" مع اللفظ الذي تطورت دلالته ليعبر حاليا "على بث إذاعي/تلفزيوني" في حين تظل الوحدة المعجمية une mission/des missions تدل على أصل مختلف تماما التي تدل على مصدر un missionnaire الذي يرمز إلى الرسالة و المهمة.أي حالة جناس لفظي صوتي homophone و بعد التأكد من وجود جناس لفظي صوتي homophone، يمكن للمترجم أن يحدد خيارا ترجمي، إما بتدوين الخطاب والتعرف مباشرة على المعنى الدقيق، أم باستعمال معجم متخصص، أم بمطالعة نصوص اقتصادية موازية تكشف "معنى العبارة الجاهزة": "تسهيلات إصدار السندات".

- أما بالنسبة للمثال الثاني، نجد نوع الغموض المعجمي نفسه": جناس لفظي صوتي homophone" ولكننا نلاحظ بأن توسيع السياق يساعد أكثر من المثال الأول، فإذا قام المترجم بالتأكد من نوع النص "اقتصادي"، وبالتالي التعرف على السياق الداخلي والخارجي الذي يساعد على اختيار "إصدار" لترجمة العبارة en termes d'émissions، أي "إذا ما تعلق الأمر بالإصدارات"، كما يمكنه الاطلاع على النصوص الموازية أين يتمّكن من ملاحظة ترجمة obligataire بالمكافئ "سندات" أيضا.
- بالنسبة للاستعمال الثالث للفظ فإننا نلاحظ أنه قد استخدم بصيغة الجمع les émissions، وبالتالي فإن هذا الاستعمال في حد ذاته ينفي الغموض المعجمي ويرفعه، حيث أن جمع لفظ mission هو des les missions/missions بينما جمع une émission هو des émissions/les émissions

يتضح إذن من خلال الأمثلة التي أوردناها، أين تم استخدام اللفظ نفسه، والذي قد يحتمل استعمالا عاديا للغة ضمن مجال التخصص، كما قد يكون مصطلحا متخصصا يحتمل توظيفا معينا للمعنى، بأن الجناس بين الوحدات المعجمية متواجد بكثرة في اللغة الفرنسية، وبأن رفعه ومعالجته، قد يتسنّى للمترجم إذا ما استعان بأدوات وآليات ثمينة على الرغم من بساطتها، مثل النظرية السياقية التي تتخذ السياق عنصرا جوهريا عند التعامل مع الغموض الذي قد يشكله الجناس بين الوحدات المعجمية والترجمية، وأيضا بفضل الأدوات التي لا يمكن للمترجم المتخصص الاستغناء عنها، أي البحث المصطلحي والتوثيقي، خاصة النصوص الموازية التي تجعله يعتاد العبارات الجاهزة.

ومن ثمة يمكننا أن نتأكد أيضا من أهمية الكفاءة اللسانية في التعامل مع هذا النوع من الغموض، الذي تختلف أسس معالجته من موضع إلى آخر وتتفاوت في درجة التعقيد.

ويمكن تلخيص ما تمّ التوصّل إليه من نتائج فيما يلي ذكره:

- يجب على المترجم التأكد من نوع الغموض قبل الترجمة الذي قد يكون غير مقصود في بعض الحالات، والذي ترفعه "ترجمة تصحيحية"
- الدور المهم الذي يملكه نوع النص في التعامل مع الغموض، حيث أن ترجمة جناس ضمن بيت شعري، تختلف من دون شك عن ترجمة الجناس بين وحدات معجمية ضمن نص متخصص.
- ضرورة القيام بتحليل معجمي، الذي يساعد على تحديد الأهداف والخيارات الترجمية من خلال التمييز بين حالات تعدد المعنى والجناس اللفظي وفق معايير ودراسة ايتيمولوجية، أو استنتاج أسباب أخرى مثل وجود "متصاحبات زائفة"
- ضرورة الاستعانة بنظريات غير ترجمية مثل النظرية السياقية، بسبب أهمية المناص (cotexte) والسياق الخارجي في رفع هذا النوع من الغموض، الذي يمكن تثمينهما بالبحث المصطلحي والبحث التوثيقي على حد سواء، مما يؤكد ضرورة التكوين الجيد للمترجم الذي قد يتحتم عليه القيام بمهام المصطلحي أو رجل الاقتصاد.

- أهمية النظرية التأويلية في التعامل مع الجناس، لعنايتها الفائقة بمرحلة 'الفهم" و"السياق في مفهومه الواسع" وبعدها التواصلي والترجمي، التي لا تكتفي بالنظرة اللغوية السطحية مثل المدرسة البنيوية.
- استحالة القيام بما يدعو إليه بعض اللسانيين أمثال "كاترين فوكس"، الذين يحثون على إيجاد المكافئ الغامض في اللغة المستهدفة، والذي يبدو غير ممكنا بالنسبة للجناس، لأن اللفظ الغامض ضمن اللغة الأصل بسبب الجناس لا يعني بأنه غامض بالضرورة ضمن اللغة المستهدفة، خاصة عندما تنتمي اللغتين إلى نظامين لغويين مختلفين، مثل اللغة العربية والفرنسية.
- أكثر تجليات الجناس في اللغة الاقتصادية تخص الألفاظ وليس المصطلحات، ويظهر إذن في معظم حالاته في استعمال متخصص لألفاظ اللغة العادية أو المتداولة.

خاتمـــــــــة:

ختاما، يمكننا القول بأن الجناس اللفظي الذي يمثل أحد أنواع الغموض المعجمي، يشبه بالنسبة للمترجم الذي يصادفه ويحاول فكّه أو معالجته، عمل الجرّاح الذي قد يقوم بعملية في غاية البساطة، ولكنها قد تكون أيضا سببا في هلاك المريض بعد اقتراف خطأ صغير جدا أثناء القيام بتلك العملية، مما يجعل التعامل مع هذا النوع من الغموض سهلا ومستعصيا في الوقت ذاته،

حيث أن الترجمة تبقى عملا شيقا وشائكا، لأن خيارات المترجم مرتبطة بعوامل متعددة، تختلف من نص إلى آخر ومن وضعية ترجمية إلى أخرى، وإذا ما تعلق الأمر بالغموض، فإن معالجته تستلزم كفاءات عديدة تتفاوت بتفاوت طبيعة هذا الغموض، و قد يكمن توفّق المترجم في معالجته في قدرته على نقل الغموض، في حين يبدو بأن نقل الجناس كخيار ترجمي غير وارد، بسبب الأدوات التي ترفع هذا النوع من الغموض المعجمي، والتي تتفاوت بين البساطة التي تلخصها نقطة على حرف، والتعقيد الذي قد يتضح من خلال سياق آخر مختلف تماما مثل اللغة المنطوقة، التي تغّير مجراها نبرة أو تنغيم أو تعمّد السكوت ضمن قول ما، وهو جانب آخر من الخطاب لا يقلّ أهمية عن اللغة المكتوبة، مما يجعل تعامل المترجم مع هذا النوع من الغموض المعجمي على غرار باقي أنواع الغموض أمرا مرتبطا أساسا بكفاءة المترجم الشخصية التي تظهر من خلال كفاءة لسانية وإستراتيجية محكمة، إلى جانب باقي الكفاءات التي لا بدّ لمترجم النصوص المتخصصة أن يملكها، حيث يساعده حسن استغلال وتوظيف النظرية الترجمية أو اللسانية أو النفسية بحسب اختلاف نوع الغموض في إيجاد الحل الأنجع، و لمّ الحيرة التي قد تنتابه عند مصادفة هذه "الصعوبة" و التي ألقى عليها "رونالد لانديير" اسم "التحدي الترجمي"، وربما يعين في المستقبل الاستعمال الدقيق للأدوات المتوفرّة لدى المترجمين و تطويرها، إلى ضبط العملية الترجمية وتفنيد الرؤية الاعتباطية لعلم الترجمة.

الهوامـــــش:

---

[1]**Catherine FUCHS**, **les ambiguïtés du français**, 1996, OPHS, Paris, P.07.

[*] عند ابن قتيبة

[2] ينظر، ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص32، عن: **حلمي خليل، العربية والغموض دراسة لغوية في دلالة المبنى على المعنى**، دار المعرفة العلمية، جامعة الإسكندرية، ط2، 2013، ص47.

[3]Cf, **Olivier SOUTET**, **La polysémie**, Presses De L'Université Paris-Sorbonne, Paris, 2005, P.84

[4]**Geroge MOUNIN**, **Dictionnaire de la linguistique**, 4ème Edition, 2004, Presse Universitaires de France, Paris, P164

[5]https://www.almaany.com/ar/dict/arar/%D8%AC%D9%86%D8%A7%D8%B3/?c=%D9%84%D8%B3%D8%A7%D9%86%20%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A8

[6]https://www.almaaref.org/books/contentsimages/books/allougha_alarabeya/albalagha_almoyasara/page/lesson24.htm#4-_%D8%B3%D9%88%D8%B1%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%B6%D8%AD%D9%89%D8%8C_%D8%A7%D9%84%D8%A2%D9%8A%D8%A7%D8%AA:9-11.

[7]**Jakimovska SVETLANA** (**2012**) ***La terminologie et les relations sémantiques dans la langue du droit***. **Les études françaises aujourd'hui**. pp. 325-337. P326.

* Les langues slaves

* https://www.almaany.com/fr/dict/ar-fr/accident/?c=Tous ترجمة من المعاني

[8]**Catherine FUCHS**, **les ambiguïtés du français**, P.9.

[9]**Chantal RITTAUD-HUTINET**, **équivoque Homophonique En Français** : Polyvalence Fortuite Et Ambiguïté Volontaire Etudes Romanes De Brno 35, 1, 2014, P.149.

[10] Op.cit, P.147

[11]**Catherine FUCHS**, **les ambiguïtés du français**, P.92.

[12] Idem, P.93

*ترجمة séquences

[13]**حلمي خليل، العربية والغموض**، ص79

[14]**Ronald LANDHEER Université de Leiden** (**Pays Bas**), **la métaphore**, **une question de vie ou de mort**, P.26.

[15]**Idem**.

[16]**Zuzana Raková Masarykova**, **Les théories de la traduction**, Univerzita Brno, 2014, P.124.

[17]**Umberto ECO**, **Dire presque la même chose**, 2003 R.C.S. Libri S.p.A., Bompiani, Milan. © Éditions Grasset & Fasquelle, 2006. Pour la traduction française, P 37.

[18] **المهدي إبراهيم الغويل، السياق وأثره في المعنى، دراسة أسلوبية**، أكاديمية الفكر الجماهيري، بنغازي، ليبيا،2011، ص17

[19] **المرجع نفسه**، ص14

[20]**Jacqueline Percebois**, « **De l'anglais au français en langue de spécialité économique** : équivalences attestées et détours des choix traductologiques », *ASp* [En ligne], 45-46 | 2004, mis en ligne le 28 mars 2010, consulté le 30 septembre 2016. URL : ttp://asp.revues.org/1055 ; DOI : 10.4000/asp.1055.

[21]**Marc BONHOMME**, **Figures du discours et ambiguïté**, **Semen**, **nouvelle série**, N° 15 (2001-2), revue de sémio-linguistique des textes et discours, annales littéraires de l'université de franche conté, Paris, 2002, P.11.

[22] **Catherine FUCHS**, **les ambiguïtés du français**, P.35

[23] https://fr.mimi.hu/economie/chevalier_blanc.html

*ترجمة virtuel

[24] **حلمي خليل، العربية والغموض**، ص79

[25]**Catherine FUCHS**, **les ambigüités du français**, P.26.

[26]**Idem**.

[27]**Idem**, **P.26**.

[28] https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D8%B9%D9%85%D9%84%D8%A9/

[29] https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D8%AF%D9%8A%D9%86

[30]**Op.cit**, P.26.

[31]**Idem**. P.27.

[32]**RAIMBAULT**, **Guy**. Comprendre aisément le monde économique et financier : guide pratique du vocabulaire et des mécanismes économiques, financiers, bancaires, boursiers, juridiques et fiscaux. Paris : JV & DS, 1995. P.02.

[33] http://nakba.ps/project-details.php?id=30

[34] https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D8%B3%D9%85%D8%A7%D8%B7/

[35]**Alessandra ROLLO**, **Approche cognitive de la traduction économique** : **réflexion théorique et retombées pratiques**, MonTI 8 (2016 : 61-93). ISSN 1889-4178, P75.

[36]**DURBAN**, **Christine**. « **La traduction financière** ». In : Universités et Colloques Rennes 2. Spécialisation de métiers : actes du Colloque international sur les Spécialités et spécialisations dans la formation et les pratiques professionnelles des traducteurs, Université Rennes 2,2002[en ligne]. Disponible sur :

http://www.colloque.net/archives/2002/SpecM%E9tiers/Specimet021.htm.

[37]Cf, Thèse de doctorat d'état option : théorie du développement : Les fondements théoriques de l'expérience algérienne de développement, présentée et soutenue Aissaoui ABDELHALIM, Directeur de recherche : Belguidoum Saïd, Année universitaire 2008-2009, (Nikine, a., la jeunesse d'une science, Editions de Moscou, p. 493).

[38] https://www.cairn.info/revue-langage-et-societe-2005-2-page-111.htm

[39]https://www.reussir-toeic.com/vocabulaire-toeic-50-expressions-idiomatiques-liees-a-lentreprise-que-vous-devez-connaitre/

[40] Idem

[41] Idem

[42] Idem

[43]**Jean DELISLE**, **Terminologie de la traduction**, John Benjamin Publishing Company, Philadelphia, USA, 1999, P.81.

[44] جريج منى، قاموس المصطلحات التجارية والاقتصادية والمالية، انكليزي-عربي-فرنسي، مكتبة ناشرون، الطبعة الأولى، لبنان، 2000. ص18

[45] http://academie-francaise.fr/sites/academie-francaise.fr/files/economie_finances_2012.pdf .P.65

[46]**KOTLER Philip**, **KOTLER on marketing**, THE FREE PRESS A Division of Simon & Schuster Inc.1230 Avenue of the Americas New York, NY 10020, Copyright © 1999 by Philip Kotler, P.60

[47]**KOTLER Philip**, **le marketing selon KOOTER**, Americas New York, NY 10020, Copyright © 1999 by Philip

Kotler France, BERNARD DUBOIS Groupe HEC, p.71

[48] **كوتلر فيليب، كوتلر يتحدث عن التسويق،** ترجمة: فيصل عبد الله بابكر، مكتبة جرير، ص.68

[49] https://www.almaany.com/fr/dict/ar-fr/cr%C3%A9neau/?c=Tous

[50] **المهدي إبراهيم الغويل، السياق وأثره في المعنى، دراسة أسلوبية،** ص14

[51]**Séleskovitch**, **D**., 1981. «Introduction. Pourquoi un colloque sur la compréhension du langage », In Actes du colloque Comprendre le langage, Paris, Didier Erudition, pp. 9-15. P12.

[52] Kotler p60

[53] https://static.lexicool.com/dictionary/KU1MG816392.pdf

[54]**Umberto ECO**, **Dire presque la même chose**, R.C.S. Libri S.p.A., Bompiani, 2003, Milan. Éditions Grasset & Fasquelle, 2006.pour la traduction française P. 16.

[55]**Catherine FUCHS**, **les ambiguïtés du français**, P.88.

[56]**Antin FOUGNER RYDNING**, **Notion d'ambigü**ité, tradterm, 5(1),1° semestre de 1998, p.11-40, P.26.

[57]**SCARPA Federica**, **la traduction spécialisée** : **une approche professionnelle à l'enseignement de la traduction**, les presses de l'université d'OTTAWA, OTTAWA, 2010. P.289.

[58] Les marchés financiers internationaux 2011 (3e éd.) Pages : 128 ISBN : 9782130584957Éditeur : Presses Universitaires de France.

[59] Idem

[60] Idem.